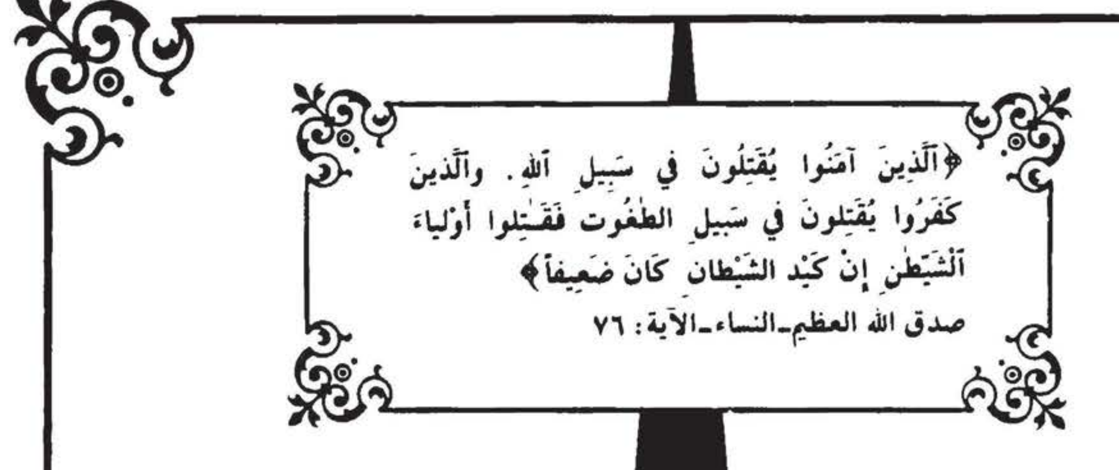

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ. وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ
ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾
صدق الله العظيم ـ النساء ـ الآية: ٧٦

الفصل الأول

١ ـ الموقف على جبهتي الصراع .

لطالما أجهد الباحثون الغربيون والمؤرخون أنفسهم في محاولة لتحديد بداية دقيقة للحروب الصليبية القديمة. وقد لا تكون هناك حاجة لتحديد مثل هذه البداية، زمنياً، إذ من المعروف تاريخياً أن الحرب بين العرب المسلمين من جهة وبين الروم البيزنطيين من جهة ثانية قد أخذ شكل حرب صليبية منذ البدايات الأولى للفتح، واستمر هذا الصراع في صعود وهبوط، طوال العهد الأموي والعهد العباسي. أما على جبهة الغرب، فقد عرفت أرض الأندلس صراعاً مريراً طوال العهد الأموي حتى إذا ما كان عهد ملوك الطوائف، وتمزقت الأندلس إلى ممالك اسلامية متصارعة، انتقل (نصارى الأندلس) للهجوم بدعم وتوجيه من الكنيسة التي حاولت حشد القوى لدول النصارى في جبهة واحدة، وكانت هذه الدول تخوض بعضها ضد بعض حروباً مستمرة، فنجحت الكنيسة في فرض السلام الداخلي، وتوجيه العداء نحو الخارج، وقد وجد هذا العداء له متنفساً على أرض الأندلس. وقد تشجع الأساقفة بما حققوه من نجاحات، حتى إذا ما كان انعقاد مجمع كليرمونت (١٨ ـ ٢٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٠٩٥) وجد ثلثمائة من رجال الدين أن الفرصة قد حانت لإعلان الحرب الصليبية ـ وأطلق البابا (ايربان الثاني)[١] صيحته الشهيرة: «فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق»[٢] وبدأت عجلة الحرب الصليبية بالتوجه نحو الشرق. وقد أبرز المؤرخون الغربيون مجموعة العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أسهمت

---

(١) البابا ايربان الثاني: (URBAIN II) واسمه اودو ـ دولاجري: (ODO-DE-LAGERY) ولد سنة: ١٠٤٢ م في شاتيون سيرمارن (CHATILLON-SUR-MARNE) ـ وانتخب لمنصب البابا سنة ١٠٨٨ م، وأصبح سنة ١٠٩٥ م السيد الروحي للعالم المسيحي وذلك بإعلانه الحرب الصليبية في مجمع كليرمونت CLERMONT ـ ومات سنة ١٠٩٩ م.

(٢) انظر الفصل الثاني في تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ـ ص: ١٤١ ـ ١٧٥.

اسهاماً كبيراً في توجه الفرنج الصليبيين نحو الشرق الذي كان ينعم بحالة من الرفاهية والتطور الاجتماعي والاقتصادي مما جعل امراء الغرب وملوكهم يستجيبون لنداءات الكنيسة التي كان يهمها حشد المقاتلين تحت غطاء فكري وعقائدي مناسب. وقد وجد فرسان الغرب، وبؤساؤهم، على السواء فرصة لهم في اقتحام عالم يختلف عن عالمهم. وقد تعرض الباحثون والمؤرخون المسلمون من جانبهم للحرب الصليبية في بداياتها على أرض المشرق، فكان مما كتبوه: «كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة - ١٠٨٥ م - فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس. ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة - ١٠٩١ م - جزيرة صقلية وملكوها. وتطرقوا إلى أطراف أفريقية فملكوا منها شيئاً، وأخذ منهم، ثم ملكوا غيره، فلما كان سنة تسعين وأربعمائة - ١٠٩٧ م - خرجوا إلى بلاد الشام. وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل - بلدوين البولوني - جمع جمعاً كثيراً من الفرنج، وكان نسيب - رجار الفرنجي[1] - الذي ملك صقلية، فأرسل إلى رجار يقول له: قد جمعت جمعاً كثيراً، وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى أفريقية أفتحها وأكون مجاوراً لك، فجمع رجار أصحابه واستشارهم في ذلك، وقالوا: وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم، وتصبح البلاد بلاد النصرانية. فرفع رجله وحبق حبقة عظيمة وقال: وحق ديني هذه خير من كلامكم. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: إذا وصلوا إليّ احتاج إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى أفريقية وعساكر من عندي أيضاً. فإن فتحوا البلاد كانت لهم. وصارت المؤنة لهم من صقلية، وينقطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلاّت كل سنة، وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم. ويقول لي حاكم مصر الفاطمي - تميم - غدرت بي ونقضت عهدي. وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا. وبلاد أفريقية باقية لنا، متى وجدنا قوة أخذناها. وأحضر رسول بردويل وقال له: إذا عزمتم على جهاد المسلمين فأفضل

---

(١) رجار - هو روجر الأول: (ROGER I) ابن تانكرد - دوهوتفيل ملك صقليا - و (TANCREDE DE HAUTEVILLE) وقد ولد سنة ١٠٤٠ م واستولى على صقلية وأقام فيها مملكة: (١٠٧٠ - ١١٠١ م) وخلفه روجر الثاني: (١١٠١ - ١١٥٤ م).

ذلك فتح بيت المقدس، تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر. **فأما أفريقية فبيني** وبين أهلها أيمان وعهود. فتجهزوا وخرجوا إلى الشام. وقيل إن أصحاب مصر من الفاطميين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية - السنة - وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من الوصول إلى مصر وملكها، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين. والله أعلم»[1].

لم يكن ملك صقلية هو الملك الوحيد الذي وضع هدفين له من التحرك الصليبي الشامل: إبعاد جموع الصليبيين عن حدود مملكته، واستثمارهم قدر المستطاع لدعم قدرته وامكاناته. وإنما سار معظم ملوك الغرب على هذا الاتجاه ذاته، ففرضوا قيوداً صارمة على تحرك جيوش الفرنج حتى لا تتعرض ممالكهم للنهب والتدمير. وكذلك فعل أيضاً ملك الروم البيزنطيين الذي أراد الافادة من قوة الفرنج لتدمير قوة السلاجقة التي فرضت وجودها على آسيا الصغرى. وظن أن الدعوة الصليبية ستوفر له دعماً يضمن له تحقيق هدفه. ولكنه ارتاع عندما علم أن جيوشاً بأكملها من الفرنج تشق طريقها نحو بلاده، بدلاً من الفرسان الفرادى والجماعات الصغيرة والتي توقع انحيازها إلى قواته. وقد صورت المصادر التاريخية موقف ملك الروم - الكسيوس أو الكسيس - بالكلمات التالية:

«لم يفرح الكسيوس بجيوش الفرنج، لأنه علم بالتجربة أن الفرنج هم عنصر متقلب الأهواء متعطش للحصول على المال، ولا يحفل بالوفاء بما يعقده من الاتفاقات. وعلى الرغم من شدتهم بالهجوم، فإن هذه الشدة ليست في بعض الأحوال من المزايا الطيبة. وانزعج البلاط البيزنطي لما علم - على حد قول الأميرة أنه كومنين: أن كل القبائل المتبربرة في الغرب بأسره - من وراء بحر الادرياتي حتى عمودي هرقل في مضيق جبل طارق - أخذوا يتحركون كتلة واحدة، مجتازين أوروبا نحو آسيا وجلبوا معهم أسراتهم.

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة تسعين وأربعمائة.

ولم يكن امبراطور الروم وحده هو الذي انزعج لذلك، بل شاركه في انزعاجه أفراد رعيته. وكان ذلك طيرة منذرة حيث تناقل الناس بأن أرتالاً ضخمة من الجراد تجتاح أوروبا، فلا تمس الحبوب وإنما تلتهم الكروم. وفسَّر المنجمون ذلك بناء على ايعاز من بلاط الامبراطور حتى لا يشيع اليأس والقنوط، بأن الفرنج لن يتعرضوا بالأذى للمسيحيين الأخيار، الذين رمز لهم بالقمح مصدر خبز الحياة. وسوف يحطمون المسلمين، وهم قوم جرى تشبيه شهوانيتهم بالكروم. والواقع أن ما أشاعته الأميرة (أنه) من تفسير، يشوبه بعض الريبة، غير أن تشبيه الفرنج بالجراد هو أمر بالغ الوضوح. ولهذا فقد شرع الامبراطور الكسيوس في اتخاذ التدابير الضرورية بهدوء، من أجل تأمين المواد التموينية، وإقامة المستودعات على امتداد الطرق التي ستسلكها جيوش الفرنج، مع تنظيم الحراسة لمنع الفرنج من تخريب القرى وسلب السكان. وبالرغم من ذلك فقد حدثت مجموعة من الاشتباكات الصغرى بين جند الامبراطور الكسيوس وبين الفرنج، ولم يكن بوسع الصليبيين مقاومة جيوش الامبراطور المشهورة بحسن اعدادها وتجهيزها.

وأفاد الامبراطور من ذلك، ففرض على (جودفري - وبلدوين) [1] وكبار القادة أن يحلفوا له يمين الولاء، وأن يعترفوا به سيداً على كل ما يفتحونه من

---

(١) من المعروف أن قوات الحملة الصليبية الأولى قد انتظمت في خمسة جيوش:

أ - جيش المتطوعين من كل أوروبا - وتولى قيادته بطرس الناسك: (PIERRE L'ERMITE) مع وولتر المغلس: (GAUTHIER SANS AVOIR) وقد دمره المسلمون التركمان في نيقية.

ب - جيش اللورين والالامان - وهو أكبر الجيوش وتولى قيادته بودوان - دوهينّو BAUDOUIN DE HAINAUT وغودفردي - دوبويون GODEFROY DE BOUILLON.

ج - جيش فرنسا الشمالية: وتولى قيادته - كونت دوفير ماندوا COMTE DE VERMANDOIS - ودوق نورماندي DUC DE NORMANDIE.

د - جيش البروفانس - وتولى قيادته كونت تولز CONTE DE TOULOUSE - وأديمار دومونتي ADEMAR DE MONTEIL.

هـ - جيش النورمان في إيطاليا وصقلية، وتولى قيادته - بوهمند BOHEMONDE DE TARENTE وتنكرد دوهوتفيل - (TANCREDE DE HAUTEVILLE).

بلاد. وأن يسلموا لموظفي الامبراطور كل ما استردوه من بلاد - كانت أصلاً من بلاد الامبراطور ثم فتحها المسلمون -.

وجرى هذا القسم في يوم عيد القيامة (٢ - نيسان - ابريل - ١٠٩٧ م) وتلقى الصليبيون بعد ذلك هدايا كثيرة من الأموال. واحتفى بهم الامبراطور في مأدبة فاخرة.

لم يكن لدى الامبراطور الكسيوس سوى وقت قصير لمعالجة موقف جديد، فقد علم أن جيشاً مختلطاً من اتباع جودفري، الذين آثروا الرحيل عبر ايطاليا، قد وصلوا إلى الضواحي الواقعة بأطراف القسطنطينية، وقد أظهروا من الشراسة ما أظهره جودفري من قبل. فقرر الكسيوس اخضاعهم قبل أن ينضموا إلى جودفري، وأمكن له السيطرة على تحركاتهم بعد قتال قصير. ثم أمر بنقلهم بحراً إلى العاصمة حيث انحازوا إلى سائر الجماعات الصليبية الصغرى التي وصلت، بعد أن شقت طريقها في البلقان. وبذل الامبراطور كل ما عنده من كياسة، وأغدق الهدايا الوفيرة، كيما يحمل زعماءهم على أن يحلفوا له يمين الولاء والطاعة. ولما ارتضوا ذلك آخر الأمر، زاد الامبراطور في جلال هذه المناسبة، بأن دعا بلدوين وجودفري لشهود الاحتفال. فاشتد حنق زعماء الغرب، وزادت شراستهم وحدّتهم، إذ جلس أحدهم على عرش الامبراطور، وعندئذ انبرى بلدوين لتأنيبه ولفت نظره إلى أنه أصبح من أتباع الامبراطور، وطلب إليه أن يراعي تقاليد البلاد. غير أن هذا القائد صار يتمتم في غضب:

إذ كيف يجوز للامبراطور أن يجلس، على حين أن عدداً كبيراً من القادة الشجعان يظلون واقفين؟

ولما علم الكسيوس بهذه الملاحظة، بعد أن جرت ترجمتها له، طلب أن يتحدث إلى الفارس. ولما أخذ الفارس يتباهى ببسالته التي لم تنثلم في مبارزة فردية، تلطف الامبراطور معه، ونصحه بأن يلتمس خططاً أخرى عند لقائه مع الأتراك المسلمين.

تصور هذه الحالة وأمثالها تصويراً دقيقاً تلك العلاقات التي كانت قائمة بين امبراطور الروم البيزنطيين وبين قادة الفرنج الصليبيين وجندهم. ولا ريب أن

أولئك الفرسان الأحلاف القادمين من الغرب، اشتد تأثرهم بما للبلاط البيزنطي من الأبهة والعظمة، وبما اتسم به رجال البلاط من الطباع الرزينة والتصرفات المهذبة، مع الحرص على مراعاة المراسيم، غير أنهم نفروا من ذلك. وكان ما أصاب كبرياءهم من الجراح هو الذي جعلهم غلاظ الطباع، يميلون إلى المشاكسة، شأن الأطفال الشرسين.

يمكن الانتقال إلى صورة أخرى تمثل قوة من القوى التي كان لها دورها الكبير في الحملة الصليبية الأولى، وهي قوة النورمان في ايطاليا وصقلية. وهذه قوة لم تحفل في أول الأمر بدعوة البابا ايربان للحروب الصليبية، نظراً لاستمرار الحروب الأهلية التي نشبت فيما بينهم في جنوب ايطاليا، عقب وفاة روبرت جويسكارد، فالمعروف أن روبرت هذا كان قد طلق زوجته الأولى التي انجب منها بوهمند. وأوصى بدوقية - أبوليا - إلى ابنه روجر بورصا من زوجته الثانية سيجلجايتا. فأعلن بوهمند الثورة على أخيه روجربورصا، وعزم على أن يستخلص لنفسه اوترانتو (طارنت) في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة، وذلك قبل أن يلجأ عمهما أمير صقلية - روجر - إلى تسوية الأمور بينهما. ولم يعترف بوهمند بالهدنة التي فرضها البابا، فاستمر في العمل سراً وخلسة على مناهضة أخيه روجر بورصا. ثم حدث في صيف سنة ١٠٩٦ م، أن اتفقت الأسرة الملكية كلها على أن تنزل العقاب بمدينة - أمالفي - الثائرة عليهم. وكانت المرسومات البابوية المتعلقة بالحرب الصليبية قد صدرت فعلاً. واجتاز البحر جماعات صغيرة من الايطاليين من جنوب شبه الجزيرة نحو الشرق. ثم أدرك بوهمند أهمية الحركة الصليبية حين وصلت جيوش الصليبيين المتحمسة والقادمة من فرنسا، واستقرت في ايطاليا، حيث أدرك بوهمند عندها أن من مصلحته الافادة منها، لاسيما وأن عمه أمير صقلية - روجر - لن يسمح له مطلقاً بأن يضيف إلى أملاكه دوقية أبوليا. فرأى أنه من الخير له بأن يقيم مملكة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وما اتصف به الصليبيون الفرنسيون من الحماسة، قد أثار عدوى الحماسة إلى الجنود النورمان المرابطين أمام - أمالفي -. ولقي النورمان التشجيع من بوهمند، فأعلن أنه سوف يشترك في الحملة الصليبية، ودعا بوهمند جميع المسيحيين المؤمنين

للانضمام إليه. وخلع بوهمند أمام الجيش رداءه الأحمر الثمين، ومزقه قطعاً صغيرة، جعل منها صلباناً لقادته. وبادر أتباعه بالانضواء تحت لوائه. وحذا حذوهم عدد كبير من أتباع أخيه واتباع عمه صاحب صقلية ـ روجر ـ الذي جأر بالشكوى من أن الحركة الصليبية قد سلبته جيشه.[1].

يظهر من ذلك أن الكنيسة قد نجحت ـ في فرنسا خاصة وربما بحكم مجاورتها للاندلس ـ بإثارة الحماسة لدى الجماهير من أجل الاشتراك في الحملة الصليبية الأولى. ولقد انضوت تحت راية الصليبية أمم شتى، وكل يبحث عن الحل لمشكلاته على حساب المسلمين وبلادهم: الفقراء أرادوها للحصول على الثروة، والامراء للحصول على اقطاعات وإمارات وممالك، والروم ـ البيزنطيين لازالة خطر المسلمين من الأتراك السلاجقة. فكم بلغ عدد الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى؟.

لقد تناقضت الروايات في تقويم الحجم الحقيقي للجيوش الصليبية. وأشارت بعض المصادر إلى أن جموع بطرس الناسك قد ضمت بين صفوفها نحواً من عشرين ألفاً ـ فيهم عدد كبير من غير المحاربين. أما الجيوش الصليبية الرئيسة، وهي جيوش ريموند وجودفري، وشمال فرنسا فقد زاد عدد مقاتلي كل منها على عشرة آلاف، ونقص جيش بوهمند عن ذلك قليلاً. كما انضمت إلى هذه الجيوش جموع أخرى أقل عدداً» بحيث بلغ عدد الذين اجتازوا بلاد الروم البيزنطيين في طريقهم إلى بلاد الشام بين صيف ١٠٩٦ وربيع ١٠٩٧ م قد تراوح بين ستين ومائة ألف صليبي.

ومقابل ذلك، كان الموقف على الجبهة الإسلامية مثيراً للغاية، حيث كانت الصراعات الداخلية تمزق المجتمع الإسلامي تمزيقاً خطيراً. ولاسيما بين أهل السنة، وبين المتشيعين حكام مصر (الفاطميين). وكانت بلاد الشام هي مسرح الصراع، حيثُ كان يحاول كل طرف فرض سيطرته عليها. واستطاع جند السلطان ملكشاه ـ التركمان بقيادة تتش بالاستيلاء على حمص وطرابلس وسواها من مدن الشام: (سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩١ م). ولكن عسكر المستنصر بالله حاكم مصر تمكنت من إعادة

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٢٢٠ ـ ٢٢٣ و ٢٤٣.

الاستيلاء على مدينة صور في السنة التالية كما بقيت القدس تحت حكم مصر. وفي سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م. استطاع حكام مصر أن يفرضوا على حكام بلاد الشام - حتى حلب - سيطرتهم، والدعاء لهم على المنابر، وبقيت كل مدينة من مدن بلاد الشام مستقلة بحكمها وجيشها، وفي حرب مع المدن الاخرى - على نحو ما حدث سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م. عندما سار أمير حلب رضوان بن تتش بن ألب أرسلان إلى دمشق لمحاربة أخيه دقاق بن تتش والاستيلاء على دمشق. وكان هذا هو الموقف يوم وصل الفرنج في السنة التالية.

٢ - المسلمون في مواجهة الصدمة الأولى .

وصل بطرس الناسك وجيشه إلى القسطنطينية قبل بقية جيوش الفرنج. وعبر البوسفور إلى القسم الآسيوي. واقترح امبراطور الروم على بطرس أن ينتظر في موضعه وصول الجيوش الرئيسة للفرنج. ولكن جند بطرس لم يلتزموا بنصيحة بطرس. وبدأت جموع الالمان والايطاليين تحت امرة قياداتها بالمنافسة والسباق مع جموع الفرنسيين للإغارة على الأراضي الزراعية التي كانت تحت حكم الأتراك المسلمين، فنهبوا القرى، وطرقوا أبواب عاصمة السلطان السلجوقي قلج أرسلان - مدينة نيقية - فنهبوا القرى بالضواحي، واستاقوا ما صادفوه من الماشية والأغنام، وقتلوا السكان بوحشية بشعة - بمن فيهم المسيحيين - وقيل أنهم قاموا بشواء الأطفال على السفافيد. وخرجت من المدينة سرية من الجيش التركي لقتالهم: غير أنها ارتدت على أعقابها بعد قتال عنيف. ثم عاد الصليبيون إلى قاعدتهم - في كيفيتوت - حيث باعوا ما غنموه إلى رفاقهم وإلى البحارة البيزنطيين. وكان ما أحرزه الفرنسيون من الغنيمة الثمينة كافياً لإثارة شهية الألمان، فخرجت قوة منهم في أواخر أيلول - سبتمبر - سنة ١٠٩٦ م، ومعهم عدد من القسس والأساقفة، وتجاوزوا في سيرهم مدينة - نيقية -. وانطلقوا للنهب حتى وصلوا إلى قلعة كبيرة حملت اسم - اكسير يجوردون - وحاولوا الإستيلاء عليها لما عرفوا أنها زاخرة بالمؤن من جميع الأنواع؛ ونجحوا في اقتحامها، وقرروا اتخاذها قاعدة لهم من أجل الإغارة على الأراضي المجاورة. ولما علم السلطان قلج أرسلان بذلك. وجه جيشاً لاسترداد القلعة التي كانت تحتل رعناً مرتفعاً. وتستمد ماءها من نبع يقع خارج الأسوار، ومن نبع بالوادي الذي يجري تحتها. واستطاع الجيش التركي أن ينزل الهزيمة بقوات كمين نصبه الفرنج. وطوق القلعة وحرّم حاميتها من الوصول إلى الماء. واستبد اليأس بالألمان بعد أن اشتد بهم الظمأ حتى أشرفوا على الهلاك. ولم تنفعهم نصائح القسس بالصبر، ففتحوا الأبواب بعد أن حصل قائدهم - رينالد -

على وعد بالإبقاء على حياته إذا تخلى عن المسيحية. وقتل كل من يرفض الدخول في الإسلام. وتْقرر ارسال رينالد وأصحابه الذين اعتنقوا الإسلام إلى حلب وانطاكية وإلى خراسان أيضاً.

وصلت أنباء استيلاء الألمان على قلعة ـ اكسيريجوردون ـ إلى بقية قوات الصليبيين المقيمين في ـ كيفيتوت ـ ولكن أنباء استرداد القلعة لم تصلهم. وأشاع الأتراك بواسطة جواسيسهم أن قوة الألمان قد نجحت في احتلال ـ نيقية ـ ذاتها. وأنها أخذت في اقتسام الغنائم فيما بينها. وأدى ذلك إلى ما توقعه الأتراك المسلمون من حدوث اضطراب في معسكر كيفيتوت، حيث طلب الجند السماح لهم بالإسراع إلى نيقية، ولم يتمكن القادة من كبح جماح جنودهم. إلى أن جرى فجأة اكتشاف ما نزل بقوة الألمان في قلعة اكسيريجوردون ـ حيث قتل معظم أفراد القوة البالغ عددهم ستة آلاف جندي. وعندها تحولت الاثارة إلى ذعر. واجتمع قادة الجيش للتشاور فيما يفعلونه بعد ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية للحصول على معونة مادية. واشتدت ثائرة الجيش وحماسته للانتقام لما وقع في اكسيريجوردون. غير أن والتر المفلس حثّ زملاءه على انتظار عودة بطرس. وفي تلك الأثناء شاع أن الترك السلاجقة قد اقتربوا بجيوشهم من كيفيتوت. فاجتمع مجلس الحرب مرة أخرى، وقرروا بضغط من الجيش الثائر الخروج للقاء الأتراك المسلمين وتحرك الجيش الصليبي بأكمله من كيغيتوت عند بزوغ الفجر من يوم ٢١ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٠٩٦ م. وقد زاد عدد أفراده على عشرين ألف رجل. ولم يتركوا خلفهم سوى الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى. وسار الجيش على طريق نيقية عبر واد ضيق تكتنفه الغابات حتى وصل قرية دراكون التي لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال عن معسكر الفرنج في كيفيتوت.. واندفعت قوة الفرسان في المقدمة، وتبعها الجيش بدون نظام، وجلبة الجند وضوضاؤهم تسبقهم إلى بعيد. وفجأة انهالت السهام من الغابة فأصابت خيول فرسان المقدمة أو قتلتها؛ وسادت الفوضى والاضطراب، وسقط الفرسان عن ظهور الخيل. وأظهر فرسان الفرنج ـ أو بعضهم على الأقل ـ شجاعة فائقة في قتال المسلمين الذين انقضوا عليهم. ولكن الذعر هيمن على الجيش بصورة عامة، ولم تمض فترة طويلة

حتى شرع جيش الفرنج بكامله في التماس طريق النجاة ـ دون نظام ـ والفرار نحو معسكر كيفيتوت، فيما كان الترك المسلمون يطاردونهم حتى بلغوا معهم معسكرهم، ولم تحدث في المعسكر مقاومة كبيرة، ولقي كثير من جند الفرنج مصرعهم، وقتل معهم قِسَسُهُمْ قبل أن يتهيأ لهم الوقت للتحرك والسير. والتجأ فريق منهم إلى الغابات المجاورة، فيما هرع آخرون إلى البحر، ولم يفلت منهم إلا القليل ـ وأسر الترك المسلمون صبيان الفرنج وفتياتهم وجندهم الذين وقعوا في الأسر بعد أن انتهت الشدة الأولى من القتال. على أن ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل كانوا أحسن حظاً من الآخرين، إذ نجحوا في الوصول إلى قلعة مهجورة تقع على شاطىء البحر، وتجردت من أبوابها ونوافذها. غير أن اللاجئين الذين استمدوا من اليأس قوة، بادروا بإقامة التحصينات من أشجار الغابات المحيطة بهم، وتمكنوا من إيقاف هجمات المسلمين. وصمدت القلعة، غير أن كل شيء في سائر الجهات الأخرى كان قد انتهى في منتصف النهار. فملأت جثث القتلى الطريق ما بين موقع المعركة والبحر. وكان فيمن هلك والتر المفلس وعدد كبير من قادة الجيش وامرائه. واستطاع أحد الروم ـ البيزنطيين ـ الذين كانوا برفقة الجيش، أن يعثر على قارب في الماء. فأقلع به إلى القسطنطينية، وروى خبر المعركة إلى كل من بطرس الناسك والامبراطور البيزنطي الكسيوس الذي أصدر أمره على الفور بإرسال عدد من السفن الحربية لنقل قوات ضخمة وانقاذ من بقي من القوات. ولما وصلت قوات الروم، رفع الترك الحصار عن القلعة وانسحبوا إلى الداخل. وحملت السفن من تبقى حياً من جيش الفرنج الصليبيين، وعادت بهم إلى القسطنطينية، حيث جرى انزالهم بالضواحي بعد أن نزع الأسلحة منهم.

كانت هذه هي نهاية حملة الشعوب الصليبية. ولكن هذه النهاية لم تكن أكثر من بداية لملحمة الحملات الصليبية. فقد دمّر الأتراك المسلمون في آسيا الصغرى جيشاً واحداً، فيما كانت بقية الجيوش بعيدة عن مسرح الأحداث. ثم أخذت في الوصول تباعاً إلى المعسكر الذي أقامه لها الامبراطور البيزنطي ـ الكسيوس كومنين ـ في (بليكانوم) مع مطلع فصل الربيع من سنة ١٠٩٧ م. وكان جيش اللورين والألمان ـ بقيادة جودفري دوبويون ـ هو أول جيش وصل إلى معسكر الحشد، ولحق به

جيش النورمان الذي تولى قيادته (بوهمند دوتارنت). وكان لا بد لهذه الجيوش من أن تدين بالعرفان لامبراطور الروم الكسيوس، باعتباره السيد الأعلى للمسيحية ـ لما قدمه من دعم ومساعدة لجيوش الفرنج أثناء عبورها لبلاده، حيث كانت مستودعات التموين تقدم لها ما تحتاجه من الطعام والمساعدة طوال مسيرها من غرب بلاد الروم إلى شرقها. كما حرص ملك الروم على اعداد الأدلاء من أجل مرافقة جيوش الحملة أثناء مسيرها لقتال المسلمين. وقد غادر جيش اللورين ـ بقيادة أميره جودفري ـ قاعدته في بليكانوم وذلك يوم ٢٦ نيسان ـ ابريل ـ ١٠٩٧ (٤٩١ هـ) متوجهاً إلى (نيقوميديا)[١] حيث توقف فيها ثلاثة أيام بانتظار وصول جيش ـ بوهمند ـ الذي تولى قيادته ـ تانكرد ـ وانضم إليه بطرس الناسك ومن تبقى معه من جموعه. أما بوهمند فإنه مكث بضعة أيام في القسطنطينية ليدبر مع الامبراطور الكسيوس أمر امداد الجيش بالمؤن. وصحب الجيش الصليبي قوة من المهندسين البيزنطيين ومعهم أدوات الحصار. ثم قاد جودفري الجيش من نيقوميديا إلى ـ كيفيتوت ـ ثم انحرف جنوباً، مخترقاً الدرب الذي هلك فيه رجال بطرس، ولا زالت عظامهم تغطي مدخل الدرب وتمنع المرور فيه. وإذ خشي جودفري أن يلقى مصير من سبقه على هذا الدرب، فقد التزم بنصيحة امبراطور الروم، وأخذ باسباب الحذر والحيطة في سيره، فكان يدفع أمامه الكشافة والمهندسين لتطهير الدرب وتوسيعه، وتقرر وقتذاك تمييزه بإقامة سلسلة من الصلبان الخشبية، لتكون دليلاً للحجاج الذين يقدمون مستقبلاً. ووصل جودفري إلى (نيقية)[٢] يوم ٦ ـ أيار ـ مايو ـ. ووقف أمام المدينة التي اشتهرت منذ القرن الرابع الميلادي بقوة تحصيناتها، والتي امتدت أسوارها بطول أربعة أميال وقامت على حراستها وحمايتها مجموعة من الأبراج بلغ عددها ٢٤٠ برجاً، وقد دأب الروم البيزنطيين على صيانتها واصلاحها باستمرار حتى استولى عليها الأتراك

---

(١) نيقوميديا: (NICOMEDIE) هو الأسم القديم لمدينة ازميت: (IZMIT) أو مدينة الخوجة علي ـ حالياً ـ (KOUJA-ELI) وهي مدينة تركية تقع على بحر مرمره.

(٢) نيقية: (NICEE) وتعرف باسم ازنيك: (IZNIK) وهي مدينة في آسيا الصغرى ـ الأناضول ـ وقد اتخذها قلج أرسلان سلطان السلاجقة عاصمة له.



ازنيك ـ أو نيقية ـ. أول عقبة على طريق الصليبيين.

السلاجقة، وهي تقع على الطرف الشرقي من بحيرة أسكان، وارتفعت أسوارها الغربية من خلال المياه الضحلة، فكونت شكلاً خماسياً غير منتظم.

أقام جودفري معسكره ونظمه لحصار الجهة الشمالية من السور، وترك لجيش تانكرد مهمة اكمال الحصار من جهة السور الشرقي. وبقيت جهة السور الجنوبي حرة بانتظار وصول جيش ريموند. وكان معظم سكان نيقية من المسيحيين، إلا أنه توافرت لها حامية ضخمة من الأتراك المسلمين. وقد شعر قائد الحامية بالحاجة للامداد والدعم، فوجّه الرسل الذين وقع أحدهم في قبضة الفرنج الصليبيين، وطلب من السلطان دفع العساكر إلى المدينة من الأبواب الجنوبية قبل أن يكتمل تطويقها. ولكن ريموند وصل وجيشه يوم ١٦ - أيار - مايو - ١٠٩٧ م، ووزّع قواته أمام السور الجنوبي. ولم يمض يومان أو ثلاثة حتى انحاز إلى جيشه بوهمند وعساكره. وزادت كثافة قوات الجيش الصليبي بمن انضم إليه من النورمان والفرنسيين. وصار يعمل على أنه كتلة واحدة، على الرغم من أنه لم يكن للجيش وقتذاك قائد عام واحد. فكانت القرارات والأوامر تصدر عن الأمراء بعد اجتماعهم في هيئة مجلس. ولم يقع بينهم حتى وقتذاك اختلاف خطير، وتحرك في تلك الاثناء الامبراطور الكسيوس إلى - بليكانوم ليكون في موقع متوسط بين عاصمته وبين نيقية.

عندما وصلت أول قوة تركية لنجدة حامية (نيقية) وجدت بأن الحصار قد اكتمل من جهة البحر، فاشتبكت لفترة قصيرة مع عسكر - ريموند - ثم انسحبت إلى موقع مشرف على معسكر الفرنج، وأخذت في انتظار وصول الكتلة الرئيسة للجيش بقيادة السلطان قلج أرسلان ذاته، وأثناء ذلك أصدر امبراطور الروم - الكسيوس - تعليماته إلى قائده - بوتوميتس - للاتصال بالحامية التركية في المدينة. وقام قائد الحامية التركية بتسهيل مهمة بوتوميتس، وإدخاله إلى المدينة. وجرت مفاوضات حول شروط الاستسلام، غير أن المفاوضات توقفت عندما علم قائد الحامية التركية بوصول جيش السلطان إلى ضواحي المدينة (يوم ٢١ - أيار - مايو). حيث حاول هذا الجيش اقتحام دائرة الحصار من جهة الجنوب. ودارت معركة ضارية استمرت طوال اليوم، وأسفرت عن وقوع خسائر فادحة في قوات الطرفين، غير أن جيش المسلمين لم ينجح

في بلوغ هدفه، فقرر السلطان قلج أرسلان الإفادة من ظلمة الليل للإنسحاب نحو الجبال، والتخلي عن محاولة فك الحصار بالقوة، بعد أن عرف ضخامة جيش الفرنج وقوته، وأرسل إلى قائد الحامية تعليمات للتفاوض مع الروم للإنسحاب وتسليمهم المدينة - إذا كان من المحال الاستمرار في المقاومة -.

حاول الفرنج تشديد الحصار بعد نجاحهم في منع قوات السلطان من الوصول إلى (نيقية) كما حاولوا في الأيام التالية نقب أحد الأبراج الواقعة إلى الجنوب. ونجح النقابون في حفر قاعدة هذا البرج، غير أن الحامية الإسلامية كانت تصلح في الليل ما يخربه الفرنج في النهار. وتبين للفرنج أن الحامية الإسلامية المدافعة عن المدينة كانت تحصل على ما تحتاجه من المواد التموينية عن طريق البحيرة. فطلب الفرنج من الامبراطور البيزنطي ارسال السفن لمنع وصول الامدادات إلى المسلمين، فاستجاب الامبراطور لطلبهم وأرسل اسطولاً صغيراً بقيادة بوتـوميتس، وكلفه في الوقت ذاته بمعاودة الاتصال مع قائد الحامية المدافعة عن المدينة بهدف منع الفرنج من تخريب المدينة ونهبها والإساءة إلى رعاياه المسيحيين الذيـن كـانـوا بحمايـة المسلمين. وجـرت المفاوضات حول شروط التسليم. فيما كان الفرنج يعدون العدة للقيام بهجوم شامل حددوا موعده يوم ١٩ حزيران - يونيو -. وعندما أشرقت شمس هذا اليوم، شاهد الفرنج الصليبيون اعلام امبراطور الروم وقد ارتفعت على الابراج. ذلك أن الأتراك استسلموا أثناء الليل. ودخلت قوات الروم إلى المدينة - ومعظمها من البجناك - عبر الابواب المطلة على شاطىء البحيرة. ويظهر أن قادة الفرنج كانوا على علم بالمفاوضات، ولم يستنكروها، لأنهم رأوا أنه ما من حاجة بهم لاضاعة الوقت، وخسارة الرجال من أجل اقتحام مدينة لن يسمح لهم بامتلاكها. غير أنهم بقوا في جهل تام بالمراحل الختامية للمفاوضات. ولكن سائر العساكر أدركوا أنهم خدعوا، وأنه جرى صرفهم عن غنيمتهم، إذ كانوا يأملون في نهب كنوز نيقية، ولكنهم بدلاً من ذلك حرموا من دخول المدينة إلا بمجموعات صغيرة - لا يزيد عدد أفرادها على العشرة، وتحت المراقبة الصارمة لجهاز شرطة امبراطور الروم. وكانوا يأملون في الحصول على فدية ضخمة من النبلاء الأتراك، غير أنهم رأوا هؤلاء وهم ينقلون مع امتعتهم تحت حراسة

شديدة إلى القسطنطينية أو إلى حيث كان الامبراطور ينزل في بليكانوم. فاشتدت كراهية الصليبيين للامبراطور. على أنه خفف من حدة هذه الكراهية ـ إلى حدٍ ما ـ ما اشتهر به الامبراطور من السخاء، إذ بادر الكسيوس بإصدار الأوامر بأن يصرف فوراً لكل محارب صليبي منحة من المؤونة. كما دعا القادة الصليبيين إلى القدوم إلى بليكانوم ومنحهم مقادير كبيرة من الذهب والجواهر مما غنمه من أموال السلطان السلجوقي ـ قلج أرسلان ـ واستبدت الدهشة بهؤلاء القادة لرؤية اكداس الذهب التي كانت من نصيبه. ومقابل ذلك طلب الامبراطور الكسيوس إلى الفرسان الذين لم يحلفوا بعد يمين الولاء له، أن يبادروا إلى ذلك، فأذعن لطلبه عدد كبير من صغار السادة المقطعين، الذين لم يشأ أن يزعجهم بذلك عند اجتيازهم القسطنطينية. على أن الصليبيين صدمهم ما كان من معاملة الأمبراطور للأسرى الأتراك، إذ سمح لموظفي قصر السلطان وكبار القادة بافتداء أنفسهم. أما السلطانة ـ ابنة الأمير جكا ـ فجرى استقبالها في حفاوة بالقسطنطينية ـ. وكان لا بد أن تبقى بها حتى تصلها رسالة من زوجها، عن الموضع الذي تلحقه به. وتقرر إنفاذها مع أبنائها إلى السلطان دون دفع الفدية★.

على كل حال، ورغم ما أصاب الفرنج من خيبة الأمل في أنهم لم يستولوا بأنفسهم على مدينة نيقية، ولم يتمكنوا من اغتنام ثرواتها، فإن اعادة هذه المدينة لحكم الصليبيين ولو لمصلحة الروم، قد ملأهم غبطة وسروراً وأملاً في المستقبل. وأرسلت الرسائل إلى الغرب للإعلام بأن هذا الموضع المبجل قد عاد للمسيحية مرة أخرى. وتلقى الناس هذا النبأ وتناقلوه بحماسة شديدة، فقد أحرزت الحملة الصليبية أول نجاح لها. فأخذ الجند في التدفق على معسكر الفرنج. كما أن المدن الإيطالية التي بقيت حتى ذلك

★ لقد اعتبر امراء الغرب وقادتهم أن امبراطور الروم يتصرف بوجهين مختلفين، وأنه ليس مخلصاً لقضية الصليبيين. وذلك أنهم كانوا يجهلون مثل هذا النوع من السلوك الذي طالما أخذ به المسلمون في تعاملهم مع أسرى اعدائهم، ومع امرائهم وملوكهم خاصة، مما حمل هؤلاء على التعامل مع المسلمين بالنهج ذاته. لقد علم المسلمون ملوك الروم أدب الحرب وتقاليد الحرب التي كان يجهلها الغربيون وملوكهم وقادتهم.

الوقت شديدة الحذر، وبالغة الميل إلى التمهل في تقديم ما وعدت به من المساعدة، أخذت تظهر مزيداً من الاهتمام بالحركة الصليبية.

تحركت مقدمة الفرنج بعد مضي اسبوع واحد على احتلال نيقية (يوم ٢٦ حزيران - يونيو) وتبعتها بقية قوات جيش الفرنج في اليومين التاليين. وكان على هذه القوات أن تصل إلى (دوريليوم) [١] حيث كانت تتفرع منها الطرق نحو الشرق، سواء للوصول إلى وادي الفرات وأرمينيا، أو للوصول إلى أنطاكية عبر دروب جبال طوروس (اللكام). وقد تخلف عن الجيش عدد من الصليبيين الفرنج، فيهم جرحى معركة نيقية - حيث انضموا إلى جيش امبراطور الروم الذي ألحقهم بالقائد بوتوميتس بعد أن كلفه بإعادة تحصين نيقية، واقامة حامية قوية فيها.

عقد أمراء جيش الفرنج مؤتمراً لهم للتشاور في قرية لويكي عند الجسر القائم على النهر الأزرق. وقرروا تقسيم الجيش إلى قسمين أو مجموعتين المجموعة الأولى بقيادة بوهمند والمجموعة الثانية بقيادة ريموندكونت تولوز - وسار الجيش على الفور نحو دوريليوم، تتقدمه المقدمة ومعها الادلاء والمهندسين البيزنطيين.

عمل السلطان قلج أرسلان بعد فشله في انقاذ حامية عاصمته - نيقية - على الانسحاب نحو الشرق، لاعادة تنظيم قواته، وعقد صلحاً مع الأمير الدانشمندي الذي كان يحاربه من قبل، وذلك لمواجهة العدو المشترك، ثم توجه من جديد نحو الغرب، وقد حشد كل ما استطاع حشده من القوى. واتخذ مواقعه في واد قرب دوريليوم يوم ٢٠ حزيران - يونيو - استعداداً لمواجهة الفرنج الصليبيين الذين لا بد لهم من المرور عبر هذا الوادي لمتابعة تقدمهم ولم يلبث الجيش الصليبي أن تقدم وأقام معسكره في سهل - ساري سو - على الأغلب في مساء يوم ٢٦ حزيران - يونيو - وعند شروق الشمس من اليوم التالي، اندفع فرسان الترك من جانب مرتفع - كردجا شهر - المشرف على معسكر الفرنج وهم يكبّرون ويهللون، فوجدوا أن الفرنج قد أخذوا

---

(١) دوريليوم: (DORYLAEUM) وبالفرنسية: (DORYLEE) وباليونانية: (DORULAION) وهي مدينة قديمة في آسيا الصغرى - الأناضول - وتقع بالقرب من مدينة أسكي شهر حالياً وعلى بعد مسافة ميلين إلى الشمال الشرقي منها.

أهبتهم، وبادر غير المقاتلين منهم للتجمع في وسط المعسكر الصليبي حيث توافرت ينابيع المياه، وقامت النساء بمهمة نقل المياه للمحاربين في الخط الأمامي. وتقرر نصب الخيام فوراً، وصدرت الأوامر إلى الفرسان بالترجل عن خيولهم، فيما توجه الرسل إلى الجيش الصليبي الثاني لحثّه على التعجيل بالسير. وجمع قائد الجيش - بوهمند - قادته، وتحدث إليهم عن الاستعدادات لخوض قتال شديد شاق. وطلب إليهم أن يلتزموا في بداية الأمر خطة الدفاع. وأثناء ذلك كان الأتراك المسلمون قد أكملوا تطويق معسكر الصليبيين الذين تراءى لهم أن عدد الترك لا حصر له، واستخدم المسلمون على ما اعتادوا عليه من الأساليب التكتيكية، فكان رماتهم ينطلقون إلى الخط الأمامي، فيقذفون بسهامهم، ثم يتراجعون لإفساح المجال لغيرهم، وهكذا استمر انهمار سيل السهام على الفرنج. ولما ارتفع النهار، واشتدت الحرارة، شعر الفرنج بأنهم لن يتمكنوا من الصمود طويلاً. فقد نجح المسلمون الترك بتطويق المعسكرات فبات من المحال عليهم التماس طريق النجاة، ولم يعد أمامهم إلا الاسترقاق والأسر إذا ما اضطروا للإستسلام. ودفعهم الخوف من هذا المصير البائس للتعاهد على القتال حتى الموت. ولكن ما إن انتصف النهار حتى بدأت طلائع الجيش الصليبي الثاني في الوصول إلى ميدان المعركة. ولم يتمكن الأتراك المسلمون من منع الاتصال بين الجيشين الصليبيين. وانتقل الفرنج الصليبيون للهجوم على امتداد الجبهة الواسعة، وكانت قوة من الصليبيين بقيادة أسقف لوبويه - أدهيمر - قد انفصلت عن كتلة الجيش الرئيسة، وصحبت الأدلاء والكشافة، وشرعت في التسلل عبر الشعاب والممرات الجبلية، حتى إذا ما وصلت إلى مؤخرة جيش الأتراك، بوغت هؤلاء مباغتة أذهلتهم وحملتهم على الفرار، وتحطمت مقاومة الأتراك، ولم يلبث أن شرع جيشهم بالفرار إلى الشرق، وتخلوا عن خيامهم ومعسكرهم الذي ضمّ سرادقات السلطان والامراء، بما ذخرت به من الثروة والغنيمة. واستولى الفرنج على ذلك كله. وانتصر الفرنج انتصاراً حاسماً دفعوا ثمنه غالياً. فقد سقط على أرض المعركة عدد كبير من أمرائهم وفرسانهم. مما أرغمهم على الاعتراف بشجاعة الأتراك المسلمين والاعجاب ببطولتهم وكفاءتهم. وذهب بعضهم إلى وصفهم بأنهم:

« من أروع العناصر وأكثرها شجاعة ـ لو كانوا مسيحيين » .

أما السلطان قلج أرسلان، فإنه تابع انسحابه بقواته نحو الشرق بعد أن أدرك أنه غير قادر على ايقاف الفرنج الصليبيين. والتقى أثناء انسحابه بقوات من الترك الذين قدموا من سوريا للاشتراك في المعركة، فشرح لهم أن ما لدى الفرنج من الجند والقوة هو أكبر بكثير مما كان يتوقعه. ولجأ وجيشه إلى التلال بعد أن دمروا المدن والقرى التي في طريقهم حتى لا يجد فيها الفرنج الصليبيون ما يقتاتون به عند تقدمهم★

★ ★ ★

أعاد الجيش الصليبي تنظيم قواته بعد معركة دوريليوم، وأخذ قسطه من الراحة، ثم استأنف مسيره يوم ٣ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) وقد حرص على أن يتقدم على شكل رتل متصل حتى يتجنب ما سبق أن تعرض له من الخطر في دوريليوم. وأخذ يشق طريقه صوب الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول. وتعرض الجند لصعوبات جمّة بسبب أدوات الحرب الثقيلة التي كانوا يحملونها، واجتيازهم لأقاليم مقفرة موحشة. علاوة على صعوبة العثور على التموين والمياه في أقاليم عمل الأتراك المسلمون على تخريبها وتدمير مواردها الحياتية، إلى أن وصلوا إلى قونية في منتصف شهر آب ـ أغسطس ـ. وبعد استراحة قصيرة تابع الجيش الصليبي سيره حتى وصل إلى (هرقلة) حيث تعرض لهجوم صغير شنّه الأتراك ـ الدانشمنديون ـ على شكل اغارة، انسحب بعدها الأتراك « وومض في السماء مذنّب مؤذناً بانتصار الصليبيين » .

وعقد قادة جيش الفرنج مجلساً لهم في هرقلة تقرر فيه أن تسير الكتلة الرئيسة للجيش إلى انطاكية على محور قيصرية ـ كومانا ـ كوكسن أو جكشن

★ قتل قلج أرسلان بعد ذلك سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م وذلك بعد هزيمته في معركة مع خصمه الدانشمندي ـ جاولي مسقاوو ـ وكان جيشه يضم خمسة آلاف مقاتل بينما كان جيش جاولي يضم أربعة آلاف مقاتل. ويظهر ذلك ضعف كافة القوى المتصارعة بالمقارنة مع ما حشده الفرنج الصليبيون من القوى.

حالياً - مرعش - بينما قرر تانكرد وبوهمند السير على محور آخر للوصول إلى ممرات طوروس.

استقبل الأرمن جند الصليبيين في كل مكان بالحفاوة البالغة والترحاب الكبير. وهذا مما ساعد جيش الفرنج الصليبيين على بلوغ أهدافه دون صعوبات ومشاق، ومكنه من القضاء على إغارات مجموعات التركمان المتفرقة. والمعروف أن بلدوين البولوني كان قد أقام صداقات مسبقة مع زعماء الأرمن. كما كان هؤلاء الزعماء، وخاصة أمير الرها - توروس - وصهره أمير ملطيه - جبريل - قد أوفدوا إلى روما رسلاً للحصول على دعم البابا وتأييده، وها هو الدعم يصل على شكل حملة صليبية ضخمة، وظن الأرمن أن اخوانهم في الدين سيقدمون لهم المساعدة للاستقلال بأمورهم، ولمقاومة هيمنة الأتراك المسلمين وقد أفاد بلدوين من ذلك، فتحرك من هرقله بقوة صغيرة (مائة فارس ومائتي راجل) وتبعه تانكرد بقوة صغيرة أيضاً (خمسمائة فارس وألفي راجل - مشاة). وبعد مسيرة صعبة وشاقة، وصل بلدوين إلى الرها حيث استقبله توروس وتبنّاه. ومنحه سلطات واسعة، ولكن ما لبث بلدوين أن طمع بالحكم، ودبر مؤامرة قتل فيها توروس. وشكل مجلساً من الفرنج للحكم، واستبعد الأرمن من مراكز السلطة وعاملهم باحتقار مما دعاهم للثورة التي تمكن بلدوين من إجهاضها في مهدها. وقتل المشتركين فيها. ولم يعد الندم يفيد الأرمن شيئاً، لقد استقدموا اخوانهم في الدين لنصرتهم على المسلمين. وها هم يشعرون بالحنين لتلك الرابطة التي كانت تربطهم بالمسلمين. وزاد الشعور بالتباعد بين الأرمن وبين هؤلاء الفرنج القادمين من الغرب، والذين ما إن علموا بما حققه بلدوين من النجاح في إقامة أول دولة صليبية في الرها، حتى أسرع عدد كبير منهم بالتخلي عن حصار انطاكية والإسراع إلى الرها، حيث كان بلدوين يغدق عليهم الأموال والاقطاعات ليدعم مركزه وقوته. ولو كان ذلك على حساب الأرمن حلفاء الفرنج الصليبيين وأنصارهم. وشرع بلدوين بالعمل لتوسيع حدود امارته. وكان لا بد له من الاصطدام بالمسلمين في الإمارات المجاورة لإمارة الرها.

٢ ـ الفرنج في بلاد الشام.

أقام الفرنج على حصار أنطاكية فصل الشتاء (١٠٩٧ ـ ١٠٩٨ م). واشتد بهم الضيق حتى وصلوا إلى مرحلة اليأس من امكان اقتحام المدينة التي أتقن أميرها ـ ياغي سيان ـ الدفاع عنها وحصنها وأعدها اعداداً رائعاً غير أن خيانة أحد الأرمن واسمه زراد أو بروز به ـ كما يذكره ابن الأثير (وفيروز كما ذكره تاريخ الحروب الصليبية) وهو رجل اعتنق الإسلام حديثاً على ما يظهر أو تظاهر باعتناقه ووصل إلى مرتبة جيدة في جيش ياغي سيان ـ اتصل باخوانه السابقين في الدين، وساعدهم على اقتحام المدينة وجرت مذبحة رهيبة حتى لم يبق في المدينة أحد من المسلمين★

أقام الفرنج بانطاكية، لتنظيم أمورها، ولحل مشكلة خلافاتهم وصراعاتهم الداخلية، ثم ارتحلوا عنها يوم ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٠٩٨ م. ووصلوا بعد أربعة أيام إلى (معرة النعمان) فنازلوها وحصروها، وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية، ولقوا منهم الجد في حربهم والاجتهاد في قتالهم، فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة، ووقع القتال عليه، فلم يضر المسلمين ذلك، فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين وتداخلهم الفشل والهلع، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار، امتنعوا بها، فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه، فرآهم طائفة أخرى ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضاً من السور، ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول حتى خلا السور فصعد الفرنج إليه على السلالم، فلما علوه تحير المسلمون، ودخلوا دورهم، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف. وسبوا السبي الكثير، وملكوه، وأقاموا أربعين يوماً،

★ انظر القسم الثاني من الكتاب (الحصون والقلاع ـ انطاكية) والكامل في التاريخ ابن الأثير احداث سنة ٤٩١ و ٤٩٢ و ٤٩٣ هـ ـ وتاريخ الحروب الصليبية ٣٠٣/١ ـ ٣٧٠.

وساروا إلى عرفة، فحصروها أربعة أشهر، ونقبوا سورها عدة نقوب، فلم يقدروا عليها، وراسلهم صاحب شيزر ـ منقذ ـ فصالحهم عليها. وساروا إلى حمص، وحصروها، فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا فلم يقدروا عليها.

كان حكام مصر ـ الفاطميون ـ يعتقدون أن باستطاعتهم التفاهم مع الفرنج الصليبيين للعمل معاً ضد الأتراك المسلمين ـ أهل السنة ـ. كما كان الامبراطور البيزنطي الكسيوس قد نصح الفرنج ـ مذ وصلوا إلى القسطنطينية ـ بالسعي للوصول إلى اتفاق مع الفاطميين في مصر ـ باعتبارهم أشد الناس عداء للترك، ولا يقبلون مطلقاً مصالحتهم، بينما اشتهروا بالتسامح مع رعاياهم المسيحيين، وكانوا دائماً مستعدين للتفاهم مع الدول المسيحية، والراجح أن الفرنج الصليبيين لم يأخذوا بهذه النصيحة في بداية الأمر، غير أنه حدث في أوائل فصل الربيع من سنة ١٠٩٨م (٤٩٢هـ) أن وصلت سفارة مصرية إلى معسكر الصليبيين أمام انطاكية، أرسلها كبير وزراء الخليفة الطفل المستعلي ـ الأفضل ـ وتقدمت السفارة بعرض لاقتسام الامبراطورية السلجوقية، فيحوز الفرنج شمال بلاد الشام، بينما تحصل مصر على فلسطين، ويظهر أن الوزير الأفضل قد اعتبر الصليبيين مثلهم مثل العساكر المرتزقة الذين يعملون في خدمة أمبراطور الروم الكسيوس، فافترض أن هذا التقسيم الذي قام على أساس ما كان معروفاً من وضع الأمور في القديم، قبل غزوات الترك المسلمين، سوف يلقى قبولاً تاماً. وقد استقبل امراء الغرب سفراء الأفضل بالمودة والحفاوة، ولكنهم لم يلتزموا بتبني أي موقف خاص، ومكث المصريون في المعسكر الصليبي بضعة أسابيع، عادوا بعدها إلى مصر، ومعهم سفارة صغيرة من الفرنج وقد حملت معها الهدايا الوفيرة ـ جاء معظمها مما غنمه الفرنج من بلاد المسلمين. واستخلص الصليبيون من المفاوضات ما يعود عليهم من المزايا والفوائد، من خلال تدبير المؤامرات مع الدول الإسلامية للمضي في هدفهم من أجل الوصول إلى القدس.

كانت القدس تحت حكم الأمير سقمان ابن أرتق التركماني، التابع لأمير دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان. فلما ظفر الفرنج بالأتراك على انطاكية، وقتلوا فيهم،

ضعف الترك وتفرقوا، فلما رأى المصريون ضعف الأتراك ساروا إليهم ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالي، وحصروه، ونصبوا عليه نيفاً وأربعين منجنيقاً، فهدموا مواضع من أسوار القدس، وقاتلهم أهل البلد، فدام القتال والحصار نيفاً وأربعين يوماً، ثم دخل المصريون القدس بالأمان، وملكوه في شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة (١٠٩٥ م). وانسحب سقمان وايلغازي ابنا ارتق ومن معهما إلى دمشق، ثم ساروا إلى الفرات. واستناب المصريون لحكم القدس رجلاً اسمه افتخار الدولة. ولكن ما إن مضت سنتان ونيف حتى وصل الفرنج الصليبيون إلى القدس ـ بعد أن حصروا في طريقهم عكا فلم يقدروا عليها ـ وحصروا القدس نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون وأحرقه المسلمون وقتلوا كل من به، فلما فرغوا من إحراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد ملكت من جهة الشمال ـ ضحوة النهار من يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة (١٠٩٨ م) وركب الناس السيف. وأصبحت القدس في قبضة الفرنج★.

لم يكن هذا ما يتوقعه الحكم الفاطمي في مصر، ولهذا فعندما وصلت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء الفرنج على القدس، وطرد الحامية المصرية منها، وذبح أهلها. جمع أمير الجيوش الأفضل جنده وحشد قواته وسار إلى عسقلان، وأرسل إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم. فأعادوا الرسول بالجواب، وعجلوا بالمسير في أثره. وطلعوا على المصريين عقيب وصول الرسول. ولم يكن عند المصريين خبر وصولهم ولا من حركة، ولم يكونوا على أهبة القتال. فتنادوا إلى ركوب خيولهم ولبسوا أسلحتهم. وأعجلهم الفرنج فهزموهم، وقتلوا منهم من قتل، وغنموا ما في معسكرهم من مال وسلاح وغير ذلك، وانهزم الأفضل ودخل عسقلان. ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز وكان هناك كثيراً. فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه، وقتلوا من خرج منه، وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر. ونازل الفرنج عسقلان، وضايقوها، فبذل لهم أهلها قطيعة اثني عشر ألف دينار ـ وقيل عشرين

★ انظر القدس في الفصل الثاني ـ الحصون والقلاع ـ وانظر قراءات في آخر الكتاب (القدس في يومين مشهودين).

ألف دينار، ثم عادوا إلى القدس، ليعيدوا تنظيم أمورهم، وليعملوا على تنظيم إدارة البلاد التي احتلوها. واتفقوا على إقامة مملكة في القدس - وتم اختيار - جودفري - ليكون أول ملك لمملكة القدس. ولو أن جودفري تظاهر بالامتناع عن اتخاذ لقب ملك، واكتفى بلقب حامي القبر المقدس.★ وهكذا نجح الفرنج في إقامة مملكة لهم في القدس ملكها جودفري، مع إقامة إمارة في الرها بحكم الأمير - الكونت بلدوين - وإمارة ثالثة في انطاكية أميرها بوهمند.

وكان ذلك هو بداية الصراع لا نهايته. فقد أخذت كل إمارة في التوسع على حساب بلدان المسلمين، وكان لا بد من الصدام بقوى المسلمين المتفرقة، والتي استطاعت في كثير من الأحيان احراز انتصارات مثيرة وذلك على نحو ما حدث سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) حيث كان حاكم ملطيه الأمير جبريئيل الأرمني قد طلب من أمير انطاكية بوهمند أن يدعمه لمقاومة أمير سيواس الأمير الدانشمندي غازي جمشتكين (أو أنوشتكين). وكان من الطبيعي أن يعمل الأمير جبريئيل على طلب الدعم من بوهمند الذي تقع إمارته على مسافة بعيدة، وألا يطلب مثل هذا الدعم من أمير الرها المتاخم لحدود امارته، نظراً لما ظهر من أطماع أمير الرها بلدوين، ولما قام به من أعمال ضد أمير أرمينيا السابق - توروس - بصورة خاصة وضد الأرمن بصورة عامة. وعلى كل حال، فقد رحّب - بوهمند - بهذا الطلب الذي يفسح له المجال لمنافسة أمير ملطية في نفوذه، فتولى قيادة خمسة آلاف من الرجاله★ وهو يعتقد أنه يستطيع أن يقهر الترك بقوة صغيرة العدد، فسار دون اكتراث، وارتقى التلال التي تفصل ملطية عن وادي نهر أقسو. حيث اصطدم بأمير الدانشمند الذي كان قد تربص له وقواته بذلك الموضع فانهزم بوهمند - بيمند - وأسر. ثم وصل من البحر سبعة قمامصة - جمع

★ انظر الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٣ هـ - ويذكر أن تاريخ الحروب الصليبية قد أنقص من هذا العدد على نحو ما جرت عليه عادة المستشرقين وذلك للانتقاص من قيمة النصر، حيث ورد فيه ما يلي: «لم يصطحب - بوهمند - معه إلا ثلثمائة فارس وأتباعهم من الرجالة» تاريخ الحروب الصليبية: ١/٤٥٣. أما عن قائد المعركة المسلم. فقد ذكر عنه ما يلي: «هو كمشتكين بن الدانشمند طايلو. وقيل له ابن الدانشمند لأن أباه كان معلماً للاولاد».

كونت ـ من الفرنج وأرادوا تخليص بيمند، فاتوا قلعة أنكورية فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا إلى قلعة أخرى فيها اسمعيل بن الدانشمند وحصروها، فجمع ابن الدانشمند جمعاً كثيراً ولقي الفرنج، وجعل له كميناً وقاتلهم، وخرج الكمين عليهم، فلم يفلت أحد من الفرنج ـ سوى ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين وسار ابن الدانشمند إلى ملطية فملكها، وأسر صاحبها. ثم خرج إليه عسكر الفرنج من انطاكية فلقيهم وكسرهم. وكانت هذه الوقائع في شهور قليلة. وبقي صاحب انطاكية ـ بيمند ـ في أسر الدانشمند حتى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) حيث أطلق الدانشمند سراحه مقابل فدية قدرها مائة ألف دينار، وبشرط اطلاق سراح ابنة أمير انطاكية السابق ـ ياغي سيان ـ. فلما عاد بيمند إلى انطاكية قويت نفوس أهلها الفرنج، ولم يكد بيمند يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنسرين وما جاورها يطالبهم بالاتاوة، فورد على المسلمين من ذلك ما طمس المعالم التي بناها الدانشمند.

تابع الفرنج الصليبيون تنفيذ مخططاتهم التوسعية، وأعمال الابادة للمسلمين في كل مكان، فعندما فتح الفرنج مدينة سروج التابعة لإمارة الرها (سنة ٤٩٤ هـ) قتلوا أهلها ونهبوا ما فيها. وعندما فتحوا طرطوس (أو أنطرطوس) وهي من أعمال طرابلس، قتلوا من بها من المسلمين (سنة ٤٩٥ هـ) وحاولوا فتح حمص في هذه السنة أيضاً فعجزوا عن ذلك.

أما على جبهة الجنوب، فقد استمر الفرنج في توسعهم فملكوا (سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م) يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية واللاذقية. أما طرابلس فقد بقيت تحت الحصار، ولم يبق للمصريين غير قيسارية. مما أثار حاكم مصر. فأرسل أمير الجيوش ـ الأفضل ـ جيشاً بقيادة أحد مماليك أبيه ـ واسمه سعد الدولة ويعرف بالطواشي ـ لقتال الفرنج الصليبيين، فاصطدم بهم في موضع بين الرملة ويافا ـ وكان جيش الفرنج بقيادة مقدمهم بلدوين ـ بغدوين ـ وتصافوا واقتتلوا، وحملت الفرنج حملة صادقة فانهزم المصريون، وتردى فرس سعد الدولة، فسقط سعد الدولة ميتاً أثناء انهزامه. وملك الفرنج خيمه وجميع ما للمسلمين. فأرسل الأفضل بعده جيشاً كبيراً بقيادة ابنه شرف المعالي، فالتقى بالفرنج بيازوز قرب الرملة، فانهزم الفرنج

وقتل منهم مقتلة عظيمة، وعاد من سلم منهم مغلولين. فلما رأى بلدوين شدة الأمر، خاف من القتل أو الأسر، وألقى نفسه في المروج، واختفى فيها، فلما ابتعد المسلمون، خرج من مخبئه إلى الرملة. وسار شرف المعالي بن الأفضل من المعركة ونزل على قصر بالرملة وبه سبعمائة من أعيان الفرنج ـ وفيهم بلدوين الذي هرب متخفياً إلى يافا عندما وصل جيش المعالي بن الأفضل ـ وقاتل ابن الأفضل من بقي خمسة عشر يوماً ثم أخذها، فقتل منهم أربعمائة صبراً، وأسر ثلثمائة فنقلهم إلى مصر. ثم اختلف أصحابه في مقصدهم، فقال قوم نقصد القدس ونتملكه، وقال قوم نقصد يافا ونملكها. فبينما هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة القدس، فندبهم بلدوين للغزو، فساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالي، فلم يكن يقوى بحربهم، إلا أن الفرنج هالهم ما شاهدوه من قوة تحصينات عسقلان، وخافوا من هجوم ليلي يشنه عليهم المسلمون، فانسحبوا إلى يافا، وعاد الأفضل إلى أبيه في مصر. وفي السنة التالية (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) خرج الفرنج من الرها، وافترقوا فرقتين، وأغاروا على الرقة وقلعة جعبر في يوم واحد. واستاقوا المواشي وأسروا من وقع بين أيديهم من المسلمين. أما في الجنوب، فقد نجح الفرنج بالاستيلاء على جبيل. ودخلوها بالأمان فغدروا بأهلها وأخذوا أموالهم، ثم استولوا على عكا وملكوها بالسيف، قهراً، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة. أما حاكمها فقد رجع إلى مصر.

قد يكون من طبيعة الأمور في مراحل الانهيار التي تنتاب الشعوب أحياناً أن تختلط الأمور بعضها ببعض، وأن تضيع القيم، فيحاول الخصوم المتنافسون الاستعانة بالاعداء ضد الأصدقاء.

وهذا ما حدث في هذه السنة (٤٩٧ هـ) عندما توفي حاكم دمشق وأميرها دقاق بن تتش بن ألب أرسلان، فتولى قائد الجيش ـ الأتابك طغتكين ـ الوصاية على ابن دقاق الطفل، وطمع عم الطفل ـ بكتاش بن تتش ـ بحكم دمشق، فقصد بعلبك وجمع الرجال وانضم إليه حاكم بصرى الأمير أيتكين الحلبي، وسارا إلى حوران، ولحق بهما كل من يريد الفساد. واتصلا بملك القدس بغدوين ـ بلدوين ـ فسار إليهما واجتمعوا واتفقوا، غير أن بكتاش وايتكين لم يريا من بلدوين غير التحريض على

الافساد في أعمال دمشق وتخريبها. فلما يئسا من نصره عادا من عنده، وتوجها إلى الرحبة (الميادين حالياً) فملكها بكتاش. واستقام أمر طغتكين بدمشق، وأحكم الأمر، وأحسن إلى الناس، وبثّ فيهم العدل فسروا به سروراً كثيراً. وتكررت الحروب والغارات بين عسكر دمشق وبين عسكر ملك القدس بلدوين - بغدوين - فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء. فلما كانت سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م جمع أمير دمشق - طغتكين - جيشه وسار به لتدمير حصن كان قد أقامه بلدوين بين بلاده وبين دمشق للإغارة منه على أقاليم المسلمين. فتصدى له أمير الجليل بقواته، واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم أميران من عسكر دمشق. فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم الفرنج إلى حصنهم فاحتموا به. فقال طغتكين لجنده: من أحسن قتالهم وطلب مني أمراً فعلته معه، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير، فبذل الرجالة نفوسهم، وصعدوا إلى الحصن وضربوه وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم. وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي. وأسروا من بالحصن، فأمر بهم فقتلوا كلهم، واستبقى الفرسان أسراء، وكانوا مائتي فارس. ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل. وعاد طغتكين إلى دمشق منصوراً. فزين البلد أربعة أيام. وخرج منها إلى رفنية وهو من حصون الشام وقد تغلب عليه الفرنج وصاحبه ابن اخت صنجيل - سانت جيل الكونت ريموند - الذي كان مقيماً على حصار طرابلس، فحصره طغتكين وقتل به خمسمائة رجل من الفرنج. وشعر - طغتكين - أنه بات قادراً على تصفية الحساب مع صاحب بصرى أيتكين الحلبي الذي تعاون مع بكتاش بن تتش ودفعه للتحالف مع - أعداء الدين - من أجل العمل ضد دمشق - على نحو ما سبق ذكره -. فسار طغتكين بجيشه إلى بصرى وحصرها، فهادنه أهلها واستمهلوه لتسليم البلد إليه، فوافقهم حتى إذا ما حان الموعد المحدد، تسلم طغتكين بصرى، فأحسن إلى أهلها، ووفى لهم بما وعدهم، وبالغ في إكرامهم، وكثر الثناء عليه والدعاء له، ومالت النفوس إليه وأحبوه.

جرى الصراع على جبهة الشمال بصورة مشابهة لما كان عليه في جبهة الجنوب. فقد تولى أمير انطاكية طنكري - تانكرد - قيادة جيشه، وسار به إلى حصن أرتاح وعمل

على حصره - وبه نائب أمير حلب رضوان بن تتش. وضيق الفرنج على المسلمين، فأرسل نائب الأمير بحصن ارتاح إلى رضوان يعرفه ما هو فيه من الحصر الذي أضعف نفسه، ويطلب النجدة، فسار رضوان في عسكر كثير من الخيالة، وسبعة آلاف من الرجالة منهم ثلاثة آلاف من المتطوعة، فساروا حتى وصلوا إلى قنسرين وبينهم وبين الفرنج قليل. فلما رأى طنكري كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح، فأراد رضوان أن يجيب بالموافقة، ولكن اصبهبذ صباوو منعه من ذلك فامتنع من الصلح، واصطفوا للحرب، فانهزمت الفرنج من غير قتال، ثم قالوا نعود ونحمل عليهم حملة واحدة، فإن كانت لنا وإلا انهزمنا. فحملوا على المسلمين، فلم يثبت المسلمون وانهزموا وقتل منهم وأسر كثير، وأما الرجال - المشاة - فإنهم كانوا قد دخلوا معسكر الفرنج لما انهزموا فاشتغلوا بالنهب فقتلهم الفرنج، ولم ينج إلا الشريد فأخذ أسيراً وهرب من في أرتاح إلى حلب وملكه الفرنج (سنة ٤٩٨ هـ).

كان أمراء المسلمين يخوضون حروبهم - بعضهم ضد بعض - بحثاً عن النفوذ والسلطة أحياناً، وتحت غطاء الصراع المذهبي بين المتشيعين في مصر وأهل السنة في أحيان أخرى، وقد جاء الآن عامل جديد هو الصراع ضد الغزاة - الفرنج الصليبيين، ففرض وجوده بقوة، وأيقظ الوعي لدى جماهير المسلمين، ولدى امرائهم أيضاً، على الواقع الجديد، حيث ظهرت الحاجة لحشد قوى المسلمين ضد العدو المشترك. وكان لا بد - على ما يظهر - من انقضاء فترة زمنية للتحول الكامل، والارتفاع عن مستوى الصراعات المحدودة والعقيمة - بين المسلمين بعضهم ضد بعض - لمجابهة الخطر الأكثر تهديداً، والأكثر الحاحاً. غير أن بعض امراء المسلمين استمر في مواقعه القديمة، واتخذ من العامل الجديد ذريعة هي حشد القوى ضد العدو المشترك: وذلك للاستيلاء على ممتلكات الأمراء المسلمين المناوئين له.

وهذا ما ظهر أيضاً سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م. عندما نجح أمير حلب - رضوان ابن تتش - في حشد قواته للانتقام لهزيمته السابقة، وانضم إليه الاصبهبذ صباوو، وأمير

سنجار ألبي بن أرسلان تاش، وأمير حامية بغداد ايلغازي بن أرتق. فقال لهم ايلغازي ابن أرتق:

« الرأي هو أن نقصد بلاد الموصل وما والاها - والتي كانت تحت حكم جكرمش والذي كان يرتبط بصلة المصاهرة مع أمير سنجار ألبي بن أرسلان - فنملكها، ونتكثر بعسكرها والأموال - لقتال الفرنج). ووافقه ألبي، فسار إلى نصيبين في عشرة آلاف فارس. وكان جكرمش قد جعل فيها أميرين من أصحابه في عسكر، فتحصنوا بالبلد وقاتلوا من وراء السور، فأصاب سهم ألبي بن أرسلان، فجرح جرحاً شديداً، فانسحب إلى بلده سنجار. وأثناء ذلك استطاع جكرمش حشد قواته وإقامة عسكره في ظاهر الموصل واستعد للحرب. وعمل جكرمش في الوقت ذاته على استخدام الأساليب الديبلوماسية لمجابهة الموقف، فأرسل الرسائل إلى كبار قادة الأمير رضوان، فاستمالهم. كما أرسل رسائل إلى أصحابه بنصيبين للقيام بخدمة رضوان بن تتش وتأمين متطلبات جيشه والاحتراز منه في الوقت ذاته. ثم كتب إلى رضوان ذاته رسالة جاء فيها: « لقد تعرضت للحصار من قبل، وتمكنت من التغلب عليه. واقترح عليكم القاء القبض على ايلغازي الذي عرفت أنت وغيرك فساده وشرّه. وأنا معك ومعينك بالرجال والأموال والسلاح ». ولم يكن الأمير رضوان يطمح إلى ما هو أكثر من ذلك. فعمل على استدعاء ايلغازي، وقال له:

« هذه بلاد ممتنعة، وربما استولى الفرنج على حلب. والمصلحة هي في مصالحة جكرمش واستصحابه معنا. فإنه يسير بعساكر كثيرة ظاهرة التجمل ونعود إلى قتال الفرنج، فإن ذلك مما يعود باجتماع شمل المسلمين ».

فقال له ايلغازي وقد قويت نفسه بكثرة من اجتمع عنده من التركمان: « إنك جئت بحكمك، وأنت الآن بحكمي، لا أمكنك من المسير بدون أخذ هذه البلاد. فإن أقمت وإلا بدأت بقتالك ». غير أن الأمير رضوان كان قد اتخذ استعداداته، فأمر بالقاء القبض على ايلغازي، وعندما حاول جنده التركمان التمرد، ولكن حركتهم فشلت فتفرقوا. وعاد رضوان إلى حلب. وعندما احتاج إلى الدعم وأرسل إلى

جكرمش يطلب إليه الوفاء بالوعد، وارسال جيش لقتال الفرنج، راوغ جكرمش بالإجابة وامتنع عن ارسال جيشه - للمحافظة على حكمه.

أفاد الفرنج من ذلك، فتمكنوا من الاستيلاء على (حصن أفامية). كما أفاد ملك الروم من ذلك. فخرج بجيشه من القسطنطينية ووصل إلى عمورية وملطية، وقتل في غزاته مائة ألف من المسلمين. وأرسل إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يسأله الصلح. وقام ألب أرسلان بعقد هذا الصلح الذي تضمن أن يقدم الخليفة لملك الروم مائة ألف دينار وأربعة آلاف ثوب من مختلف الأصناف وثلثمائة رأس من البغال.

لقد حاول أمراء المسلمين في هذه الفترة الانتصار بالفرنج في قتالهم بعضهم ضد بعض. مع الإفادة من التناقضات والخصومات التي ظهرت بين الفرنج من جهة وبينهم وبين الروم من جهة أخرى.

وعلى سبيل المثال، فقد وقعت حرب بين الروم وبين أمير انطاكية بيمند - بوهمند - (سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م) ودارت معارك طاحنة انتهت بانتصار الروم على الفرنج. وبعد سنتين (أي في سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م). سار أمير التركمان جاولى سقاوو من الموصل بعد أن استولى عليها، وقد قرر الاستيلاء على حلب. فما كان من أمير حلب رضوان بن تتش إلا أن كتب إلى أمير انطاكية - تانكرد -:

«يعرفه ما عليه جاولي من الغدر والمكر والخداع، ويحذره منه، ويعلمه أنه على قصد حلب، وأنه إن ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام. وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه».

فأجابه طنكري - تانكرد - وخرج من انطاكية بجيشه وأرسل إليه رضوان ستمائة فارس للقتال معه. فلما علم جاولي بذلك أرسل إلى الكونت صاحب الرها يستدعيه لمساعدته. فلحق به صاحب الرها وهو على منبج. ودارت معركة انتصر فيها جيش انطاكية: «وقتل من المسلمين خلق كثير».

هكذا، حدث نوع من التعاون أو التحالف بين أمير انطاكية تانكرد وبين أمير حلب رضوان، ومثله بين أمير الموصل وأمير الرها. وفي هذه السنة ذاتها (٥٠٢ هـ =

١١٠٨ م) حدثت هدنـة أيضاً بين أمير دمشـق طغتكين وملـك القـدس بغـدويـن ـ بلدوين ـ بعد حرب شديدة بين جيشيهما، فقد سار طغتكين إلى طبرية وقد وصل إليها ابن أخت ملك القدس، فتحاربا واقتتلا. وكان طغتكين في ألفي فارس وكثير مِّن الرجالة ـ المشاة ـ. وكان ابن اخت ملك الفرنج في أربعمائة فارس وألفي راجل، فلما اشتد القتال انهزم المسلمون، فترجل طغتكين، ونادى بالمسلمين وشجعهم، فعاودوا الحرب، وكسروا الفرنج، وأسروا ابن أخت الملك وحمل إلى طغتكين الذي عرض عليه الإسلام، فامتنع به وبذل في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار وإطلاق خمسمائة أسير، فلم يقنع طغتكين منه بغير الإسلام، فلما لم يجب قتله بيده. وأرسل إلى الخليفة ببغداد الأسرى. ثم اصطلح طغتكين وبغدوين على وضع الحرب أربع سنين. وأراد طغتكين الإفادة من هذه الهدنـة، فـوجـه جيشـه للاستيلاء على حصـن عـرقـه ـ مـن أعمال طرابلس ـ. فتوجهت لمقابلته قوة من جيش الفرنج الذي كان يحاصر طرابلس. فانهزم عسكر طغتكين ونهب الفرنج ثقلهم ورحالهم ودوابهم. ووصل جيش طغتكين إلى حمص على أقبح حال من التقطع ولم يقتل منهم أحد لأنهم لم يقاتلوا. ولما وصل طغتكين إلى دمشق بعد الهزيمة أرسل إليه ملك القدس يقول له:

« لا تظن أنني أنقض الهدنة للذي تم عليك من الهزيمة، فالملوك ينالهم أكثر مما نالك ثم تعود أمورهم إلى الانتظام والاستقامة ».

لقد استطاع الفرنج بهذه التحالفات تقييد حرية العمل العسكري لامراء المسلمين في مراكز القوى الثلاث الرئيسة ـ دمشق وحلب والموصل ـ ومنع هؤلاء الأمراء من التعاون ضد الخطر المشترك، وافادوا من ذلك لتوسيع مجال حرية عملهم العسكري، وقد حدث بعد هزيمة دمشق مباشرة أن سار قفل عظيم من دمشق إلى مصر، فخرج ملك القدس بجيشه وأخذ كل من فيه ولم يسلم منهم إلا القليل. وفي السنة التالية (٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م) استولى الفرنج على طرابلس بعد حصار طويل ★ كما استولوا على بيروت وجبيل وبانياس. وتشكلت بذلك إمارة صليبية جديدة في طرابلس، بقيت

★ انظر في الفصل الثاني قصة (طرابلس) وسواها من القلاع والحصون.

تابعة لملك القدس. وفي السنة التالية استولى الفرنج أيضاً على مدينة صيدا وحصن الأثارب ـ من أعمال حلب ـ وحصن زردنا ـ وسواهما وذبحوا من بهم من المسلمين.

وصلت تحديات الفرنج إلى درجة مثيرة ومؤلمة، وحاول أمراء المسلمين اتقاء شر الفرنج بعقد هدنة معهم، غير أن الفرنج امتنعوا عن الإجابة إلا على قطيعة يأخذونها، فصالحهم صاحب حلب الملك رضوان بن تتش على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار وصالحهم صاحب شيزر ـ ابن منقذ على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار وكانت مدة الهدنة إلى وقت إدراك الغلة وحصادها. ثم إن مراكب أقلعت من ديار مصر فيها التجار ومعهم الأمتعة الكثيرة، فوقع عليها مراكب الفرنج فأخذوها، وغنموا ما مع التجار وأسروهم.

ولئن رضي أمراء المسلمين مثل هذا الذلّ والعار، فقد رفضته جماهير المسلمين الذين سارت جماعة منهم من حلب إلى بغداد، مستنفرين على الفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر، فوعدهم السلطان إنفاذ العساكر للجهاد. وسير من دار الخلافة منبراً إلى جامع السلطان. فلما كان الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة، ومعهم أهل بغداد، فمنعهم حاجب الباب من الدخول، فغلبوه على ذلك ودخلوا الجامع، وكسروا شباك المقصورة، وهجموا إلى المنبر فكسروه وبطلت الجمعة أيضاً.

فأرسل الخليفة المستظهر بالله، إلى السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه، فتقدم السلطان محمد حينئذ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهز للجهاد، وسير ولده الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل، وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيرون إلى قتال الفرنج. فلما دخلت السنة الجديدة (٥٠٥هـ = ١١١١م) وصل إلى الموصل جيش تبريز بقيادة الأمير سكمان القطبي. والأمير ايلبكي وزنكي ابنا برسق ولهما همذان وما جاورها

وأمير مراغة ـ أحمد يل ـ وكوتب الأمير أبو الهيجا صاحب إربل، والأمير ايلغازي صاحب ماردين والأمراء البيكجية باللحاق بالملك مسعود ومودود، فاجتمعوا ما عدا الأمير ايلغازي فإنه سير ولده إياز. فلما اجتمعوا ساروا إلى بلد سنجار، وفتحوا عدة حصون للفرنج وقتل من بها منهم، وحصروا مدينة الرهـا. فاجتمعت الفرنج جميعها، فارسها وراجلها، وساروا إلى الفرات ليعبروا وليدافعوا عن الرهـا، فلما وصلوا إلى الفرات بلغهم كثرة جمع المسلمين، فامتنعوا عن العبور وأقاموا على الفرات. فلما رأى المسلمون ذلك رحلوا عن الرهـا إلى حـرّان ليطمـع الفـرنـج ويعبروا الفـرات إليهـم ويقاتلوهم، فلما رحلوا عنها جاء الفرنج ومعهم الميرة والذخائر إلى الرهـا، فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه بعد أن كانوا قليلي الميرة وقد أشرفوا على أن يؤخذوا ـ وحملوا معهم كل من فيه عجز وضعف وفقر، وعادوا إلى الفرات وعبروه إلى الجانب الشامي. وطرقوا أعمال حلب فأفسدوا ما فيها ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وسبوا خلقاً كثيراً، وكان سبب ذلك أن الفرنج لما عبروا إلى الجزيرة خرج الملك رضوان بن تتش ـ صاحب حلب ـ فاستعاد ما أخذه الفرنج من أعمال حلب ونهب منهم وقتل، فلما عادوا وعبروا الفرات فعلوا بأعماله ما فعلوا. أما جيش بغداد (أو جيش محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ـ والذي كان يعرف باسم العسكر السلطاني) فإنه لما علم بعودة الفرنج، وعبورهم الفرات، سار إلى الرهـا وألقى عليها الحصار، فوجد أن المقاومة قد أعيد تنظيمها وتزايدت قدرتها بما توافر لها من الدعم والامداد ووفرة المقاتلين. فأدرك أنه لن يتمكن من إخضاع حامية الرهـا. فرحل عنها وعبر الفرات وقام بحصار قلعة تل باشر طوال خمسة وأربعين يوماً، ثم رحل عنها ووصل إلى حلب. فأغلق الملك رضوان أبواب المدينة، ورفض الاجتماع بقادة الجيش. ومرض هناك سكمان القطبي، فانسحب بجيشه، وتوفي عند بالس فحمل إلى عاصمته ـ تبريز ـ. ورحل بقية الجيش السلطاني ـ إلى معرة النعمان.

واجتمع أمير دمشق طغتكين بقادة الجيش فاطلع على نيات فاسدة في حقه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق، فشرع في مهادنة الفرنج سراً. ووجد في أمير الموصل مودود حليفاً مخلصاً.

فبقي معه إلى أن تفرق الجيش السلطاني، وكان صاحب شيزر يتعرض لحصار الفرنج فسار طغتكين ومودود بجيشهما إلى شيزر، ونزلا بالقرب من معسكر الفرنج، وحاولا دفع الفرنج للمعركة، غير أن هؤلاء امتنعوا عن القتال لما رأوه من قوة جيش المسلمين، وانسحبوا إلى أفامية، وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوه في مؤخرتهم. وعاد طغتكين إلى دمشق، كما عاد مودود إلى الموصل.

وتابع امراء مراكز القوى الثلاث صراعهم ضد الفرنج، ووقع العبء الأكبر في هذه المرحلة على عاتق دمشق التي كان يجب عليها مجابهة مطامع الفرنج سواء على تخوم فلسطين أو في الأقاليم البعيدة مثل - طرطوس - التي بقيت صامدة في وجه الفرنج. فكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها. وقصد حصن الحبيس (أو حبيس جلدك) وهو من أعمال دمشق وقد ملكه الفرنج، فحصره وملكه بالسيف وقتل كل من فيه. وقد استطاع طغتكين تهديد الفرنج في الجليل، مما أرغم الفرنج على رفع الحصار عن طرطوس والعودة إلى بلادهم لحمايتها. وكان نصراً محدوداً أحرزه طغتكين، غير أنه نصر مؤقت. فقد كان باستطاعة الفرنج دائماً الإفادة من كل فرصة متوافرة لضم المزيد من أراضي المسلمين لممتلكاتهم. لقد خاض الفرنج حتى الآن حرباً هجومية، فيما كانت حرب المسلمين حرباً دفاعية. وكان باستطاعة الفرنج اختيار المكان المناسب والزمن المناسب لعدوانهم المباغت، فيما كانت ردود المسلمين متفرقة اختيار المكان المناسب والزمن نصراً حاسماً، ولا تمكنت من استعادة اقليم من الأقاليم التي استولى عليها الفرنج.

٤ ـ المخاض المسير في الموصل.

مضت فترة خمسة عشر عاماً والمسلمون في بلاد الشام يعيشون الابتلاء، وقد حاولوا التكيف مع الواقع الجديد الذي فرضه الفرنج الصليبيون، ولكن التحدي كان أكبر من القدرة على التكيف. وكانت استجابة المسلمين دون مستوى التحدي المفروض. فكان لا بد من مضي فترة أخرى من المعاناة قبل أن تتحدد معالم النهج الصحيح الذي يجب الأخذ به، والسير عليه. لقد بدأت نذر هذا النهج في الظهور وسط المسلمين منذ وصول الفرنج إلى آسيا الصغرى (الأناضول) ثم تقدمهم إلى انطاكية سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م. وها هي سنة ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م تطل على مسلمي بلاد الشام وهم في ضنك وضيق شديدين. فقد خرج ملك القدس بغدوين ـ بلدوين ـ بجيشه وتابع الغارات على ريف دمشق، ونهبه وخربه. وانقطعت المواد عن دمشق، وغلت الأسعار فيها، وقلت الأقوات، فأرسل طغتكين إلى صديقه أمير الموصل ـ مودود ـ يشرح له الحال ويستنجده ويحثّه على سرعة الوصول إليه، فجمع مو-ود جيشه وانضم إليه جيش سنجار بقيادة أميرها تميرك، والأمير أياز بن ايلغازي وسار فعبر الفرات، وخرج طغتكين بجيشه والتقى بجيش مودود عند بلدة سلمية، واتفق الرأي على قصد ملك القدس بلدوين. فساروا إلى الأردن. ونزل المسلمون عند الأقحوانة. وسار بلدوين وجيشه بقيادة جوسلين ومعه المقدمين والفرسان المشهورين، وتم اللقاء عند طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان، ثم إن الفرنج انهزموا وكثر القتل فيهم والأسر، وممن أسر ملكهم بلدوين فلم يعرف، فأخذ سلاحه وأطلق فنجا، وغرق من الفرنج في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم. ووصل الفرنج إلى مضيق دون طبرية، فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية، فقويت نفوسهم وعاودوا الحرب فطوقهم المسلمون وأحاطوا بهم من كل ناحية. وصعد الفرنج إلى جبل غرب طبرية، فأقاموا به ستة وعشرين يوماً والمسلمون بإزائهم يرمونهم بالنشاب،

فيصيبون من يقرب منهم، ومنعوا الميرة عنهم لعلهم يخرجون إلى قتالهم، فلم يخرج منهم أحد. فسار المسلمون إلى بيسان، ونهبوا بلاد الفرنج ما بين عكا وبين القدس وخربوها وقتلوا من ظفروا به من النصارى. وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم، فعادوا ونزل الأمير مودود بمرج الصفر، وأذن للعسكر في العودة والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه. ودخل دمشق للإقامة عند طغتكين إلى الربيع. وعندما أقبل يوم الجمعة، ذهب مع طغتكين لأداء الصلاة. فلما فرغوا من الصلاة. وخرج مودود إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني - اسماعيلي - فضربه وجرحه أربع جراحات، وقتل الباطني وقطع رأسه وأحرق. وكان الأمير مودود صائماً، فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر فلم يفعل، وقال: «لا لقيت الله إلا صائماً». فمات من يومه. ودفن في تربة دقاق بدمشق، ثم حمل إلى بغداد فدفن في جوار أبي حنيفة، ثم حمل إلى أصبهان. وكتب ملك الفرنج إلى طغتكين عندما علم بقتل الأمير مودود:

«إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها».

وأفاد ملك القدس بلدوين من الاضطراب الذي أعقب اغتيال الأمير مودود لاستئناف أعماله العدوانية، وعلم أن قفل عظيم - قافلة - قد خرجت من دمشق تريد الذهاب إلى مصر. فاعترض طريقها واستولى عليها، ولم ينج منها إلا القليل.

عندما علم السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بقتل ابنه مودود في دمشق وجه جيشاً بقيادة الأمير اقسنقر البرسقي إلى الموصل وأعمالها، والياً عليها، وسير معه ولده الأمير مسعود، وأمره بقتال الفرنج، وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته.

فوصل إلى الموصل، واتصلت به عساكرها وفيهم عماد الدين زنكي بن اقسنقر وكان له الشجاعة في الغاية. كما انضم إليه أمير سنجار - تميرك -. وسار البرسقي إلى

جزيرة ابن عمر فتسلمها من نائب الأمير مودود، وسار معه إلى ماردين، فنازلها البرسقي حتى أذعن له صاحبها ايلغازي، وسير معه عسكراً مع ولده إياز. فسار عنه البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس، فنازلها، وقاتلها، وصبر له الفرنج، وأصابوا من بعض المسلمين غرة، فأخذوا منهم تسعة رجال وصلبوهم على سورها. فاشتد القتال حينئذ. وحمي المسلمون، وقاتلوا، فقتلوا من الفرنج خمسين فارساً من أعيانهم، وأقام عليها شهرين وأياماً، وضاقت الميرة على المسلمين، فرحلوا من الرها إلى سميساط، بعد أن خربوا ريف الرها وسروج وسميساط. وأظهر أمير مرعش الطاعة، فعاد البرسقي إلى ـ شحتان ـ وقبض على أياز بن أيلغازي لأنه لم يحضر أبوه، ونهب سواد ماردين. وتصادف في تلك الفترة (من سنة ٥٠٨ هـ = ١١١٤ م) أن مات كونت مرعش وكيسوم ورعبان فاستولت زوجته على المملكة، وتحصنت من الفرنج ـ باعتبارها من الأرمن ـ وأحسنت إلى الأجناد، وراسلت اقسنقر البرسقي وهو على الرها واستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه. فسير البرسقي إليها أمير الخابور سنقر دزدار، فلما وصل إليها أكرمته وحملت إليه مالاً كثيراً، وبينما هو عندها إذ جاء جمع من الفرنج، فهاجموا أصحاب سنقر ـ وهم نحو مائة فارس ـ واقتتلوا قتالاً شديداً، ظفر فيه المسلمون بالفرنج، وقتلوا منهم أكثرهم. وعاد سنقردزدار وقد أصحبته الملكة بالهدايا للملك مسعود والأمير البرسقي، وأذعنت بالطاعة. ولما عرف الفرنج ذلك، عاد كثير ممن عندها إلى أنطاكية. علم ايلغازي باقدام آقسنقر البرسقي على أسر ابنه إياز، فسار إلى حصن كيفا واستنجد بقائدها وحاكمها الأمير ركن الدولة داود. فأنجده وسارا معاً بعد أن حشدا جيشاً كبيراً من التركمان، فلقيا البرسقي، واقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه، فانهزم البرسقي وعسكره، وخلص أياز بن إيلغازي من الأسر.

فأرسل السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان إلى ايلغازي يتهدده ويتوعده، فخافه وسار إلى الشام، ليأمن بحماية حميه صاحب دمشق طغتكين. فأقام عنده أياماً، وكان طغتكين أيضاً قد استوحش من السلطان محمد لأنه نسب إليه قتل ولده. مودود. فاتفقا على الامتناع والالتجاء إلى الفرنج والاحتماء بهم،

فراسلا صاحب انطاكية، وحالفاه. فحضر عندهما على بحيرة قدس عند حمص. وجددوا العهود. وعاد إلى انطاكية، وعاد طغتكين إلى دمشق.

عندما علم السلطان محمد بتحالف أمير دمشق - طغتكين - مع الفرنج، حشد جيشاً ضخماً بقيادة أمير همذان - برسق بن برسق - ومعه الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي وانضم للجيش جند الموصل والجزيرة، وأصدر السلطان محمد أمره إلى قائده بالبداءة بقتال ايلغازي وطغتكين وقتلهما، فإذا فرغ من ذلك قصد بلاد الفرنج وقاتلهم وحصر بلادهم - وسار الجيش فعبر الفرات مع بداية سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م. ووصل إلى حلب فوجد أن ايلغازي وطغتكين قد دعما حاميتها بألفي فارس. فسار الأمير برسق بن برسق عندما أدرك أنه من الصعب عليه الاستيلاء على حلب، وقصد مدينة حماة التي كانت تحت حكم أمير دمشق طغتكين. فحصرها، وفتحها عنوة، ونهبها ثلاثة أيام، وسلمها إلى الأمير قرجان صاحب حمص، الذي سلم أياز بن ايلغازي إلى برسق. وسار ايلغازي وطغتكين إلى انطاكية واستنجدا بحاكمها - روجيل، أو روجر -. ووصل إلى انطاكية في تلك الفترة ملك القدس بغدوين وأمير طرابلس وغيرهما من قادة الفرنج في جيش كثيف. وحشدوا قواتهم في قلعة أفامية لمدة شهرين، ثم تفرقوا لما رأوا أنه لا قبل لهم بمهاجمة جيش المسلمين الكبير الذي يقوده برسق. فعاد إيلغازي إلى ماردين، وعاد طغتكين إلى دمشق، ورجع الفرنج إلى بلادهم. ولما رأى برسق تفرق الجيوش قرر انتزاع كفرطاب وأفامية من قبضة الفرنج، فسار إلى كفرطاب وحصرها، فلما اشتد الحصار على الفرنج، ورأوا الهلاك، قتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم ودخل المسلمون البلد عنوة، وأسروا حاكمها وقتلوا من بقي فيها من الفرنج، وسار برسق بجيشه إلى قلعة أفامية، فرآها حصينة فعاد عنها إلى المعرة، وهي تحت حكم الفرنج أيضاً. وانفصل الأمير جيوش بك وسار إلى وادي بزاغة فملكه. وسار برسق بجيشه عن المعرة إلى حلب، وتقدمهم ثقلهم ودوابهم على جاري العادة، والعساكر في أثره متلاحقون وهم آمنون لا يظنون أحداً يقدم على الاقتراب منهم. وكان أمير انطاكية - روجر - لما علم بحصار كفرطاب، سار في خمسمائة فارس وألفي راجل للدفاع عن كفرطاب وحمايتها، ووصل إلى مخيم المسلمين،

فوجده خالياً من المقاتلين، فنهب جميع ما في المخيم، وقتل كثيراً من حرس المخيم وغلمانه. ووصل المقاتلون المسلمون متفرقين. فأخذ الفرنج في قتل كل من يصل تباعاً. ووصل الأمير برسق ومعه مائة فارس تقريباً. فلما رأى الموقف صعد إلى تل هناك ومعه أخوه زنكي، وأحاط بهم السوقية والغلمان، واحتموا بهم، ومنعوا الأمير برسق من النزول، فأشار عليه أخوه ومن معه بالنزول، والنجاة بنفسه، فقال: «لا أفعل، بل أقتل في سبيل الله، وأكون فداء المسلمين». فغلبوه على رأيه، فنجا هو ومن معه. فتبعهم الفرنج نحو فرسخ، ثم عادوا، وتمموا الغنيمة والقتل، وأحرقوا كثيراً من الناس. وتفرق العسكر. وأخذ كل واحد جهة. ولما سمع الموكلون بالأسرى المأخوذين من ـ كفرطاب ـ ذلك، قتلوهم. وكذلك فعل الموكل بأياز بن ايلغازي قتله أيضاً.

وخاف أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين التي بالشام، فإنهم كانوا يرجون النصر من جهة هذا العسكر، فأتاهم ما لم يكن في الحساب. وعادت العساكر عنهم إلى بلادها. وسار الفرنج ـ من القدس، فملكوا رفنية وهي من أرض الشام التابعة لحكم طغتكين، وقووها بالرجال والذخائر، وبالغوا في تحصينها.

فاهتم طغتكين لذلك. وقوي عزمه على قصد بلاد الفرنج بالنهب لها والتخريب. فأتاه الخبر عن خلو رفنية من عسكر يمنع عنها، وليس فيها إلا قوة من الفرنج الذي تركوا لحمايتها والدفاع عنها، فسار طغتكين في قوة خفيفة من الفرسان، فلم يشعر من بها إلا وقد هجم عليهم ودخل البلد عنوة وقهراً. وأخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً، فقتل البعض وترك البعض. وغنم المسلمون من سوادهم وكرائمهم وذخائرهم ما امتلأت منه أيديهم وعادوا إلى بلادهم سالمين.

لقد أدرك السلطان محمد، كما أدرك طغتكين، خطأ سلوكهما، فقد كان سلوك السلطان محمد عاملاً دفع طغتكين للتعاون مع الفرنج، كما أدرك أن العبور إلى الفرنج وقتالهم من خلال القضاء على حاكم مسلم، هو عمل عقيم، وأدرك طغتكين أنه من الخطورة بمكان التعاون مع أعداء الدين الطامعين في بلاده. وعرف الطرفان أن الفرنج هم المستفيدين الوحيدين من خلافات

المسلمين ومن ضعفهم وتفرقهم. ولهذا لم يكن غريباً أن يسرع طغتكين إلى بغداد لعقد صلح مع السلطان محمد (سنة ٥١٠ هـ = ١١١٦ م). وهنا حدث حادث مثير أبرز دور الباطنيين - الإسماعيلية - في ايقاع الفرقة بين أمراء المسلمين وحكامهم.

فقد عملوا على قتل الأمير مودود وهو في ضيافة طغتكين وبصحبته. وعندما كان طغتكين بضيافة السلطان محمد - ببغداد - حضر جماعة من الأمراء مجلس السلطان ومعهم صاحب مراغة - أحمديل بن ابراهيم بن وهسوذان الروادي الكردي. الذي جلس إلى جانب طغتكين، فأتاه رجل تظاهر بأنه متظلم، وبيده رقعة، وهو يبكي، وسأل أحمديل أن يوصل الرقعة إلى السلطان، ولما مدّ أحمديل يده لأخذ الرقعة، انقض عليه الرجل وضربه بسكين في يده، فجذبه أحمديل، وتركه تحته. فوثب رفيق للباطني وضرب أحمديل سكيناً أخرى، فأخذتها السيوف. وأقبل رفيق ثالث وضرب أحمديل ضربة أخرى. فعجب الناس من إقدامه بعد قتل صاحبيه.

وظنّ طغتكين والحاضرون أن طغتكين كان المقصود بالقتل، وأن ذلك جرى بأمر السلطان محمد. فلما علموا أنهم من الباطنية - الإسماعيلية - زال هذا الوهم.

لقد تبين لمراكز القوى الإسلامية أن الموصل هي مركز الثقل في الصراع ضد الفرنج الصليبيين. وكانت الموصل تحت حكم السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، فلما توفي سنة ٥١١ هـ = ١١١٧ م★ انتقل الحكم إلى ابنه السلطان محمود. فسار على نهج أبيه وأخذ بسيرته. وكان لا بد للسلطان محمود من قضاء فترة لإعادة

★ السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٧٤ - ٥١١ هـ = ١٠٨١ - ١١١٧ م) كان عادلاً حسن السيرة شجاعاً. عرف خطر الباطنية - الاسماعيلية - فجرد الحملات لاخضاعهم وإبادتهم، وقتل كثيراً منهم بعد أن استفحل أمرهم وخافهم الناس واتقى الحكام شرهم بمهادنتهم. عندما شعر بدنو أجله كتب وصية أوصى بها للحكم لابنه محمود - وكان عمره يومها أربع عشرة سنة - وأمر ابنه في وصيته بالعدل والاحسان. وقد حاول طغرل بن محمد منازعة أخيه السلطان محمود السلطة والحكم، فأخضعه ثم اصطلحا، كما حاول أخوه مسعود أيضاً منافسته.

تنظيم سلطته، وتسوية الصراعات التي عادة ما كانت تنشب بين الإخوة المتنافسين على السلطة والحكم. علاوة على تلك الصراعات التي كانت تنشب بصورة طبيعية أو غير طبيعية مع الطامعين بحكم هذا الاقليم أو ذاك. هذا فيما كان الصراع مع الفرنج يتطور باستمرار على الجبهات الأخرى. ففي هذه السنة (٥١١ هـ) قاد ملك القدس بجيشه وسار به إلى مصر، وبلغ تنيس، وسبح في النيل، فانتقض جرح كان به، فلما أحس بالموت عاد إلى القدس. ولم يلبث أن مات (سنة ٥١٢ هـ) وأوصى بغدوين - بلدوين - بالحكم من بعده للكونت بردويل صاحب الرها السابق - وكان هذا الكونت قد جاء إلى القدس لزيارة بيعة قمامة - كنيسة القيامة - فتصادف مجيئه مع وفاة بغدوين، فتسلم أمور المملكة. وخلال هذه الفترة، كان أمير دمشق طغتكين قد سار بجيشه من دمشق لقتال الفرنج، فنزل باليرموك. ولما كان الملك الجديد للفرنج - بردويل - يحتاج لفترة من الاستقرار، فقد أرسل الرسل إلى طغتكين بطلب المهادنة. فاشترط طغتكين إلى الفرنج التخلي له عن جبل عوف والحنانة والصلت والغور، فرفض الفرنج، فسار طغتكين إلى طبرية، فنهبها وما حولها، وسار منها إلى عسقلان التي كانت تحت حكم المصريين وبها حامية منهم. فتوقف بها طغتكين وأقام مع الحامية المصرية طوال شهرين على أمل مجابهة قوات الفرنج، فلما رأى طغتكين امتناع الفرنج عن القتال، عاد بجيشه إلى دمشق. وما إن وصلها حتى علم بأن مائة وثلاثين فارساً من الفرنج قد استولوا على حصن من حصونه يعرف باسم (الحبس) ويعرف أيضاً باسم (حصن جلدك). وانهم قصدوا - أذرعات - فنهبوها. فأرسل إليهم تاج الملوك بوري بن طغتكين قوة، فابتعدوا عن طريق هذه القوة وانسحبوا إلى جبل هناك، فنازلهم تاج الملوك، وجاءه أبوه طغتكين، ونصحه بإفساح المجال أمام الفرنج للهرب، غير أن تاج الملوك طمع بالفرنج وشدد قبضته عليهم، فلما أيس الفرنج، قاتلوا قتال مستقتل، ونزلوا من الجبل، وحملوا على المسلمين حملة صادقة هزموهم بها، وأسروا وقتلوا خلقاً كثيراً. وعاد الفل إلى دمشق على أسوأ حال.

فسار طغتكين إلى حلب وبها إيلغازي، فاستنجده وطلب منه التعاضد على الفرنج، فوعده المسير معه.

فبينما هو بحلب، أتاه الخبر بأن الفرنج قصدوا حوران من أعمال دمشق. فنهبوا وقتلوا وسبوا وعادوا. فاتفق طغتكين وإيلغازي على أن يعود طغتكين إلى دمشق وحماية بلاده. وعود ايلغازي إلى ماردين وجمع العساكر، والاجتماع على حرب الفرنج. فصالح ايلغازي من يليه من الفرنج. وعبر إلى ماردين لجمع العساكر. كما عمل - إيلغازي - على إرسال رسول الى بغداد لاستنفار المسلمين على الفرنج، وذكر ما فعله الفرنج بالمسلمين في الديار الجزرية، وأنهم ملكوا قلعة عند الرهاء، وقتلوا أميرها ابن عطير، فسيرت بذلك الكتب الى السلطان محمود الذي كان منصرفاً لاخضاع تمرد أخيه طغرل في ساوة وزنجان. وأفاد الفرنج من غياب ايلغازي، فساروا بجموعهم من أنطاكية، وملكوا بزاغة وغيرها، وأخربوا بلد حلب ونازلوها. ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً، وخافهم أهلها خوفاً شديداً، ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد، لكنهم منعوا من ذلك، وصانعوا الفرنج، ووافقوا على أن يقاسموا الفرنج على أملاكهم التي بباب حلب. وأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة فلم يغاثوا، وأثناء ذلك كان ايلغازي قد نجح في حشد عشرين ألفاً من العساكر ومن المتطوعة للغزاة. فسار بهم من ماردين إلى الشام عازماً على قتال الفرنج. فلما علم الفرنج قوة عزم المسلمين على لقائهم - وكانوا ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل - ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب - بموضع يقال له تل عفرين - بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات. وظنّ الفرنج أن أحداً لا يسلك إليهم لضيق الطريق، فأخلدوا إلى المطاولة - المماطلة - وكانت تلك هي عادتهم كلما رأوا قوة من المسلمين، وراسلوا ايلغازي وقالوا له:

«لا تتعب نفسك بالمسير إلينا، فنحن واصلون إليك».

فأعلم أصحابه بما قالوه واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا بالركوب من وقته وقصدهم، ففعل ذلك، وسار إليهم، ودخل المسلمون من الطرق الثلاثة، ولم تعتقد الفرنج أن احداً يصل إليهم لصعوبة المسلك، فلم يشعروا إلا وأوائل المسلمين قد انقضت عليهم، فحمل الفرنج حملة منكرة، فولوا منهزمين، فلقوا باقي العسكر متتابعة، فعادوا معهم. وجرى بينهم حرب شديدة، وأحاطوا بالفرنج من جميع

جهاتهم، وأخذوهم بالسيف من سائر نواحيهم. فلم يفلت منهم غير نفرٍ يسير، وقتل الجميع وأسروا، وكان في جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم. وحملوا إلى حلب. فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار. فلم يقبل منهم. وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة★. ثم تجمع من سلم من المعركة مع غيرهم فلقيهم ايلغازي أيضاً فهزمهم، وفتح منهم حصن الأثارب وزردنا وعاد إلى حلب. تعرض الفرنج لهزيمة مماثلة في الجنوب، في هذه السنة ذاتها (٥١٣ هـ = ١١١٩ م) وذلك عندما خرج قائد حامية تل باشر - الكونت جوسلين - بقوة من مائتي فارس، أغار بها على طائفة من قبيلة طي يعرفون - ببني خالد - بالقرب من طبرية. فأخذهم وأخذ غنائمهم وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة، فأخبروه أنهم من وراء الحزن بوادي السلالة بين دمشق وطبرية فدفع جوسلين قوة من مائة وخمسين فارساً من أصحابه وسار هو في خمسين فارساً على طريق آخر، وواعدهم الفجر ليباغتوا بني ربيعة. وعلم بنو ربيعة ذلك وأرادوا الرحيل، فمنعهم أميرهم وكانوا في مائة وخمسين فارساً. فوصلهم المائة وخمسون من الفرنج معتقدين أن جوسلين قد سبقهم، أو أنه سيدركهم، فأضل الطريق، وتساوت القوتان، فاقتتلوا وطعنت العرب خيولهم، فجعلوا أكثرهم رجالة - مشاة - وظهر من أميرهم شجاعة وحسن تدبير وجودة رأي، فقتل من الفرنج سبعون وأسر إثنا عشر من مقدميهم، بذل كل واحد في فداء نفسه مالاً جزيلاً، وعدة من الأسرى، وأما جوسلين فإنه ضلّ في الطريق، وبلغه خبر الوقعة، فسار إلى طرابلس، فجمع بها جمعاً، وسار بهم ليلاً إلى عسقلان، وأغار على بلدها، فهزمه المسلمون هناك فعاد مفلولاً.

عمل الخليفة المسترشد بالله على ارسال - خلعة - إلى نجم الدين ايلغازي - (سنة ٥١٤ هـ = ١١٢٠ م) مع شكره على ما يفعله من غزو الفرنج.

وسار ايلغازي لقتال الفرنج وقد حشد جيشاً كبيراً، فاصطدم بالفرنج عند موضع

★ أكثر الشعراء من مدح أيلغازي لما حققه من نصر، ومما قيل في هذا النصر:

قل ما تشاء فقولك المقبول — وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته — وبكى لفقد رجاله الانجيل

اسمه ذات البقل من أعمال حلب، فاقتتلوا واشتد القتال، وانتصر المسلمون.

ثم اجتمع ايلغازي وأتابك طغتكين ـ صاحب دمشق، وحصروا الفرنج في معرة قنسرين يوماً وليلة.

ثم أشار طغتكين بالافراج عن الفرنج حتى لا يدفعهم اليأس إلى أن يستقتلوا ويخرجوا إلى المسلمين، وربما يظفرون بهم. وكان طغتكين يخاف من جودة خيل الفرنج، ومن سرعة انصراف التركمان، وكان إيلغازي بدوره لا يطيل المقام في بلد الفرنج، لأنه كان يجمع التركمان للطمع، فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق وشاة، ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها ويعود. فإذا طال مقامهم تفرقوا. ولم يكن لدى ـ ايلغازي ـ من الأموال ما يفرقها عليهم. ولهذا أخذ بنصيحة طغتكين، وأفرج لهم. ثم عاد ايلغازي إلى حلب، ورجع طغتكين إلى دمشق.

تابع الفرنج تحدياتهم واستفزازاتهم، وتابع المسلمون تصديهم للعدوان ومقاومتهم له. ففي السنة ذاتها توجه جيش من الروم، بقيادة عفراس الرومي، فاصطدم بجيش من المسلمين بقيادة بلك بن أرتق عند قلعة سرمين. وانتصر المسلمون، وقتل من الروم خمسة آلاف رجل وأسر عفراس وكثير من جنده. كما قام صاحب الرها ـ جوسلين ـ بالاغارة على جيوش العرب والتركمان، وكانوا نازلين بصفين غربي الفرات، وغنم من أموالهم وخيلهم ومواشيهم شيئاً كثيراً، ولما عاد خرب بزاغة، ومقابل ذلك، استطاع أمير دمشق ـ طغتكين ـ أن يفرض سيطرته على بلدة تدمر وقلعة الشقيف.

بقيت الموصل هي مركز القوى الاكثر أهمية في الصراع ضد الفرنج، غير أن الاضطرابات التي وقعت في بداية حكم السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ابن ألب أرسلان. فلما استقر له الأمر، أخذ في البحث عمن يستطيع سدّ هذا الثغر، وقرر تعيين أقسنقر البرسقي أميراً على مدينة الموصل وأعمالها وما ينضاف إليها كالجزيرة وسنجار (سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١ م) وأمره بمجاهدة الفرنج، وأخذ البلاد منهم، وأرسل إلى سائر الأمراء بطاعته، فسار اقسنقر

البرسقي إلى الموصل في عسكر كثير، وملكها، وأقام يدبر أمورها ويصلح أحوالها.

وبقيت مصر وهي بعيدة نسبياً عن الصراع، منصرفة إلى صراعاتها الداخلية، وزاد الأمر سوءاً باغتيال أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي★ على أيدي الباطنية. وبقي على دمشق وحلب قيادة الصراع وحدهما. ففي الجنوب تمكن أمير دمشق طغتكين من الايقاع بطائفة من الفرنج، فقتل منهم وأسر، وأرسل من الأسرى والغنيمة للخليفة وللسلطان محمود. وفي الشمال، وجه أمير حلب ايلغازي جيشاً بقيادة ابن أخيه - بلك ابن بهرام - إلى مدينة الرهـا، فحصرها، وبها الفرنج، وبقي على حصارها مدة، فلم يظفر بها، فرحل عنها. فجاءه إنسان تركماني وأعلمه أن صاحب الرهـا جوسلين قد جمع من عنده من الفرنج وهو عازم على مباغتته، وكان قد تفرق عن بلك أصحابه، وبقي في أربعمائة فارس، فوقف مستعداً لقتالهم. وأقبل الفرنج، ودخلوا في أرض قد نضب عنها الماء فصارت وحلاً غاصت خيولهم فيه. فلم تتمكن مع ثقل الفرسان والسلاح من الاسراع والجري. فرماهم أصحاب بلك بالنشاب، فلم يفلت منهم أحد، وأسر جوسلين، وجعل في جلد جمل، وخيط عليه، وطلب منه أن يسلم الرهـا فلم يفعل، وبذل في فداء نفسه أموالاً جزيلة، وأسرى كثيرة، فلم يجبه إلى ذلك، وحمله إلى قلعة (خرتبرت) فسجنه بها، وأسر معه جماعة من فرسانه. ولما علم ملك القدس - بغدوين - بأسر أمير الرهـا، سار بجيشه. (سنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) فأعد بلك ابن بهرام بن أرتق عدته، وخرج لمقابلته - قرب دياربكر - وجرت معركة قاسية انتهت بهزيمة الفرنج وأسر ملكهم، ومعه جماعة من أعيان فرسانهم، فحملهم بلك إلى سجن (خرتبرت) ليلتقوا هناك بأمير الرهـا جوسلين وغيره. وسار بلك عن خرتبرت

★ الأفضل بن بدر الجمالي (٤٥٨ - ٥١٥ هـ = ١٠٦٥ - ١١٢١ م) كان هو صاحب الأمر والحكم بمصر بعد أبيه بدر الجمالي. وكانت مدة ولايته بعد أبيه ثمانية وعشرين سنة، قتله ثلاثة من الباطنية - الاسماعيلية - لأنهم اتهموه بتضييع أمامهم، وترك معارضة أهل السنة والنهي عن مقاومتهم وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها. فكثر الغرباء في مصر لما عرف عنه من العدل بين الرعية وحسن السيرة. وقد عمل الحاكم الفاطمي الآمر بأحكام الله على مصادرة أمواله بعد اغتياله. واعتقل أولاده السبعة.

إلى حراز، فملكها، وأعمل الفرنج الحيلة باستمالة بعض الجند، فأمكن لهم ملك القلعة، واتخذ الملك بغدوين من الليل ستاراً للهرب ومضى إلى القدس. وعلم بلك بما حدث فعاد بجيشه وحصر (خرتبرت) وضيق على من بالقلعة واستعادها من الفرنج، وجعل فيها من يحفظها، وعاد عنها.

أظهر الأمير أقسنقر البرسقي كفاءة في إعادة تنظيم الموصل وما يتبعها. فما كان من السلطان محمود إلا أن ضم إليه مدينة واسط وأعمالها. فوجه اقسنقر إليها عماد الدين زنكي بن اقسنقر. واستطاع الفرنج بعد حصار متطاول الاستيلاء على مدينة صور (سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) مما زاد من طمعهم، وقويت نفوسهم، وتيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام. واستكثروا من الجموع. وقصدوا حلب، فما كان من البرسقي إلا أن أسرع إليها. واتفق مع أهلها على تسليمها له★ ورحل الفرنج عن حلب، عندما عرفوا قوتها. وعمل البرسقي على انتزاع كفرطاب من الفرنج (سنة ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م) وعاد إلى الموصل حيث عمل الباطنية على قتله في السنة التالية. ومن العجب أن صاحب أنطاكية أرسل إلى عزّ الدين مسعود بن البرسقي - الذي كان ينوب عن أبيه بحكم حلب - يعلمه بقتل والده، قبل أن يصل إليه الخبر. وكان قد علم به الفرنج قبله لشدة عنايته بمعرفة الأحوال الإسلامية. وربما لاتصال الفرنج بالباطنية - الإسماعيلية - واستخدامهم لهم★★ وعلى كل حال، فإن المنية عاجلت عزّ الدين مسعود بن البرسقي، فتوفي في السنة التالية (٥٢١ هـ = ١١٢٧ م). وأصبح عماد الدين زنكي أميراً على الموصل، وما ضمته الموصل من الأقاليم، فانصرف عماد الدين زنكي لإعادة

★ انظر (قلعة حلب) في الفصل الثاني.

★★ اغتيل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي بمدينة الموصل يوم الجمعة الثامن ذي القعدة سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م. وكان يصلي الجمعة مع العامة، فوثب عليه بضعة عشر نفساً فجرحوه بالسكاكين. وكان آقسنقر مملوكاً تركياً، خيراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها. ويصلي من الليل متهجداً. وعندما علم ابنه عزّ الدين مسعود بن البرسقي، سار إلى الموصل، وأحسن إلى أصحاب أبيه، وأقر وزيره المؤيد أبا غالب على وزارته، وأطاعه الأمراء والأجناد، وانحدر إلى خدمة السلطان محمود، فأحسن إليه وأعادهُ. ولم يختلف عليه أحد من أهل بلاد أبيه.

تنظيم أمور دولته واعدادها للحرب. واستكثر من الجند، وأعاد تنظيم أمور ولاية الموصل، ثم سار إلى حلب فنظم أمورها. وأصبحت الموصل والجزيرة والشام تحت قيادة واحدة، فشرع عماد الدين زنكي في توحيد بلاد الشام تحت قيادته، وساعده على ذلك وفاة أمير دمشق طغتكين (سنة ٥٢٢ هـ). فسار عماد الدين إلى حماه، وضمها لحكمه. وعمل في سنة ٥٢٤ هـ على إعادة فتح حصن الأثارب. وسواه من الحصون التي كانت ذات ضرر كبير على المسلمين.

٥ ـ الزنكيون وقيادة الجهاد.

انطلق الزنكيون من الموصل، وشرعوا في حشد القوى وتنظيمها، ولما فرغ عماد الدين زنكي من أمر البلاد الشامية ـ حلب وأعمالها وما ملكه ـ وقرر قواعده، عاد إلى الموصل وديار الجزيرة، ليستريح عسكره. ثم أمرهم بالتجهز للغزاة، فتجهزوا وأعدوا واستعدوا، وعاد إلى الشام، وقصد حلب، فقوي عزمه على قصد حصن الأثارب ومحاصرته لشدة ضرره على المسلمين. وهذا الحصن بينه وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، بينها وبين أنطاكية. وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية. فسار عماد الدين إليه ونازله. فلما علم الفرنج بذلك، جمعوا فارسهم وراجلهم، وعلموا أن هذه وقعة لها ما بعدها. فحشدوا وجمعوا ولم يتركوا من طاقتهم شيئاً إلا واستنفذوه، فلما فرغوا من أمرهم، ساروا نحوه، فاستشار عماد الدين أصحابه فيما يفعل، وكل أشار بالعود عن الحصن، إذ أن لقاء الفرنج في بلادهم خطر لا يدري على أي شيء تكون العاقبة. فقال لهم عماد الدين:

«إن الفرنج متى رأونا قد عدنا من أيديهم طمعوا وساروا في أثرنا، وخربوا بلادنا، ولا بد من لقائهم على كل حال».

ثم ترك الحصن، وتقدم إليهم، فالتقوا واصطفوا للقتال، وصبر كل فريق لخصمه. واشتد الأمر بينهم، ثم أن الله تعالى أنزل نصره على المسلمين، فظفروا، وانهزم الفرنج أقبح هزيمة. ووقع كثير من فرسانهم في الأسر. وقتل منهم خلق كثير. وتقدم عماد الدين إلى عسكره بالإنجاز، وقال: «هذا أول مصاف عملناه معهم، فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم». وعاد عماد الدين بعد المعركة إلى حصن الأثارب ففتحه عنوة، وقتل وأسر كل من فيه. وأخربه وجعله دكاً. ثم سار منه إلى قلعة حارم ـ وهي بالقرب من أنطاكية ـ فحصرها، فبذل أهلها ـ الفرنج ـ نصف دخل بلد

حارم وهادنوه، فأجابهم إلى ذلك. وعاد عنهم وقد استدار المسلمون بتلك الأعمال، وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم، بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع.

عندما كانت الأمور تسير بنجاح في الشمال، سارت الأمور في الجنوب على الاتجاه المضاد، فقد نجح الباطنية في طعن حاكم دمشق - تاج الملوك بوري بن طغتكين - وجرحوه جرحين، برأ أحدهما، وتنسر الآخر، وبقي فيه ألمه، إلا أنه يجلس للناس ويركب معهم على ضعف فيه. فلما كانت السنة التالية (٥٢٦ هـ = ١١٣١ م) اشتد ضعف تاج الملوك بوري وتوفي، ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك اسمعيل، وطمع الفرنج بشمس الملوك واستضعفوه، وعزموا على نقض هدنة كانت قائمة بينهم، فتعرضوا إلى أموال جماعة من تجار دمشق - بمدينة بيروت - وأخذوها. فشكى التجار إلى شمس الملوك، فراسل في إعادة ما أخذوه، وكرر القول فيه، فلم يردوا شيئاً. فحملته الأنفة من هذه الحالة والغيظ على أن جمع عسكره وتأهب، ولا يعلم أحد أين يريد، ثم سار وسبق خبره (سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م) ونزل على بانياس وقاتله لساعته، وزحف إليه زحفاً متتابعاً، وكان الفرنج غير متأهبين. وليس في قلعة بانياس من المقاتلة من يحميها. وقرب من سور المدينة، وترجل بنفسه، وتبعه الناس من الفارس والراجل، ووصلوا إلى السور فنقبوه، ودخلوا البلد عنوة، والتجأ من كان من جند الفرنج إلى الحصن، وتحصنوا به. فقتل من البلد كثيراً من الفرنج وأسر كثيراً، ونهبت الأموال، وقاتل القلعة قتالاً شديداً، ليلاً ونهاراً، حتى فتحها بالأمان، وعاد إلى دمشق. أما الفرنج فإنهم لما سمعوا نزوله على بانياس شرعوا يجمعون عسكراً يسيرون إليه، فأتاهم خبر فتحها، فبطل ما كانوا فيه.

بينما كان شمس الملوك اسمعيل يقوم بعملياته الناجحة في الجنوب، كان ملك الفرنج - ملك القدس - قد خرج بخيالته ورجالته من القدس، وسار بهم إلى أطراف أعمال حلب. فلما علم نائب عماد الدين زنكي في حكم حلب - الأمير أسوار - خرج بجيشه، وانضم إليه كثير من التركمان، فاقتتلوا عند قنسرين، فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة. وانهزم المسلمون إلى حلب، وتردد ملك الفرنج في أعمال حلب. فأعاد الأمير

أسوار تنظيم قواته وخرج إليه فيمن معه من العسكر. فوقع على طائفة منهم، فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم والأسر. فعاد من سلم من الفرنج منهزماً إلى بلادهم. وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر. ودخل أسوار حلب ومعه الأسرى ورؤوس القتلى وكان يوماً مشهوداً. ثم إن طائفة من الفرنج من الرها قصدوا أعمال حلب للاغارة عليها، فسمع بهم أسوار، فخرج إليهم، وأوقع بهم، وقتلهم عن آخرهم في بلد الشمال، وأسر من لم يقتل، وعاد وجنده إلى حلب سالمين.

لقد تحول الموقف لمصلحة المسلمين، ووجد المسلمون أن لديهم القدرة لمهاجمة بلاد الفرنج. فخرج جمع كبير من التركمان من الجزيرة، وأغاروا على بلاد طرابلس، فخرج لقتالهم القمص - الكونت - صاحب طرابلس في جوعه، فانسحب التركمان وأفسحوا له المجال لمطاردتهم ثم عادوا إليه وقاتلوه فهزموه، وأكثروا القتل في جنده، ومضى هو ومن سلم معه إلى قلعة بعرين، فتحصنوا بها وامتنعوا عن التركمان، فحصرهم التركمان فيها، فلما طال الحصار عليهم، نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارساً من أعيان أصحابه سراً، فنجوا وساروا إلى طرابلس، وترك الباقين في بعرين لحمايتها والدفاع عنها. فلما وصل إلى طرابلس كاتب الفرنج، فاجتمع عنده منهم خلق كثير، وتوجه بهم نحو التركمان لابعادهم عن بعرين. فلما علم التركمان بذلك، قصدوهم وقاتلوهم، وقتل بينهم خلق كثير، وأشرف الفرنج على الهزيمة. فجمعوا نفوسهم وعادوا على حمية إلى رفنية، فتعذر على التركمان اللحاق بهم إلى وسط بلادهم، فعادوا عنهم راجعين.

تابع شمس الملوك اسمٰعيل جهاده في الجنوب. فقاد جيشه في السنة التالية (٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م) واستولى بهجوم مباغت على شقيف نيرون في الجبل المطل على بيروت وصيدا. وعظم أخذه على الفرنج، فجمعوا عساكرهم، وساروا إلى حوران فخربوا أمهات البلد ونهبوا أماكنهم. وكان شمس الملوك لما رآهم يجمعون، جمع هو أيضاً وحشد، وانضم إليه جمع كثير من التركمان وغيرهم، فنزل بإزاء الفرنج. وجرت بينهم مناوشة استمرت عدة أيام. ثم إن شمس الملوك نهض ببعض عسكره، وترك الباقي قبالة الفرنج وهم لا يشعرون، وقصد بلدهم طبرية والناصرة وعكا وما يجاورها من البلاد، فنهب وخرب وأحرق وسبى النساء والذرية، وامتلأت أيدي من معه من

الغنائم، واتصل الخبر بالفرنج، فانزعجوا ورحلوا في الحال، لا يلوي أخ على أخيه، وطلبوا بلادهم. وأما شمس الملوك فإنه عاد إلى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الفرنج. فوصل سالماً. ورأى الفرنج بلادهم خراباً ففت في أعضادهم وتفرقوا، وراسلوا في تجديد الهدنة، فهادنهم شمس الملوك. ويظهر أن (شمس الملوك) قد شعر أن صراع دمشق ضد الفرنج قد استنزف قدرتها، فكتب إلى عماد الدين زنكي، وعرض عليه تسليم دمشق إليه واستحثه على سرعة الوصول. وأخلى المدينة من الذخائر والأموال ونقل الجميع إلى مقر قيادته. وتابع ارسال الرسل إلى زنكي يحثه على الوصول إليه. وقال له: «**إن أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج**». فسار زنكي. وشاع الخبر، فامتعض أصحاب أبيه وجده، وأقلقهم. وذكروا الحال لوالدته، فساءها ذلك، ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر. ثم إنها ارتقبت الفرصة في الخلوة من غلمانه، فلما رأته على ذلك أمرت غلمانه بقتله، فقتل، وأمرت بإلقائه على موضع في الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه، ولما قتل (شمس الملوك)★ ملك بعده أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري. وأثناء ذلك كان عماد الدين زنكي قد تحرك بجيشه من الموصل، وعبر الفرات، استجابة لدعوة شمس الملوك، وأرسل الرسل للاتفاق على قواعد التسليم، فرأى الرسل أن الموقف قد تبدل بقتل شمس الملوك، وقد استقبل أمير دمشق الجديد رسل عماد الدين استقبالاً لائقاً، وأكرمهم، وأعادهم بأجمل هيئة. ونقل الرسل إلى عماد الدين ما رأوه من استقرار الوضع في دمشق، وأن الكلمة متفقة بين أهلها على الطاعة. فلم يحفل عماد الدين بما سمعه، وسار إلى دمشق، فنازلها وحصرها، وأجفل أهل السواد إليها، واجتمعوا فيها على محاربته. ونزل عماد الدين أولاً شمالي دمشق، ثم انتقل إلى ميدان الحصى، وزحف وقاتل، فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقاً تاماً على محاربته، وقام (**معين الدين أنز**) مملوك طغتكين جد أمير دمشق بإدارة

★ شمس الملوك اسمعيل ابن تاج الملوك بوري بن طغتكين (٥٠٦-٥٢٩ هـ = ١١١٢-١١٣٤ م) أظهر كفاءة قيادية عالية في الحرب - مع صغر سنه - ولكنه ركب طريقاً من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم في أعمال البلد، وبالغ في العقوبات لاستخراج الأموال. وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس ولهذا فرح أهل الشام - حتى خاصته - عندما تم قتله.

الحرب بكفاءة عالية، وظهر من معرفته بأمور الحصار والقتال ما لم يكن متوقعاً أو معروفاً. ووصلت في تلك الفترة رسالة من الخليفة إلى عماد الدين تأمره بعقد صلح مع أمير دمشق، فانسحب عماد الدين زنكي ورجع إلى الموصل.

تابع عماد الدين زنكي توجيه الجهد ضد الفرنج، ففي سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م اجتمعت عساكر أتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الأمير أسوار نائبه بحلب، وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة منهم، وساروا إلى اللاذقية، ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها؛ والاحتراز، فنهبوا ما يزيد عن الوصف وقتلوا وأسروا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم. وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي، ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم. وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والحلي والأموال فيخرج عن الحد. وأخربوا بلد اللاذقية وما جاورها. ولم يسلم منها إلا القليل. وخرجوا إلى شيزر بما معهم من الغنائم سالمين، فامتلأ من الأساري والدواب، وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً، ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزاً منهم ووهناً وضعفاً.

قاد عماد الدين زنكي جيشه في السنة التالية (٥٣١ هـ = ١١٣٦ م) وألقى الحصار على (قلعة بعرين) وهي تحت حكم الفرنج وتقع على مقربة من مدينة حماه، ومن أمنع الحصون وأقواها، ولما نزل عليها قاتلها وزحف إليها، فجمع الفرنج - فارسهم وراجلهم - وساروا في قضهم وقضيضهم وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم لابعاد عماد الدين زنكي عن قلعة بعرين، فلم يرحل عنها، وصبر لهم إلى أن وصلوا إليه، فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس، وصبر الفريقان، ثم أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج. وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم، فحصرهم المسلمون، ومنع أتابك زنكي عنهم كل شيء حتى الأخبار. فكان من به منهم لا يعرف شيئاً عن أخبار بلادهم، لشدة ضبط الطرق، وهيبة عماد الدين على جنوده.

فما كان من رهبانهم وقسوسهم إلا أن ساروا إلى بلاد الروم وبلاد الفرنج

ومن والاها من بلاد النصرانية، مستنفرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج، ملك جميع بلادهم في أسرع وقت، لعدم المحامي عنها. وأن المسلمين ليس لهم نية إلا قصد القدس.

فحينئذ اجتمعت النصرانية، وساروا على الصعب والذلول، وقصدوا بلاد الشام مع ملك الروم. وأما ما كان من عماد الدين زنكي، فإنه جد في قتال الفرنج، فصبروا، وقلت عليهم الميرة والذخيرة، ذلك أنهم لم يكونوا على استعداد لمثل هذا الحصار، وكانوا يعتقدون أنه ما من أحد يقدر عليهم، بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد بالشام، فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم، وأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ويتركهم يعودون إلى بلادهم، فلم يجبهم إلى ذلك، فلما علم باقتراب ملك الروم من حدود بلاد الشام، واجتماعه بمن بقي من الفرنج، أعطى لمن في الحصن الأمان، وفرض عليهم تسليم الحصن، ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها إليه، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا وسلموا إليه. فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم، فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم.

وعمل زنكي في مدة مقامه عليهم، على فتح المعرة وكفرطاب، وانتزعها من الفرنج. وكان أهلها وأهل سائر الولايات التي بينها وبين حلب وحماة مع أهل بعرين في الخزي، لأن الحرب بينهم قائمة على ساق، والنهب والقتل لا يزال بينهم، فلما ملكها زنكي أمن الناس، وعمرت البلاد وعظم دخلها، وكان فتحاً مبيناً توجه زنكي بإعادة أراضي المعرة إلى أصحابها الأصليين، الذين كانوا يملكونها قبل استيلاء الفرنج الصليبيين عليها.

كان لا بد لملك الروم ـ الكسيوس ـ من تسوية حسابه مع أمير أنطاكية وأمير الدروب في أرمينية وذلك قبل دخول بلاد الشام. فسار إلى (نيقية) وحصرها، فصالحه أميرها على مال يؤديه له. وسار عنها إلى مدينة أذنة ومدينة المصيصة وهما بيد ابن ليون الأرمني ـ صاحب قلاع الدروب ـ فحصرهما وملكهما. ورحل إلى عين زربة، فحصرها وملكها عنوة، وملك تل حمدون، وعمل على نقل أهله إلى جزيرة

قبرص، وعبر ميناء الاسكندرونة، فحصر مدينة انطاكية، وضيق على أهلها، فترددت الرسل بين صاحب انطاكية - ريموند - وبين ملك الروم، وتصالحا، ورحل ملك الروم إلى بغراس. وتوجه منها إلى بلاد الشام (سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م) وخاف الناس خوفاً عظيماً، وقصد ملك الروم (بزاغة) فحصرها، وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب. فمضى جماعة من أعيان حلب إلى أتابك عماد الدين زنكي فاستغاثوا به واستنصروه، فسير معهم كثيراً من جنده، فدخلوا إلى حلب ليمنعوها من الروم إن حصروها. ثم إن ملك الروم قاتل بزاغة ونصب عليها منجنيقات، وضيق على من بها، فملكها بالأمان، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وأسر وسبى، وكان عدة من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس، وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها - نحو أربعمائة نفس - وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى، فقيل لهم إن جمعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات، فدخنوا عليها وهلكوا في المغاير. ثم رحلوا إلى حلب من الغد في خيلهم ورجلهم، فخرج إليهم أحداث حلب فقاتلوهم قتالاً شديداً، فقتل من الروم وجرح خلق كثير، وقتل بطريق جليل القدر عندهم، وأقاموا ثلاثة أيام، فلم يروا فيها طمعاً، وعادوا خاسرين، فرحلوا إلى قلعة الأثارب، فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها، فملكها الروم، وتركوا فيها سبايا بزاغة، والأسرى، ومعهم جماعة من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة. فلما علم حاكم حلب - الأمير أسوار - رحل فيمن عنده من العسكر إلى الأثارب. فأوقع بمن فيها من الروم فقتلهم، وخلص الأسرى والسبي وعاد بهم إلى حلب. أما عماد الدين، فإنه نظم قوة خفيفة من الفرسان، لمطاردة مؤخرات الروم، وقطع الامداد عنهم، فسار ملك الروم إلى شيزر وحصرها وأقام عليها أربعين يوماً، فلما فشل في فتحها، ترك المجانيق وآلات الحصار، وعاد إلى بلاده.

أصبحت معظم بلاد الشام تحت حكم عماد الدين زنكي، وقد حاول ضم دمشق لحكمه وحصرها - كما سبق ذكره - غير أنه فشل في مسعاه، فلما كانت سنة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م، شهدت دمشق أحداثاً مثيرة، اجتذبت إليها إنتباه عماد الدين زنكي. وحملته على إعادة المحاولة لضم دمشق إليه. فقد قام غلمان صاحب دمشق - شهاب

الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغتكين - بقتله وهو على فراشه. فعمل (**معين الدين أنز**) على استدعاء أخيه جمال الدين محمد بن بوري الذي كان يحكم بعلبك ليملك دمشق بعد أخيه. فحضر في أسرع وقت، ودخل البلد، وحلف له الجند وأعيان الرعية. وسكن الناس، وفوض أمر دولته إلى (معين الدين أنز) وزاد في علو مرتبته وكان أنز خيراً عاقلاً حسن السيرة فجرت الأمور عنده على أحسن نظام.

لم يكن عماد الدين زنكي بحاجة لما يحفزه للعمل، غير أن رسالة من زوجته (زمردخاتون) ★ والتي هي أم شهاب الدين محمود بن تاج الملوك - المقتول - وصلت إلى عماد الدين أعلمته فيها شدة وجدها لقتل ولدها وحزنها عليه، وطلبت إليه أن يقصد دمشق ويطلب بثأر ولدها. فلما قرأ عماد الدين الرسالة التي جاءته من حلب، وكان يومها بديار الجزيرة، بادر في الحال من غير توقف ولا تريث، وسار مجداً ليجعل ذلك طريقاً إلى ملك البلد، وعبر الفرات عازماً على قصد دمشق، فاحتاط من بها واستعدوا واستكثروا من الذخائر، ولم يتركوا شيئاً مما يحتاجون إليه إلا وبذلوا الجهد في تحصيله، وأقاموا ينتظرون وصوله إليهم، فتركهم وسار إلى بعلبك بعد أن حاول إغراء (معين الدين أنز) لتسليم دمشق مقابل بذول عظيمة يقدمها له فرفض

★ هي زمردخاتون ابنة جاولي - من زعماء التركمان - تزوجها تاج الملوك بوري. فولدت له شمس الملوك اسمعيل وجمال الدين محمد وشهاب الدين محمود. وكان هناك رجل اسمه يوسف بن فيروز - قد تمكن من أمور الدولة أيام بوري ثم في أيام ابنه اسمعيل بعده واتهم بأم شمس الملوك، فأراد شمس الملوك قتل أمه. فبلغها الخبر، فقتلته خوفاً منه والله أعلم. وعلى كل حال فقد عمل أمير من أمراء دمشق - واسمه ترواش - على قتل يوسف بن فيروز سنة ٥٣٠ هـ ولما رأى أتابك عماد الدين زنكي تمكنها من الحكم، أرسل إلى صاحب دمشق شهاب الدين يخطب إليه أمه ليتزوجها، وحملت إليه وهو في حمص فتزوجها سنة ٥٣٢ هـ - وإنما حمله على التزوج بها أن يملك دمشق بالاتصال إليها، فلما تزوجها خاب أمله ولم يحصل على شيء، فأعرض عنها. فلما قتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ - عادت من حلب إلى دمشق، ثم زارت بغداد، وسارت من هناك إلى الحجاز، وجاورت بمكة سنة، ثم جاءت فأقامت بالمدينة النبوية حتى ماتت سنة ٥٥٧ هـ = ١١٦١ م كانت كثيرة البرّ والصدقات والصلاة والصوم. وهي أخت الملك دقاق بن تتش لأمه: وقد بنت مدرسة الخاتونية خارج دمشق - وإلى الغرب منها. وقل ما بيدها في آخر أيام حياتها حتى أنها كانت تتقوت من عملها في غربلة القمح والشعير.

معين الدين أنز العروض، مما حمل عماد الدين على السير إلى بعلبك، فلما وصلها نازلها، وضيق عليها، وجد في محاربتها ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً، ترمي ليلاً ونهاراً حتى أشرف من بها على الهلاك، وطلبوا الأمان، وسلموا إليه المدينة، وبقيت القلعة وبها جماعة من الشجعان الأتراك، فقاتلهم، فلما أيسوا من معين ونصير، طلبوا الأمان، فأمنهم، فسلموا إليه القلعة، فلما نزلوا منها، وملكها، غدر بهم وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم إلا القليل، فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه، وخافه غيرهم، وحذروه، لاسيما أهل دمشق. فقالوا: «**لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء**» فازدادوا نفوراً وجدوا في محاربته عندما رجع إليهم، بعد أن فتح بعلبك. ونزل على قرية داريا - في ظاهر دمشق، (سنة ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م) فالتقت الطلائع، واقتتلوا، وكان الظفر لعسكر زنكي. وعاد الدمشقيون منهزمين وقد قتل كثير منهم. ثم تقدم زنكي من البلد، فلقيه جمع كثير من جند دمشق وأحداثها ورجال الغوطة، فقاتلوه، فانهزم الدمشقيون، وأخذهم السيف، فقتل فيهم وأكثر، وأسر كذلك، ومن سلم عاد جريحاً، وأشرف البلد ذلك اليوم على التسليم. لكن عاد زنكي وأمسك عن قتال دمشق عشرة أيام، وتابع ارسال الرسل إلى صاحب دمشق، وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد، فمال إلى أن يسلم، وامتنع غيره من أصحابه من ذلك، وخوفوه عاقبة فعله، وأن يفعل ويغدر كما فعل بأهل بعلبك، فلما لم يسلموا إليه عاود القتال والزحف. وتصادف أن مات صاحب دمشق وولي بعده (**مجير الدين أبق**) ابن صاحبها جمال الدين، وتولى ترتيب دولته (**معين الدين أنز**) فلم يظهر لموت جمال الدين أثر مع أن عددهم على باب المدينة.

ورأى (معين الدين أنز) أن زنكي لا يفارقهم، ولا يزول عن حصرهم، فراسل الفرنج واستدعاهم إلى نصرته، وأن يتفقوا على محاربة زنكي، وأبعاده عن دمشق، وبذل لهم بذولاً، منها أن يسير إلى بانياس - التي كانت تابعة لحكم زنكي - وأن يأخذها ويسلمها لهم. كما خوفهم من زنكي إن ملك دمشق. فعلموا صحة قوله. وعرفوا أنه إن ملك دمشق لا يبقى لهم معه بالشام مقام.

واجتمع الفرنج، وعزموا على المسير إلى دمشق ليلتقوا بصاحبها وعسكرها،

ويتعاونوا على قتال زنكي. وعندما علم زنكي بذلك، سار إلى حوران لقتال الفرنج قبل أن يجتمعوا بالدمشقيين. فلما عرف الفرنج خبره، لم يفارقوا بلادهم. فلما رآهم زنكي على هذه الحال، عاد إلى حصر دمشق، ونزل (بعذرا) شمالي دمشق، فأحرق عدة قرى من المرج والغوطة. ورحل عائداً إلى بلاده ـ الموصل ـ. ووصل الفرنج إلى دمشق. واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكي. فسار معين الدين أنز في عسكر دمشق إلى بانياس. وحصرها، وقاتل حاميتها، وضيق عليها، حتى أخذها وسلمها إلى الفرنج. ولما سمع زنكي بحصر بانياس، عاد بسرعة إلى بعلبك ليدفع عنها من يحصرها. وأقام هناك. فلما عاد عسكر دمشق بعد أن ملكوا بانياس وسلموها للفرنج، فرق زنكي عسكره، وأطلقهم للإغارة على حوران وأعمال دمشق، وسار هو في قوة خفيفة من الفرسان ليلاً، وباغت حامية دمشق ولما يعرف أحد خبره. فلما أصبح الناس ورأوا عسكره، اجتمعوا على السور، وفتحت الأبواب وخرج الجند والرجالة فقاتلوه. ولم يقدم زنكي على خوض المعركة لأن معظم جنده كانوا قد تفرقوا في البلاد. وانصرفوا للنهب والتخريب، وكان قصده من الاغارة على دمشق هو منع عسكرها من مغادرتها، والهجوم على عسكره وهم متفرقون. فلما اقتتلوا ذلك اليوم قتل بينهم جماعة. ثم أحجم زنكي عنهم، وعاد إلى خيامه. ثم رحل إلى مرج راهط، وأقام ينتظر عودة عسكره، فعادوا إليه وقد ملؤوا أيديهم من الغنائم. لأنهم طرقوا البلاد وأهلها غافلون. فلما اجتمعوا عنده رحل بهم عائداً إلى بلاده.

انصرف عماد الدين لإعادة تنظيم أمور قاعدته الأساسية ـ الموصل ـ فأخضع لحكمه المناطق المتاخمة لحدود امارته، وأعاد فتح ماردين وحملين والموزر وغيرها من القلاع التي كانت خاضعة لحكم أمير الرها ـ الكونت جوسلين ـ ورتب أمور الجميع، ووضع فيها من الأجناد من يحميها ويدافع عنها. وقصد مدينة آمد وحاني. وأقام بتلك الناحية مصلحاً لما فتحه، ومحصراً لما لم يفتحه، وينتظر الفرصة المؤاتية لتحقيق أكبر أهدافه وهو إعادة فتح الرها.

كان ضرر الفرنج قد عمّ بلاد الجزيرة، واستطار شرهم، ووصلت غاراتهم إلى أداني الجزيرة وأقاصيها حتى بلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة. وكانت ممتلكاتهم

بهذه الديار تمتد من قرب ماردين إلى الفرات. وتشمل فيما تشمله الرهـا وسروج والبيرة وسن ابن عطية وحملين والفرادي وغيرها. وكانت هذه الأعمال وغيرها مما هو غرب الفرات تحت حكم أمير الرهـا ـ جوسلين ـ الذي كان مقدم الفرنج وقائد جندهم والمتحكم بأمورهم لما عرف عنه من الشجاعة والمكر. وعرف عماد الدين زنكي أنه لا يستطيع فتح الرهـا إلا إذا عاجلها بهجوم مباغت، وبات يتحين الفرصة المناسبة، حتى إذا ما توافرت له المعلومات عن مغادرة أمير الرهـا لبلده، قام بهجومه، وحاصرها وفتحها عنوة★. وسرعان ما انتشرت أنباء هذا الفتح المبين، فقد تم تدمير أول إمارة للفرنج على أرض الشام. وكان ذلك نذراً خطيراً قرع أبواب الغرب الصليبي بعنف. ففتح الفرنج أبوابهم وأطلقوا حملتهم الصليبية الثانية.

لم ينعم أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر طويلاً بانتصاراته. فقد قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلة★★ وشعر الفرنج بالفرحة الكبرى، وتناقلوا البشائر بموته. ولكن سرعان ما تبين لهم أنهم كانوا مفرطين في تفاؤلهم. فقد عمل ولداه ـ سيف الدين غازي ونور الدين محمود ـ على اقتسام إدارة ممتلكاته، فأخذ سيف الدين غازي ولاية الموصل، فيما جعل نور الدين محمود من مدينة حلب قاعدة له. ومضى على نهج أبيه في محاربة الفرنج. وكان أول عمل له هو إعادة فتح الرهـا. التي حاول ـ جوسلين ـ استعادتها، فأحبط محاولته. ودمر الرهـا.

★ انظر الفصل الثاني: (القلاع والحصون ـ الرهاء).

★★ قتل أتابك عماد الدين زنكي لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م. وقد زاد عمره على ستين سنة، قتل والده وهو صغير، فأظهر كفاءة عالية. وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمرها، وامتلأت أهلاً وسكاناً. وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك. وكان أيضاً شديد الغيرة على نساء الأجناد، وكان يقول: إن لم تحفظ نساء الأجناد فسدن، لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار. وكان أشجع خلق الله. وكان الأعداء محيطين ببلاده محدقين بها، وكلهم يقصدها ويريدون أخذها. فلم يقنع بحفظها، حتى أنه لا ينقضي عليه عام حتى يفتح من بلادهم. وقد اختلطت ولايته بالأعداء من كل جهاتها. فكان يقصد هذا مرة، وهذا مرة، ويأخذ من هذا، ويصانع هذا إلى أن ملك من كل من يليه

٦ ـ التحول الحاسم .

بدأ نور الدين محمود عهده بمواجهة الحملة الصليبية التي توجهت إلى دمشق ـ وهي الحملة الصليبية الثانية ـ على أمل التعويض عن ضياع إمارة الرها من قبضة الفرنج. واستطاع المسلمون احباط هجوم الفرنج وتدمير قواتهم، بفضل تعاون أمير دمشق (معين الدين أنز) مع نور الدين محمود. وما إن انزاح الخطر عن دمشق، حتى سار نور الدين إلى (حصن العزيمة) لإعادة فتحه وانتزاعه من قبضة الفرنج. وكان السبب في ذلك هو أن ملك الالمان كان قد اصطحب معه في الحملة الصليبية الثانية، ابن حاكم طليطلة ـ الفونسو ـ والذي كان جده قد استولى على طرابلس الشام وحصن العزيمة. فأراد هذا الابن اتخاذ حصن العزيمة مقراً له لتكوين امارة صليبية يحكمها. فسار إليه نور الدين ومعه معين الدين أنز، وأرسلا إلى سيف الدين ـ وهو بحمص ـ يستنجدانه، فأمدهما بجيش كثيف، فنازلوا الحصن وحصروه وبه ابن الفونسو ـ الفنش ـ فامتنع به، وزحف إليه المسلمون غير مرة، وتقدم إليه النقابون فنقبوا السور، فاستسلم حينئذ من به من الفرنج، وملكه المسلمون، وأخذوا كل من به من فارس وراجل وصبي وامرأة ـ وفيهم ابن الفنش ـ وأخربوا الحصن (سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م) وعادوا إلى سيف الدين. وكان مثل ابن الفنش كما قيل: **« خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير أذنين »** .

لقد كان ذلك تحولاً حاسماً في خط مسار الحرب ضد الفرنج، إذ استطاع المسلمون تدمير أكبر حشد للفرنج على أبواب دمشق، وأحبطوا أهداف الحملة الصليبية الثانية،

= طرفاً من بلده. وأشاع الأمن في بلاده، وعانى في حياته كثيراً من الخطوب، فما أصابه الوهن ولا الضعف. واستعان بالاكفاء من الرجال ممن عرف تقواهم وعدلهم في الرعية وحسن سياستهم للأمور. وكان عماد الدين يساوي عسكره في مأكله ومشربه ومسيره ونومه، ويسبقهم في خوض غمار الحرب.

وانتقلوا إلى الهجوم. غير أن طريق الصراع لا زال طويلاً وشاقاً. ولكن معالم الطريق باتت واضحة كل الوضوح. وظهر ذلك من خلال اعمال نور الدين محمود وانجازاته.

أراد الفرنج القيام بتظاهرة قوة للتعويض عن هزائمهم، فحشدوا جموعهم وساروا إلى حلب للإغارة عليها. فعلم نور الدين فسار إليهم بجيشه، والتقوا - ببغرى - القريبة من حلب، واقتتلوا اقتتالاً شديداً، وأجلت المعركة عن انهزام الفرنج وقتل كثير منهم، وأسر جماعة من مقدميهم. ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل، وأرسل من الغنيمة والأساري إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد. وإلى السلطان مسعود وغيرهم★.

لقد كان على نور الدين محمود بعد ذلك أن ينصرف لبعض المشكلات الداخلية. فقد توفي أمير الموصل، سيف الدين غازي بن أتابك بن زنكي (سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م) فتولى أخوه (قطب الدين مودود) إمارة الموصل، الأخ الأصغر لنور الدين محمود. ويظهر أن نور الدين كان يخشى خروج أخيه على طاعته، فانطلق مسرعاً إلى سنجار، وليس معه إلا قوة صغيرة من الفرسان الخفيفة، حيث حصل على الدعم اللازم الذي يمكنه من التحرك إلى الموصل. واجتمع قطب الدين مع أركان دولته، وحشد جيشه وسار إلى سنجار وهو يقصد سنجار. واجتمع قطب الدين بأركان دولته، وقال لهم:

«ليس من الرأي قتال نور الدين فنحن الذين عظمنا مكانته عند السلطان وما يقوم به من الغزو، وجعلنا أنفسنا دونه. كما أنه هو الذي أظهر للفرنج عظمتنا وقوتنا، وأنه تابع لنا، وهو لا يزال يقول لهم: إن كنتم كما أحب وإلا

★ وقال ابن القيسراني في هذه الوقعة قصيدة طويلة، مطلعها:

يـا ليـت أن الصـد مصـدود	أولا فليـت النـوم مـردود
وكيـف لا يثنـى على عيشنـا الـ	ـمحمـود والسلطـان محمـود.
وصـارم الإسـلام لا ينثنـي	إلا وشلـو الكفـر مقـدود.
مكـارم لم تـك مـوجـودة	إلا ونـور الديـن مـوجـود.
وكـم لـه مـن وقعـة يـومهـا	عنـد الملوك الكفـر مشهـود.

سلمت البلاد لصاحب الموصل، وحينئذ يفعل بكم ويصنع. فإذا لقيناه، وهزمناه، طمع السلطان فينا، وقال: هذا الذي كانوا يعظمونه ويحتمون به وإذا به أضعف منهم. وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج وقالوا: إن الذين يحتمي بهم هم أضعف منه وقد هزمهم وبالجملة».

وأشار عليهم بالصلح. وسار هو إليه واصطلح معه. وسلم نور الدين بلدة سنجار إلى أخيه قطب الدين، وتسلم مقابل ذلك مدينة حمص والرحبة - الميادين حالياً - ولم يكن نور الدين يريد غير ذلك، وعاد نور الدين إلى حلب، وحمل معه ما كان قد ادخره أبوه - عماد الدين - من الخزائن، وكانت كثيرة جداً.

صار باستطاعة نور الدين متابعة جهده وجهاده ضد الفرنج الصليبيين، فقاد جيشه إلى - حارم - وخاض معركة قاسية، أنزل الله فيها نصره على المسلمين، وقتل أمير انطاكية. وفي السنة التالية (٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م) نجح نور الدين بفتح حصن أفامية.

جابه نور الدين محمود مأزقاً من مآزق الحرب الصعبة (سنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م) عندما سار بجيشه لقتال جوسلين الذي كان فارس الفرنج غير مدافع، وقد جمع الشجاعة والرأي، فلما علم بتحرك نور الدين جمع الفرنج فأكثر، والتقى بجيش نور الدين واقتتلوا شمال حلب. فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير، وكان في جملة من أسر سلاح نور الدين، فعمل - جوسلين - على ارسال سلاح نور الدين إلى ملك قونية - مسعود بن قلج أرسلان - وقال له:

«هذا سلاح زوج ابنتك، وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه».

فلما علم نور الدين بذلك، عظم عليه الأمر، وأعمل الحيلة على جوسلين، وهجر الراحة ليأخذ بثأره، وأحضر جماعة من أمراء التركمان. وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه إما قتيلاً أو أسيراً، لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه، فجعل التركمان عليه العيون، فخرج متصيداً، فلحقت به طائفة منهم، وظفروا به. فصانعهم على مال يؤديه إليهم، فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال، فأرسل في إحضاره، فمضى بعضهم إلى نائب نور الدين بحلب - أبو بكر بن

الداية ـ فأعلمه الحال، فسير جنداً معه وباغتوا أولئك التركمان وجوسلين معهم، فأخذوه أسيراً، وأحضروه عنده. وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين، قاسي القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره.

ولما أسر، سار نور الدين إلى قلاعه في شمال حلب. فملكها وهي: تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاتا ودلوك ومرعش ونهر الجوز، وغير ذلك من أعماله. وقد تم فتح ذلك كله في مدة يسيرة. وكان نور الدين كلما فتح حصناً نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج. فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو★.

حاول الفرنج في السنة التالية (٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) استعادة ما فتحه نور الدين من بلاد جوسلين، فجمعوا جموعهم وساروا لقتاله، ووقعت معركة عند (دلوك). واقتتل الفرنج والمسلمون أشد قتال رآه الناس. وصبر الفريقان، ثم انهزم الفرنج وقتل منهم وأسر كثير، وعاد نور الدين إلى دلوك ففتحها وأعادها إلى حكم المسلمين.★★.

★ أكثر الشعراء من مدح نور الدين لما قام به من أعمال ـ من ذلك قول القيسراني من قصيدة طويلة:

كما أهدت الأقدار القمص أسره ... وأسعد قرن من حواملك الأسر
طغى وبغى عدواً على غلوائه ... فأوبقه الكفر أن عدواه والكفر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة ... تشق على النسرين لو أنها وكر
فسر واملك الدنيا ضياء وبهجة ... فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر
كأني بهذا العزم لافل حده ... وأقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر
وقد أصبحت البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جاري الدماء له طهر

★★ مما قيل في نصر نور الدين على الفرنج:

أعدت بعصرك هذا الأنيـ ... ـق فتوح النبي وأعصارها
فواطأت يا حبذا أحد بها ... وأسررت من بدر أبدارها
وكان مهاجرها تابعيـ ... ـك وأنصار رأيك أنصارها

بقي الاستيلاء على دمشق هو الهدف الأول في مخططات نور الدين محمود - بمثل ما كان عليه لدى والده عماد الدين - غير أن نور الدين سلك نهجاً جديداً لبلوغ هدفه، وزاد من تصميمه لبلوغ هدفه ما حدث من تطورات في الجنوب، فقد استولى الفرنج الصليبيون على (عسقلان) سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م. وتدهور الموقف الداخلي على جبهة مصر. وكانت دمشق تعترض سبيل أي تحرك لقوات نور الدين بين بلاد الشام ومصر. ولهذا عمل نور الدين على توثيق صلاته بأمير دمشق مجير الدين، واستماله حتى وثق به، وواصله بالهدايا، وأظهر له المودة، حتى إذا ما شعر بأنه أصبح متمكناً من مجير الدين، أخذ في تدمير جهاز الدولة التي يعتمد عليه مجير الدين وذلك عن طريق مجير الدين ذاته. فكان يقول له: «إن فلاناً قد كاتبني في تسليم دمشق». فكان مجير الدين يبعد الذي قيل عنه ويأخذ إقطاعه. وكان آخر هؤلاء الأمراء عطاء بن حفاظ السلمي الخادم والذي اشتهر بشجاعته وشهامته. فلما أبعده مجير الدين وقتله، سار نور الدين إلى دمشق؛ وكان قد كاتب من بها من الأحداث واستمالهم، فوعدوه بالتسليم إليه. فلما حضر نور الدين إلى دمشق، أرسل مجير الدين إلى الفرنج يبذل لهم الأموال، ويسلمهم قلعة بعلبك مقابل نجدتهم له لابعاد نور الدين. وشرع الفرنج في حشد فارسهم وراجلهم، ولكن نور الدين تحرك بسرعة أكبر، وتسلم دمشق. فعاد الفرنج بخفي حنين (سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م). وسار مجير الدين إلى العراق، وأقام ببغداد.

لقد مضت فترة زادت على الستين عاماً، منذ أن استولى الفرنج على القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) ولما تقدم مصر لقتال الفرنج ما يتناسب مع قدراتها، ومع امكاناتها، وانصرفت لصراعاتها الداخلية، غير أن ذلك لم يصرف المسؤولين فيها عن متابعة ما كان يحدث على الساحة الإسلامية في بلاد الشام. ولقد أنعشت انتصارات

= فجـــددت إســـلام سلمانهـــا ... وعمـــر جســـدك عمارهـــا
ومـــا يـــوم أنـــب إلا كـــذا ... ك بـــل طـــال بـــالنـــوع أشبـــارهـــا
صـــدمـــت عـــزيمتهـــا صـــدمـــة ... أذابـــت مـــع الماء أحجـــارهـــا
وفي تـــل بـــاشر بـــاشرتهم ... بـــزحـــف تـــسور أســـوارهـــا
وإن دالكتهـــم دلـــوك فقـــد ... شـــددت فصـــدقـــت أخبـــارهـــا

نور الدين محمود الأمل في قلوب المسلمين. ولقد برز ذلك في مناسبات كثيرة ـ منها على سبيل المثال اسهام وزير مصر الصالح بن رزيك والذي قتل سنة ٥٥٨ هـ في الصلح بين نور الدين زنكي صاحب الشام وبين قلج أرسلان ـ حيث أرسل الصالح بن رزيك رسالة ـ شعرية ـ★ إلى قلج أرسلان ينهاه عن قتال نور الدين محمود، وينصحه بالتعاون معه لمصلحة المسلمين. وعلى كل حال، فقد تدهور الموقف على جبهة مصر تدهوراً خطيراً (سنة ٥٥٨ هـ) بحيث كان فيها ثلاثة وزراء في وقت واحد هم: العادل بن الصالح بن رزيك، وشاور، وضرغام. وكان لا بد من تفجّر الصراع بين هؤلاء الوزراء الثلاثة، وما يتبعهم من مراكز القوى. وأدى هذا الصراع إلى قتل العادل ابن الصالح بن رزيك، وسيطر ضرغام على الموقف، مما أرغم خصمه شاور على الهرب من مصر، واللجوء إلى نور الدين محمود لينتصر له من خصمه ضرغام.

★ كان مما تضمنته الرسالة الشعرية الطويلة التي أرسلها الصالح بن رزيك ـ وزير مصر ـ إلى قلج أرسلان:

نقول ولكن أين من يتفهم ... ويعلم وجه الرأي والرأي مبهم
وما كل من قاس الأمور وساسها ... يوفق للأمر الذي هو أحزم
وما أحد في الملك يبقى مخلداً ... وما أحد مما قضى الله يسلم
أمن بعد ما ذاق العدا طعم حربكم ... بفيهم وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم إلى حكم التنافس بينكم ... وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما عندكم من يتقي الله وحده ... أما في رعاياكم من الناس مسلم
تعالوا لعل الله ينصر دينه ... إذا ما نصرنا الدين نحن وأنتم
وننهض نحو الكافرين بعزمة ... بأمثالها تحوي البلاد وتقسم

٧ ـ عشر سنوات من تاريخ مصر

عندما تولى الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله منصب الخلافة سنة ٥٥٥ هـ = ١١٥٩ م. لم يكن له من السلطة والخلافة إلا اسمها ورسمها، فقد كانت أمور الخلافة قد انحلت منذ زمن بعيد، ولهذا لم يكن غريباً أن تتصارع مراكز القوى بمعزل عن إرادة دار الخلافة، ولهذا أيضاً فعندما انتصر الوزير ضرغام على الوزير شاور، وخرج شاور هارباً إلى بلاد الشام، لم يكن ذلك يعني شيئاً بالنسبة للخليفة العاضد لدين الله. وكان باستطاعة شاور أن يفاوض نور الدين محمود، وأن يتقدم إليه مستجيراً به على خصمه، على أساس أن عودته للسلطة هي عودة شرعية طالما أنها تعتمد على القوة المادية من جهة وعلى مباركة الخليفة الفاطمي من جهة ثانية. وكان الوزير يتمتع بكامل السلطة التي تسمح له بالتفاوض، وعلى كل حال، فقد تقدم شاور إلى نور الدين بعرض سخي:

أن يكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر، وأن يكون الجيش الذي سيرسله نور الدين إلى مصر تابعاً لنور الدين وخاضعاً لأوامره، وأن يلتزم شاور بأوامر نور الدين وتوجيهاته.

استقبل نور الدين الوزير شاور بالحفاوة والترحاب، وأكرم مثواه، وأحسن إليه، وأنعم عليه. غير أن تردد في قبول عرض شاور ـ على ما أشار إليه ابن الأثير بقوله: « كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فتارة يحمله رعاية قصد شاور بابه وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج ـ فيدفعه لقبول العرض ـ وتارة يمنعه خطر الطريق، وتخوفه من عدم وفاء شاور إذا ما استقر له الأمر بما تضمنه عرضه. ثم قوي عزمه على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها ».

كان لا بد من اختيار قائد تتوافر له كفاءة قيادية عالية لقيادة الجيش الذي تقرر

ساله إلى مصر. ووقع اختيار نور الدين على (أسد الدين شيركوه)★ وأمره (**بأن يعيد شاور إلى منصبه، وأن ينتقم له ممن نازعه**). وسار أسد الدين بجيشه (سنة ٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) وقاد نور الدين محمود جيشه، إلى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق حتى يمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين وجيشه. فكان قصارى جهد الفرنج هو حفظ بلادهم من نور الدين. ووصل أسد الدين وجيشه إلى مدينة بلبيس، فخرج إليهم ناصر الدين أخو الوزير ضرغام ومعه جيش مصر. ودارت معركة انتصر فيها أسد الدين، وعاد ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة وقتل عند مشهد السيدة نفيسة. وعاد شاور إلى الوزارة، وتمكن منها. وأقام أسد الدين وجيشه بظاهر القاهرة. فغدر به شاور، وعاد عما كان قد تعهد بتقديمه لنور الدين وجيشه. ليس ذلك فحسب، بل إنه أرسل إليه أمراً بالعودة إلى بلاد الشام. فامتنع أسد الدين عن الاجابة، وطلب منه الوفاء بما تعهد بتقديمه. ولما لم يجبه شاور، أرسل أسد الدين إلى نوابه أمراً باحتلال - بلبيس - والإقامة فيها، ونظم جهاز الحكم في البلاد الشرقية. فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن هو ملك مصر. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إذا ما ملك نور الدين بلاد مصر. فلما وصلتهم رسالة شاور، أسرعوا لاغتنام الفرصة، وتجهزوا وساروا، فلما علم نور الدين بتحرك الفرنج نحو مصر، سار بجيشه إلى

★ أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب، هما ابنا شاذي من بلدوين من أذربيجان، وأصلهما من الأكراد الزوادية. وهذا القبيل هم أشرف الأكراد. فقدما العراق، وخدما مجاهد الدين بهروز قائد حامية بغداد. فرأى من نجم الدين عقلاً وافراً وحسن سيرة - وكان أكبر من شيركوه - فجعله قائداً لحامية قلعة تكريت، وتصادف أن مني زنكي بن آقسنقر بهزيمة في معركة ضد قراجا الساقي سنة ٥٢٦ هـ - فقام نجم الدين بإعداد السفن لزنكي حتى عبر دجلة. وحفظ لهما زنكي هذا الجميل. وضمهما لخدمته. فلما ملك قلعة بعلبك، جعل أيوب قائداً لحاميتها. وصار من أكبر الأمراء عند نور الدين. وكذلك أخوه أسد الدين شيركوه الذي كان في خدمة عماد الدين زنكي - والد نور الدين - فقربه وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها، فزاده حتى صار له حمص والرحبة - الميادين - وغيرهما، وجعله مقدم جيشه. وأسهم أسد الدين وأخوه أيوب في فتح دمشق مما زاد من مكانتهما عند نور الدين. فلما أراد توجيه جيش إلى مصر. اختار أسد الدين لقيادته. وتوفي أسد الدين سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م (الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٦٤ هـ).

أطراف البلاد التي أخضعها الفرنج لحكمهم. فلم يمنعهم ذلك لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ما ملك نور الدين مصر، هو خطر أكبر. ولهذا تركوا في بلادهم من يحميها وسار ملك القدس على رأس جيشه إلى مصر. وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة القدس - والحج - فاستعان بهم الفرنج، فسار بعضهم معهم وأقام بعضهم في البلاد لحمايتها والدفاع عنها.

فلما اقترب الفرنج من مصر، انسحب أسد الدين بجيشه إلى بلبيس، فأقام بها وحمى مؤخراته، والتقى جيش مصر بجيش الفرنج وضربوا حصاراً على أسد الدين وجيشه، واستمر الحصار طوال ثلاثة أشهر، وأسد الدين ممتنع بها مع أن سورها قصير جداً وليس لها خندق ولا فصل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً.

فبينما هم كذلك، إذ أتاهم خبر هزيمة الفرنج في حارم - على يد نور الدين وجيشه - وفتح حارم، وتوجه نور الدين بجيشه إلى بانياس، فخاف الفرنج، وأرادوا العودة إلى بلادهم لحمايتها. فراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين. فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يكن يعلم ما فعله نور الدين بالفرنج في بلاد الشام، ولأن الأقوات والذخائر قلت عليه.

نظم أسد الدين انسحاب جيشه من - بلبيس - ووقف لحماية انسحاب المؤخرة، وليس في يده إلا قضيب - لت - من حديد. فيما كان المصريون والفرنج يرقبونه باعجاب، وتقدم إليه جندي من الفرنج الذين جاؤوا عن طريق البحر، وقال له:

«أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك، ولا يبقى لكم بقية؟».

فأجابه أسد الدين شيركوه:

«يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله. كنت والله أضع السيف، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال. وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد

ضعفوا وفني شجعانهم، فنملك بلادهم. ونهلك من بقي. والله لو أطاعني هؤلاء - يقصد قادته - لخرجت إليكم من أول يومهم. ولكنهم امتنعوا».

فرسم جندي الفرنج شارة الصليب على وجهه، وقال: «كنا نعجب من فرنج هذه البلاد، ومبالغتهم في صفتك، وخوفهم منك. والآن فقد عذرناهم» ثم رجع.

سار أسد الدين شيركوه إلى الشام، فوصل سالماً، وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رصداً ليأخذوه، أو ينالوا منه ظفراً، فعاد عن ذلك الطريق.

عاد أسد الدين لخدمة نور الدين زنكي، وهاجس الحديث عن مصر وضرورة العودة إليها لم يفارقه. وتمكن من اقناع نور الدين لتوجيه الجيش مرة أخرى إلى مصر. فأذن له، وضم إليه جماعة من الأمراء، وقوة من ألفي فارس. وسيَّر معه جمعاً لمرافقته خوفاً من حادث يتجدد عليهم فتضعف قوة المسلمين. وسار أسد الدين بجيشه إلى مصر، وترك بلاد الفرنج على يمينه (سنة ٥٦١ هـ = ١١٦٥ م) وتوجه عندما وصل مصر إلى بلدة - اطفيح - وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة، وتصرف بالبلاد الغربية وحكم عليها وأقام نيفاً وخمسين يوماً.

فما كان من شاور إلا أن أرسل إلى الفرنج يستنجدهم، فأتوه على الصعب والذلول طمعاً في ملكها، وخوفاً أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين.

فساروا إلى مصر والرجاء يقودهم والخوف يسوقهم حتى وصلوا وعبروا إلى الجانب الغربي من النيل، فسار أسد الدين وجيشه نحو الصعيد حتى وصل - البابين - وسار في اثره جيش مصر وجيش الفرنج، وكانت جواسيس أسد الدين التي تركها وراءه توافيه، تباعاً بعدد افراد قوات العدو، وعددهم. فلما رأى كثرتهم عزم على قتالهم، ولكنه خاف من أن تضعف نفوس أصحابه عن القتال في هذا الموقع الخطر والذي لا تتوافر فيه شروط جيدة تعادل ما به من شروط سيئة - منها: قلة العدد والبعد عن الوطن وخطر الطريق. فاستشار أسد الدين أصحابه، فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام. وقالوا له: «إن نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على

الظن، فإلى أين نلتجىء؟ وبمن نحتمي؟ وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح هو عدو لنا». وعندها نهض صاحب برغش وهو أحد الأمراء من مماليك نور الدين واسمه شرف الدين برغش، وكان معروفاً بشجاعته، وقال:

«من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك، بل يبقى في بيته مع امرأته. والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه، ليأخذن مالنا من إقطاع وجامكية - راتب - وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوّهم. وتسلّمون بلداً مثل مصر إلى الكفار. والحق بيده».

فقال أسد الدين: «هذا هو الرأي وبه أعمل» وقال ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب مثل قوله، وكثر الموافقون لهم، واجتمعت الكلمة على القتال. فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج، وهو على تعبية، وقد جعل الأثقال في القلب يتكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد. وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولمن معه:

«إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم أني فيه. فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال، ولا تهلكوا نفوسكم، وانسحبوا من أمامهم. فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم».

اختار أسد الدين من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة فلما تقاتل الطائفتان، فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين، وحملوا على القلب، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً، وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ومعهم الفرنج، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على مؤخرة الفرنج والمصريين - من الفرسان والمشاة - فهزمهم، ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر، فلما عاد الفرنج من مطاردة القلب رأوا عسكرهم مهزوماً والأرض منهم قفراً، فانهزموا أيضاً - وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر ومعهم عساكر الفرنج.

انطلق أسد الدين بجيشه من البابين، وسار إلى ثغر الاسكندرية، وجبى ما في القرى على طريقه من الأموال. ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلها، واستناب بها ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب. وعاد إلى الصعيد فملكه وجبى أمواله، وأقام به. عمل الفرنج والمصريون بعد هزيمتهم على الانسحاب من البابين إلى القاهرة، حيث أعادوا تنظيم قواتهم، وجمعوا قوات جديدة، وساروا إلى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها، واشتد الحصار، وقلّ الطعام على من بها، فصبر أهلها على ذلك، وسار أسد الدين من الصعيد إليهم. وكان شاور قد أفسد بعض من كان مع أسد الدين من التركمان.

فوصل رسل الفرنج والمصريين يطلبون الصلح. وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج ألا يقيموا بالبلاد، وألا يتملكوا منها ولو قرية واحدة.

فأجابوا إلى ذلك. واصطلحوا وعاد أسد الدين إلى الشام، وتسلم المصريون الاسكندرية.

لكن شاور اتفق مع الفرنج على النكث بشروط الاتفاق مع أسد الدين، فاستقر الأمر بين شاور والفرنج على أن تقيم حامية لهم بالقاهرة. وأن تكون أبوابها بيد الفرنج، حتى يمتنع نور الدين عن ارسال جيشه من جديد إلى مصر، وكذلك أن يقدم شاور للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار. وقد جرى ذلك كله بالاتفاق مع شاور ودون الرجوع إلى الخليفة الفاطمي العاضد الذي لم يكن له معه حكم لأن شاور قد حجر على الخليفة وحجبه عن الأمور كلها.

وعاد الفرنج إلى فلسطين وقد خلفوا وراءهم في القاهرة حامية قوية ضمت جماعة من مشاهير فرسانهم.

استقبل كثير من المصريين هذا الاتفاق بالاستياء وعدم الرضى، حتى أن الكامل شجاع بن شاور ذاته لم يكن راضياً عما فعله أبوه، فأرسل مع بعض الأمراء إلى نور

الدين ينهي إليه محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه أنه يفعل هذا، وبذل مالاً يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك، وحمل إليه مالاً جزيلاً، واستمر على ذلك. وعلى كل حال. فلقد سارت الأمور في مصر لمصلحة نور الدين والمسلمين. فقد عمل الفرنج بعد أن تمكنوا في مصر، على حكم المسلمين حكماً جائراً. وركبوهم بالأذى العظيم. ولما رأى الفرنج ذلك، وأن البلاد ليس فيها من يردهم أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام وهو مرى - املريك - والذي لم يكن للفرنج مذ وصلوا إلى بلاد الشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء - يستدعونه ليملك مصر، وأعلموه خلوها من الموانع، وهونوا أمرها عليه، فلم يجبهم. فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذو الرأي منهم، وأشاروا عليه بقصدها وتملكها. فقال لهم:

«الرأي عندي أن لا نقصدها. ولا طمع لنا فيها طالما أن أموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين. وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين. ولئن صار له فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام».

فلم يقبلوا قوله. وقالوا له: «ليس في مصر من يحميها - وإلى أن يتجهز عسكر نور الدين ويسير إليها، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا منها. وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة». فسار ملك القدس - املريك، أو مري - على كره منه بعد أن حشدوا قواتهم وقاموا بتظاهرة خداعية بأنهم يريدون التوجه إلى حمص، ثم ساروا بسرعة حتى وصلوا إلى مدينة - بلبيس - وحصروها وملكوها قهراً ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وعمل جماعة من أعيان المصريين - منهم ابن الخياط وابن فرجلة - على الكتابة إلى الفرنج، ووعدوهم النصرة، عداوة منهم لشاور. مما شجع الفرنج على المضي في تقدمهم نحو القاهرة. ولكن المصريين الذين علموا بما فعله الفرنج في بلبيس من القتل والنهب والأسر، خافوا من أن يفعل بهم الفرنج بمثل ما فعلوه بأهل بلبيس، فقرروا المقاومة والامتناع عن تسليم البلد، واتفقوا على القتال والدفاع. وبذلوا جهدهم. ولما شعر الوزير شاور بشدة المقاومة أمر باحراق مدينة مصر (في التاسع من صفر سنة أربع وستين

وخمسمائة = ١١٦٨م) وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة. وأن ينهب البلد، فانتقلوا. وبقوا على الطرق. ونهبت المدينة، وافتقر أهلها، وزالت عنهم نعمتهم وذهبت أموالهم. وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً.

وأرسل الخليفة العاضد لدين الله رسالة إلى نور الدين يستغيث بها، ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج وأرسل مع الرسالة شعور النساء، وقال: «هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج».

شدد الفرنج الحصار على القاهرة، وضاق شاور ذرعاً بالمقاومة، وضعف أمره، فلجأ إلى الحيلة، وأرسل إلى ملك الفرنج رسالة عبر فيها عن مودته ومحبته، وأكد أن هواه معه لخوفه من نور الدين ومن الخليفة العاضد لدين الله، وذكر أن المسلمين لا يوافقونه على التسليم للفرنج، وأشار عليه بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين، **فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويمهل بالبعض،** واستقر الاتفاق بينهم على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت على شاور، وربما سلمت إلى نور الدين، فأجابوا كارهين. وقالوا: «نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالي بنور الدين». وعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً. وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر. فلم يتجمع له إلا خمسة آلاف دينار، لأن دور أهل مصر كانت قد احترقت، ونهب وسلب ما سلم منها، فباتوا وهم لا يقدرون على الأقوات فضلاً عن الأقساط. أما أهل القاهرة، فالأغلب على أهلها الجند وغلمانهم. ولهذا تعذرت عليهم الأموال.

استمر أهل مصر خلال ذلك في ارسال الرسائل إلى نور الدين، وشرحوا له ما نزل بالمسلمين من البلاء، وبذلوا له ثلث بلاد مصر. وأن يبقى أسد الدين وجيشه في مصر، مقابل منحهم الاقطاعات من البلاد المصرية ـ علاوة على الثلث.

كان نور الدين بحلب لما وصلته رسائل الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، **فأرسل**

الرسل لاستدعاء أسد الدين شيركوه من حمص. وكان أسد الدين قد تلقى رسائل مماثلة من أهل مصر وأعيانها، فخرج من حمص قاصداً نور الدين بحلب، فالتقى برسل نور الدين قرب حلب، فرجع وإياهم، وعجب نور الدين من حضور أسد الدين في الحال، وسرّه ذلك وتفاءل به. وأمره بالتجهز إلى مصر، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وأطلق يده في اختيار الجند وأخذ ما يحتاجه من المال. فاختار ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع ستة آلاف فارس، وسار هو ونور الدين إلى دمشق، حيث أعطى نور الدين كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من راتبه - جامكيته -. وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء، منهم مملوكه عزّ الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخي شيركوه الذي رافق عمّه في هذه الحملة على كره منه★. وسار أسد الدين بجيشه مجداً من رأس الماء، فلما قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم خائبين.

وعلم نور الدين بعودهم فسره ذلك. وأمر بضرب البشائر في البلاد، وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك، فإنه كان فتحاً جديداً لمصر، وحفظاً لبلاد الشام وغيرها.

ودخل أسد الدين الى القاهرة، واجتمع بالخليفة العاضد لدين الله الذي خلع عليه. ثم عاد أسد الدين الى خيامه. وفرح به أهل مصر، وأجريت عليه وعلى عسكره

★ حكى صلاح الدين قصته في هذه الحملة بعد أن أصبح أميراً على مصر، فقال: «... لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج، ويطلب إرسال العساكر. أحضرني وأعلمني الحال. وقال: امضى إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ليحضر، وتحثه أنت على الاسراع فما يحتمل الأمر التأخير. ففعلت، وخرجنا من حلب، فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى. فأمره نور الدين بالمسير. فلما قال له نور الدين ذلك، التفت عمي إلي، فقال: تجهز يا يوسف. فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها مالا أنساه أبداً. فقال لنور الدين: لا بد من مسيره معي، فتأمر به. فأمرني نور الدين وأنا أستقيل. وانقضى المجلس، وتجهز أسد الدين ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك. فشكوت إليه الضائقة فأعطاني ما تجهزت به. فكأنما أساق إلى الموت» الكامل في التاريخ إحداث سنة ٥٦٤ هـ.

الجرايات الكثيرة، والإقامات الوافرة. ولم يكن باستطاعة شاور القيام بأي عمل مضاد نظراً لكبر جيش أسد الدين، ونظراً لحصول أسد الدين على دعم الخليفة العاضد وتأييده. ولهذا لم يجرؤ على اظهار ما في نفسه، ولكنه شرع في مماطلة أسد الدين بتنفيذ ما بذل لنور الدين من المال وإقطاع الجند، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين. واستمر في الركوب كل يوم إلى أسد الدين والسير معه، وقطع الوعود. ثم إنه عزم على أن يوجه دعوة لأسد الدين والأمراء الذين معه، والقبض عليهم، وتولي قيادة جندهم بنفسه لحماية البلاد من الفرنج. فنهاه ابنه الكامل وقال له: « والله لئن عزمت على هذا الأمر، لأعلمن شيركوه». فقال له أبوه: « والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً » فأجابه ابنه الكامل:

« صدقت! ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج. فإنه ليس بينك وبين عودة الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه. وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد ».

فترك شاور ما كان عزم عليه. وكان قادة جيش أسد الدين يتوجسون شراً كلما شاهدوا - شاور - في معسكرهم. فاتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعزّالدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، فنهاهم أسد الدين فسكنوا، واتفق أن جاء شاور الى معسكر أسد الدين على عادته، فلم يجد أسد الدين في خيمته، وقام جمع من العسكر بخدمته وأعلموه بأن أسد الدين قد مضى لزيارة قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه. ولقيه صلاح الدين وجرديك فسارا مع شاور لمسافة قصيرة، ثم القياه أرضاً وأخذاه أسيراً، وهرب من كان معه من الحرس. ولكنهما لم يتمكنا من قتله قبل الحصول على موافقة أسد الدين، فتوكلوا بحفظه، وسيروا إلى أسد الدين من يعلمه بما حدث. فحضر، فرأى أنه لا بد من إكمال ما بدأ صلاح الدين وجرديك بتنفيذه. وعلم الخليفة العاضد لدين الله بما حدث، فأرسل إلى أسد الدين وطلب منه ارسال رأس شاور، وتتابع الرسل بذلك، فقتل شاور، وأرسل رأسه الى العاضد. ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من اجتماع الخلق ما هاله، وما أخافه على نفسه، فقال لهم: « إن أمير

المؤمنين - يعني العاضد - يأمركم بنهب دار شاور ». فتفرق الناس عنه، وساروا إلى دار شاور لينهبوها. وكان الكامل بن شاور قد دخل وإخوته إلى قصر أبيهم واعتصموا به، فكان آخر العهد بهم، وعندما علم أسد الدين بقتلهم شعر بالحزن والأسف، لما كان يحمله من التقدير والحب للكامل - وكان يقول:

« وددت أنه بقي حياً حتى أحسن إليه جزاء صنيعه ».

استقبل الخليفة العاضد في قصره أسد الدين شيركوه، وخلع عليه خلعة الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار أسد الدين بخلع العاضد الى دار الوزارة، وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر وغلب عليه، ولم يبق له مانع ولا منازع. واستعمل على أعماله من يثق إليه من أصحابه، وأقطع البلاد لعساكره. ولكن المنية عاجلته قبل أن ينعم بالهدوء والاستقرار والملك. فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م. أسرع الخليفة العاضد فجمع مستشاريه لمناقشة الموقف بعد وفاة أسد الدين، وكان في الجيش جماعة من الأمراء كلهم يرى في نفسه أنه الأفضل لتولي الوزارة. ولكن مستشاري العاضد وأصحابه قالوا للعاضد:

« ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من صلاح الدين يوسف، والرأي أن يولى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد. ثم نأخذ صلاح الدين أو نخرجه ».

وأخذ العاضد بهذا الرأي. واستدعى صلاح الدين، وأحضره عنده، وخلع عليه، وولاّه الوزارة بعد عمّه. ورفض معظم أمراء الجيش الخضوع لصلاح الدين. ولكن الفقيه عيسى الهكاري تمكن من اقناع معظم الامراء بالخضوع لصلاح الدين. وعاد من أصرّ على الرفض الى بلاد الشام، ليعمل مع نور الدين الذي تقبل الأمر بالرضى، وشرع بالكتابة إلى صلاح الدين بلقب الاسفهسلار - قائد الجيوش - صلاح الدين. وفعل مثل ذلك كافة أمراء الجيش بالديار المصرية. واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال، فمالوا إليه وأحبوه. وضعف أمر الخليفة العاضد، ثم أرسل

صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه، وشرط عليهم طاعته والقيامة بأمره ومساعدته، وكلهم فعل ذلك، وأخذ إقطاعات المصريين، فأعطاها أهله والأمراء الذين معه، وزادهم، فازدادوا له حباً وطاعة.

جابه صلاح الدين يوسف مشكلة صعبة فور تسلمه الوزارة. فقد كانت أمور قصر العاضد والحكم فيه، والتقدم على جميع من يحويه، في قبضة خصي سوداني لقبه - مؤتمن الخلافة - ويظهر أن اسناد الوزارة إلى صلاح الدين قد حرمه وكثيرين من كبار المصريين من امتيازاتهم، فاتفقوا على مكاتبة الفرنج واستدعائهم الى البلاد، والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه، وسيروا الكتب مع إنسان يثقون إليه، وأقاموا ينتظرون جوابه. وسار ذلك المراسل إلى - البئر البيضاء - فلقيه جندي تركماني، ورأى هذا الجندي مع المراسل نعلين جديدين، فأخذهما منه. وقال في نفسه: «لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين، فإنه رث الهيئة» وارتاب به وبهما، فأتى به صلاح الدين، ففتقهما فرأى الكتاب فيهما، فقرأه وسكت عليه، وكان مقصود مؤتمن الخلافة أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية، فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في جيشه لقتالهم، فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيه، فيقتلونهم، ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره، والفرنج من أمامه، فلا يبقى لهم باقية. فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه، فقيل له: إنه رجل يهودي. فأحضر صلاح الدين هذا اليهودي وأمر بضربه واستجوابه، فأشهر اليهودي إسلامه، ثم اعترف وأخبره الخبر. وأخفى صلاح الدين معرفته بالأمر. واستشعر مؤتمن الخلافة افتضاح أمره، فلازم القصر لا يبارحه إلا برفقة صلاح الدين الذي لم يظهر له شيئاً. فلما طال الأمر، خرج مؤتمن الخلافة من القصر إلى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه. فلما علم به صلاح الدين، أرسل إليه جماعة؛ فأخذوه وقتلوه، وأتوا برأسه، وعمل صلاح الدين فوراً على عزل جميع الخدم الذين كانوا يتولون أمر قصر الخلافة، واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصي أبيض. وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بأمره. فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة - للجنسية - ولأنه كان يتعصب لهم. فحشدوا وجمعوا، فزادت عدتهم على خمسين ألفاً، وقصدوا حرب

جند صلاح الدين، فاجتمع العسكر أيضاً، وقاتلوهم بين القصرين، وكثر القتل في الفريقين. فأرسل صلاح الدين إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة، فأحرقها على أموالها وأولادهم. فلما أتاهم الخبر بذلك، ولوا منهزمين. فركبهم السيف، وأخذت عليهم مداخل الطرق والدروب، فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل، فأجيبوا إلى ذلك، ونقلوا من مصر إلى الجيزة، فعبر إليهم شمس الدولة، أخو صلاح الدين الأكبر، في طائفة من الجند، فأبادهم بالسيف. ولم يبق منهم إلا القليل الشريد. وأمن صلاح الدين شرهم.

عندما علم فرنج الشام بامتلاك أسد الدين شيركوه لمصر، فخافوا وأيقنوا بالهلاك، وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما استجد من ملك الأتراك لمصر، وأنهم خائفون على القدس. وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان للتحريض على الحركة. فأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح، واستعدوا للنزول على دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها قاعدة يملكون بها الديار المصرية. وجاؤوا إلى دمياط وحصروها وضيقوا على من بها، فأرسل صلاح الدين إليها العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر. وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخافة ويقول:

إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتي وساروا في أثري، والفرنج أمامي فلا يبقى لنا باقية».

فسير نور الدين العساكر إليها أرسالاً يتلو بعضها بعضاً، ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج بالشام فنهبها وأغار عليها، واستباحها. فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء، ووجدوا بلادهم خراباً وأهلها بين قتيل وأسير. وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً (من سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م) أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تحصى، وقال ذات مرة:

« ما رأيت أكرم من الخليفة العاضد ، أرسل إلي مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها » .

جاء رد صلاح الدين على الفرنج في السنة التالية (٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م) حيث قاد جيشه ، وخرج من مصر إلى فلسطين للإغارة على بلاد الفرنج ، فهاجم أعمال عسقلان والرملة وهاجم ربض غزة ، فنهبه ، وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين ، لردّه عن البلاد ، فقاتلهم صلاح الدين وهزمهم ، وهرب ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيراً . وعاد إلى مصر ، وعمل مراكب مفصلة ، وحملها قطعاً على الجمال في البر ، وقصد أيلة ، فجمع قطع المراكب ، وألقاها في البحر ، وحصر أيلة براً وبحراً ، وفتحها واستباح أهلها وما فيها . وعاد إلى مصر .

ثبّت قدم صلاح الدين يوسف بمصر ، وأزال المخالفين له ، وضعف أمر الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله ، وصار يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش ، فكتب إليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة للعاضد ، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله .

فامتنع صلاح الدين ، واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم ، لميلهم إلى العلويين (المتشيعين) . وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ، ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين إذْ كان يخشى أن يدخل نور الدين إلى مصر ويأخذها منه ، فكان يريد بقاء العاضد معه حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه . فلما اعتذر إلى نور الدين بذلك ، لم يقبل عذره ، وألح عليه بقطع الخطبة ، وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته ، واتفق أن مرض العاضد لدين الله في هذا الوقت مرضاً شديداً فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته ، استشار امراءه ، فمنهم من أشار به ، ومنهم من خافه ، إلا أنه لم يكن هناك من يجرؤ على مخالفة أمر نور الدين . وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي عرف ـ بالأمير العالم ـ فلما رأى ما هم فيه من الإحجام ، وأن أحداً لا يتجاسر يخطب للخليفة العباسي ، قال : « أنا أبتدىء بالخطبة له » . **فلما كان أول جمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة (١١٧١ م)** صعد المنبر قبل

الخطيب ودعا للمستضيء، ففعلوا ذلك - فلم ينتطح فيها عنزان. وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر، ففعلوا. وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا:

«إن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته».

فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة. ولما توفي، جلس صلاح الدين للعزاء. واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه، وكان بهاء الدين قراقوش قد رتبه وحفظه قبل موت العاضد، فحمل الجميع إلى صلاح الدين. وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء. وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالاً، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله، ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير... بالإضافة إلى الكتب النفيسة المعدومة المثل. فباع صلاح الدين جميع ما فيه. ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد، فباع البعض، وأعتق البعض، ووهب البعض، وخلا القصر من سكانه.

وصلت البشائر إلى بغداد معلنة عودة وحدة المسلمين تحت راية أهل السنة والجماعة، وزالت الفرقة، وزينت بغداد عدة أيام، وظهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه. وسيرت الخلع مع - عماد الدين صندل - وهو من خواص خدم الخلافة العباسية إلى نور الدين وصلاح الدين، فسار صندل إلى نور الدين وألبسه الخلعة، وسير الخلعة التي لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية. ومعها الأعلام السوداء - شعار العباسيين -.

وطويت صفحة الدولة العلوية - الفاطمية -★.

★ كانت مدة هذه الخلافة منذ ظهر المهدي بسجلماسة - بالمغرب - في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين. إلى أن توفي العاضد في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة. (١١٧١ م) مائتان واثنتان وسبعون سنة، وشهر تقريباً. وجميع من خطب لهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بأفريقية أربعة هم المهدي والقائم والمنصور والمعز إلى أن سار إلى مصر. ومنهم بمصر المعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر المستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد. وكان العاضد من أفضل الخلفاء. وصفه صلاح

سار صلاح الدين بجيشه من مصر إلى بلاد الفرنج غازياً، ونازل حصن الشوبك - وبينه وبين الكرك يوم - وحصره وضيق على من به من الفرنج. وأدام القتال، وطلبوا الأمان، واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك، فلما علم نور الدين بما فعله صلاح الدين، سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج أيضاً، ليدخل إليه من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين:

« إن دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال، أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها. ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخَذ ملكهم، لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين. وإن جاء نور الدين إليك وأنت ههنا، فلا بد لك من الاجتماع به، وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء، إن شاء تركك أو لا، فقد لا تقدر على الامتناع عليه. والمصلحة الرجوع الى مصر ».

فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر، ولم يأخذ الحصن من الفرنج. وكتب إلى نور الدين يعتذر باضطراب الأوضاع في البلاد المصرية، وأن الشيعة العلويين عازمون على الوثوب بها، وأنه يخاف عليها من البعد عنها من أن يقوم أهلها على من تخلف بها، فيخرجوهم، وتعود ممتنعة، وأطال الاعتذار. فلم يقبلها نور الدين منه، وتغير عليه، وعزم على قصد مصر وإخراجه عنها، وظهر ذلك، فسمع صلاح الدين الخبر، فجمع أهله، وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء. وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم. فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام ابن أخي صلاح الدين - واسمه تقي الدين عمر - فقال:

« إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد ».

ووافقه غيرهم من أهلهم. فتصدى لهم نجم الدين أيوب وشتمهم، وأنكر ذلك واستعظمه، وشتم تقي الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين:

« أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، والله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه،

= الدين بقوله: « لقد اتصف بالكرم ولين الجانب، وغلبة الخير على طبعه، وانقياده ».

ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلناه، فإذا كنا نحن كذلك فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروج خيولهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإذا أراد سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاب مع نجاب ـ تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأي حاجة إلى هذا؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك. وما ههنا من يمتنع».

وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا. فلما خلى أيوب بابنه صلاح الدين. قال له:

«بأي عقل فعلت هذا؟ أما تعلم أن نور الدين إذا علم عزمنا على منعه ومحاربته، جعلنا أهم الوجوه إليه، وحينئذ لا نقوى عليه؟ وأما الآن، إذا بلغه ما جرى، وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا. والأقدار تعمل عملها. ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل».

ففعل صلاح الدين ما أشار به. فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره. وبقي صلاح الدين وأهله في خوف من قدوم نور الدين إلى مصر. فاستقر الرأي بينهم على امتلاك بلاد النوبة أو بلاد اليمن، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد، فان تمكنوا من منعه، أقاموا بمصر، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها. فجهز شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ـ أخو صلاح الدين الأكبر ـ جيشاً، وسار به إلى أسوان، ثم إلى بلد النوبة. فنازل قلعة اسمها ـ ابزيم ـ فحصرها، وقاتله أهلها، فلم يكن لهم بقتال العسكر الإسلامي قوة لأنهم ليس لهم جنة ـ دروعاً ـ تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب، فسلموها، فملكها شمس الدولة وأقام بها. ولم ير للبلاد دخلاً يرغب فيه، وتحمل المشقة لأجله، وليس لديهم إلا الذرة يقتاتون بها، فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش، مع مباشرة الحروب، ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد إلى مصر بما غنم. وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري (وذلك سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م). وفي هذه الفترة، كان قد تم اتفاق بين نور الدين وصلاح الدين على حصر الكرك. على أن يخرج صلاح الدين من مصر، ويسير نور

الدين من دمشق، فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه. فسار صلاح الدين عن مصر، لأن طريقه أبعد وأشق، ووصل إلى الكرك وحصره.

وأما نور الدين فانه لما وصله كتاب صلاح الدين برحيله من مصر، فرق الأموال، وجمع المواد التموينية وما يحتاج إليه الجيش وسار إلى الكرك، فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان. فلما علم صلاح الدين بقربه، خافه هو وجميع أهله، واتفق رأيهم على العود إلى مصر، وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلاً، فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر، وأنه مريض شديد المرض، ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم، وأرسل معه من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف. فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه ذلك، فعظم عليه وعرف المراد من العود، إلا أنه لم يظهر للرسول تأثراً بل قال له: **«حفظ مصر أهم عندنا من غيرها»** وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه ولحق بربه.

أدت هذه الظروف إلى زيادة مخاوف صلاح الدين وأهله من أن يأخذ نور الدين مصر من أيديهم. فاتفقوا على توجيه حملة إلى اليمن بقيادة شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، حتى تكون اليمن لهم عدة إن أخرجهم نور الدين من مصر. ولما كان لا بد لصلاح الدين من أن يستأذن نور الدين للقيام بمثل هذا العمل، فقد أرسل إليه يستأذنه بحجة قصد عبد النبي صاحب زبيد لأجل قطع الخطبة العباسية. فأذن له نور الدين بذلك. وتجهز شمس الدولة، وأعد المواد التموينية وحشد ما يحتاجه من السلاح والآلات والجند. وسار من مصر إلى مكة أعزّها الله تعالى، وتحرك منها إلى زبيد، فخرج إليه عبدالنبي فقاتله، ولم يثبت أهل زبيد للقتال وانهزموا. ووصل المصريون إلى سور زبيد، فلم يجدوا عليه من يمنعهم، فنصبوا السلالم، وصعدوا السور، فملكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب، وأخذوا عبدالنبي أسيراً، وأخذوا معه زوجته المعروفة باسم الحرة، والتي اشتهرت بصلاحها وصدقاتها الكثيرة. واستخرج عبدالنبي أموالاً كثيرة أعطاها لشمس الدولة، وكذلك فعلت زوجته الحرة.

أقام شمس الدولة في ـ زبيد ـ فترة قصيرة عمل خلالها على تنظيم الأمور فيها، وأقام الخطبة العباسية، وأصلح أحوالها، ثم سار بجيشه إلى عدن، وهي على البحر، ولها مرسى عظيم. وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكش وفارس وغير ذلك، وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها، وكان اسم صاحبها ياسر، فلو أقام بها ولم يخرج عنها، لعاد شمس الدولة وجيشه خائبين، وإنما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم، فسار إليهم وقاتلهم وانهزم ياسر ومن معه، وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة، فدخلوا البلد قبل أهله فملكوه، وأخذو صاحبه ياسراً أسيراً. وأرادوا نهب البلد. فمنعهم شمس الدولة، وقال:

«ماجئنا لنخرب البلد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها».

فلم ينهب أحد منها شيئاً، فبقيت على حالها، وثبت ملكه، واستقر أمره. وعاد شمس الدولة بجيشه إلى زبيد، حيث عمل على حصر ما في الجبل من الحصون، فملك قلعة تعز، وهي من أحصن القلاع. كما ملك قلعة النعكر وقلعة الجند وغيرها من المعاقل والحصون والقلاع. وجعل في كل قلعة نائباً من أصحابه. وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد، واستصفى طاعتهم بالعدل والإحسان. وعادت زبيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن.

بينما كانت هذه الأحداث تأخذ مساراتها بعيداً عن مصر (سنة تسع وستين وخمسمائة = ١١٧٣ م) بدأت السحب في التجمع في سماء مصر ذاتها، فقد جمعت المصلحة المشتركة ـ أو الحقد المشترك ـ بين جماعة من الشيعة، مع جماعة من الجند المصريين، وحاشية القصر، بالإضافة إلى جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى ديار مصر ـ على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد، فإذا قصدوا البلاد، خرج إليهم صلاح الدين بنفسه، مما يفسح للمتآمرين المجال لإعلان الثورة بالقاهرة ومصر، وإعادة الدولة العلوية ـ الشيعية ـ فلا يبقى لصلاح الدين مقام مقابل الفرنج. أما إذا أقام صلاح الدين واكتفى بإرسال الجند لمقابلة الفرنج، فعندها تقوم قوات الثورة باعتقاله لعدم وجود

من يحميه أو يدافع عنه. ووضع المتآمرون في حسبانهم ابتعاد قسم من الجيش في اليمن، وكذلك غياب شمس الدولة في قيادة جيش اليمن، إذ كان باستطاعته أن يحل محل أخيه الأصغر صلاح الدين في حال اعتقاله أو قتله. وأرسل المتآمرون إلى الفرنج يستدعونهم، غير أن أحد هؤلاء - واسمه زين الدين علي بن نجا الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية - توجه إلى صلاح الدين وأعلمه بتفاصيل الاتفاق وعما تم ترتيبه من تعيين وترتيب لاشغال مناصب الخلافة والوزارة والحجابة والدعوة والقضاء الخ... عند تنفيذ المؤامرة. فأمره صلاح الدين بملازمة المتآمرين ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله، وتعريفه ما يتجدد أولاً بأول. ففعل ذلك، وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه. ثم وصل رسول من ملك الفرنج - من فلسطين - بهدية ورسالة إلى صلاح الدين، بالظاهر، وللاتصال بتلك الجماعة من المتآمرين بالباطن. وكان ملك الفرنج يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الأمر. فوضع صلاح الدين على رسول ملك الفرنج من يثق إليه من النصارى، وداخله. فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته. فقبض حينئذ على المقدمين في هذه المؤامرة وصلبهم. ونودي في أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصعيد (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) واحتبط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله. وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده، فلم يتعرض لهم صلاح الدين، ولم يشعرهم أنه يعرف عنهم شيئاً.

يظهر أن ملك صقلية لم يعرف أن صلاح الدين قد كشف المؤامرة، وصلب مقدميها، فأرسل اسطولاً كبيراً ضم مائتي سفينة (شانية وجمعها شواني) تحمل الرجال، وستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيل، وست مراكب كبار تحمل آلة للحرب، وأربعين مركباً تحمل المواد التموينية، وفيها من المشاة خمسون ألفاً ومن الفرسان ألفاً وخمسمائة. ووصل هذا الأسطول وحمولته إلى الاسكندرية وباغتها بهجومه. فخرج أهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول، غير أن الوالي منعهم من الابتعاد وأمرهم بملازمة السور. ونزل الفرنج إلى البر، وتقدموا إلى المدينة، ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات، وقاتلوا أشد قتال، وصبر لهم أهل البلد. ورأى الفرنج من

شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم. وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين، يستدعونه لدفع العدو عنهم. ودام القتال طوال اليوم، وتجدد القتال في اليوم التالي، وتمكن الفرنج من الوصول بدباباتهم إلى قرب سور المدينة. ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الاسكندرية، فقويت بهم نفوس أهلها، وأحسنوا القتال والصبر، فلما كان اليوم الثالث، فتح المسلمون باب البلد، وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب، وهم غارون. وكثر الصياح من كل الجهات، فارتاع الفرنج، واشتد القتال، فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها، وصبروا للقتال. فأنزل الله نصره عليهم، وظهرت أماراته، ولم يزل القتال إلى آخر النهار. وعاد أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم، وفشل الفرنج وفتور حربهم، وكثرة القتل والجراح في رجالتهم. وأما صلاح الدين فإنه عندما علم نزول الفرنج بالاسكندرية، سار بجيشه وسير مملوكاً له ومعه ثلاثة نجائب ليجد السير عليها إلى الاسكندرية يبشر بوصوله. وسير طائفة من الجيش إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها. فسار ذلك المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر، والناس قد رجعوا من القتال. فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين وجيشه مسرعين. فلما سمع الناس ذلك عاودوا إلى القتال، وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح. وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله. وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في جيشه، فسقط في أيديهم، وزادوا تعباً وفتوراً، فهاجم المسلمون عند اختلاط الظلام، ووصلوا إلى خيام الفرنج فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة، وكثر القتل في مشاة الفرنج، فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها، فسلم بعضهم، وركب وغرق بعضهم. وغاص بعض المسلمين في الماء، وخرق بعض شواني الفرنج، فغرقت. فخاف الباقون من ذلك، فولوا هاربين. واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة، ودام القتال إلى أن أضحى النهار، فقلبهم أهل البلد وقهروهم. فصاروا بين قتيل وأسير، وكفى الله المسلمين شرهم.

عندما كان صلاح الدين منصرفاً لقتال الفرنج في الوجه البحري. وقعت ثورة في

الجنوب ، (في سنة سبعين وخمسمائة أيضاً = ١١٧٤ م) حيث اجتمعت الرعية في الصعيد ومعهم السودان والعرب وغيرهم خلق كثير تحت زعامة رجل اسمه ـ الكنز ـ الذي بدأ تمرده بقتل أحد أمراء صلاح الدين ـ وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين ـ من كبار أمراء صلاح الدين أيضاً ، فلما فرغ صلاح الدين من أمر الفرنج وجه جيشاً كثيفاً بقيادة جماعة من الأمراء ـ بقيادة أبي الهيجاء ـ لقتال الكنز ، فسار الجيش حتى وصل مدينة طود ، وقاتل من بها قتالاً شاقاً وقتل كثيراً منهم ، وأذلهم بعد العز ، فقهروا واستكانوا . ثم سار الجيش إلى قتال الكنز ، فقاتله وقتله هو ومن معه من الأعراب وغيرهم . وأمنت بعده البلاد ، واطمأن أهلها .

كم تغيرت دنيا المسلمين خلال هذه السنوات العشر ، لقد كانت مصر حليفة للفرنج أحياناً ، وبعيدة عن الصراع في معظم الأحيان . وإذا بها ما بين سنة ٥٥٩ و ٥٦٩ هـ (١١٦٢ ـ ١١٧٣ م) تتحول إلى قاعدة صلبة من قواعد المسلمين . وقد أمكن لها بفضل هذا التحول ، وبعد زوال الخلافة الفاطمية والقضاء عليها ، الالتقاء مع بلاد الشام على صعيد الجهاد في سبيل الله ضد الفرنج ، وصحيح أن مصر واليمن قد باتت تحت حكم الأيوبيين بينما كانت الشام تحت حكم الزنكيين ، ولكن بقي الزنكيون هم الأقوى ، وكان باستطاعة نور الدين دائماً توجيه الجهد المشترك ضد العدو المشترك .

٨ ـ العدو الأكبر للفرنج.

لقد ظهر للفرنج أن نور الدين محمود هو أكبر عدو لهم. وأنه تجاوز بعدائه جميع من سبقه من الأمراء ومن قادة المسلمين الذين عرفهم الفرنج منذ وطئت أقدامهم تراب الشام. وقد استطاع نور الدين تحقيق انتصارات كثيرة على جيوش الفرنج، وقتل كثيراً من أمرائهم وقادتهم، وانتزع منهم كثيراً من قلاعهم وحصونهم، غير أن الأهم من ذلك هو تنسيق التعاون بين مسلمي الشام ومصر، وحشد كافة القوى ضد الفرنج الصليبيين. وقد ظهر ذلك واضحاً خلال الأعمال القتالية التي خاضها الفرنج على أرض مصر.

تعرض نور الدين محمود لأول وأكبر هزيمة في حياته سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م. في الموقعة المعروفة باسم موقعة البقيعة ـ تحت حصن الأكراد. حيث ضرب نور الدين حصاراً على هذا الحصن، وذلك قبل توجهه إلى طرابلس لحصارها ـ على ما كان يعتزم ـ. فبينما الناس يوماً في خيامهم، وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد، وذلك أن الفرنج اجتمعوا واتفقوا على مباغتة المسلمين بهجوم نهاري، حيث يكون المسلمون آمنين. فركبوا من وقتهم، ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم، وساروا مجدين، فلم يشعر بذلك المسلمون إلا وقد قربوا منهم. فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك. فأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال، فرهقهم الفرنج بالحملة، فلم يثبت المسلمون، وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والفرنج في ظهورهم، فوصلوا معاً إلى معسكر نور الدين، ولم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطوهم، فأكثروا القتل والأسر. وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومي ـ القائد البيزنطي قسطنطين كولومان ـ فإنه كان قد خرج من بلاده إلى الساحل في جمع كثير من الروم، فقاتلوا محتسبين في زعمهم، فلم يبقوا على أحد، وقصدوا خيمة نور الدين وقد ركب فيها فرسه، ونجا بنفسه، ونزل نور الدين

على بحيرة قدس بالقرب من حمص، وبينه وبين موقع المعركة أربع فراسخ، وتلاحق به من سلم من الجند. وقال له بعضهم: «ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، فنؤخذ ونحن على هذا الحال». فوبخه نور الدين وأسكته وقال:

«إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم. ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام».

ثم أرسل إلى حلب ودمشق، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل، فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه - بحسب أقوالهم - فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة. وكل من قتل أعطي أقطاعه لأولاده. وأما الفرنج، فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد انتصارهم، لأنها أقرب البلاد إليهم. فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم، قالوا لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها. ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه - انفاقه - قال له بعضهم:

«إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت في هذا الوقت بها لكان أصلح».

فغضب من ذلك وقال:

«والله إني لأرجو النصر بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطىء، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، فكيف يحل لي أن أعطيه لغيرهم».

ثم إن الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح، فلم يجبهم، وتركوا عند حصن الأكراد من يحميه وعادوا إلى بلادهم.

استطاع نور الدين الوفاء بقسمه، وثأر لنفسه وللمسلمين عندما وجه في السنة التالية لهزيمته (سنة ٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) حملة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه. ثم حشد

جيشه الذي أعاد تنظيمه، وأرسل إلى أخيه صاحب الموصل قطب الدين مودود وإلى صاحب حصن كيفا ـ فخر الدين قرا أرسلان، وإلى صاحب ماردين نجم الدين ألبي، وإلى غيرهم من أصحاب الأطراف يستنجدهم، فساروا إليه بجيوشهم، فسار بهم نور الدين إلى حصن حارم الذي حاول قبل ذلك أن يفتحه ولكن الحظ لم يحالفه، فحصره وضيق عليه، وأسرع الفرنج فاحتشد جيش انطاكية وجيش طرابلس بالاضافة إلى جيش الروم. واستطاع نور الدين الانتصار على تجمع جيوش الفرنج، وفتح حارم، ثم أتبعها بفتح بانياس. وفي سنة ٥٦١ هـ = ١١٦٥ م. فتح نور الدين حصن المنيطرة من بلاد الشام. وكان بيد الفرنج، ولم يحشد له ولا جمع عساكره، وإنما سار إليه في قوة خفيفة من الفرسان ـ جريدة ـ وحصر الحصن وجد في قتاله، فأخذه عنوة وقهراً، وقتل من به وسبى وغنم غنيمة كثيرة، فإن الذين به كانوا آمنين، فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون. ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلا وقد ملكه. ولو علموا أنه في قلة من الجند لأسرعوا إليه، وإنما ظنوه أنه في جمع كثير، فلما ملكه تفرق الفرنج وأيسوا من ردّه. وفي سنة ٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م. وبينما كان أسد الدين شيركوه يخوض صراعاً مريراً في مصر، قام نور الدين بفتح صافيتا وعريمة، وتمكن بذلك من إرغام الفرنج على الانسحاب من مصر. وعمل في سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م على فتح قلعة جعبر التي كانت من أمنع القلاع وأحصنها على الفرات. ورغم أنها لم تكن في قبضة الفرنج إلا أن امتلاكها زاد من قوة نور الدين. وعندما توجه الفرنج لحصر دمياط سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م. قام نور الدين بإلقاء الحصار على الكرك. وتصادف في تلك الفترة أن سار صاحب قلعة ألبيرة ـ شهاب الدين الياس بن ايلغازي بن أرتق ـ ومعه مائتي فارس. للالتحاق بجيش نور الدين، ووصل إلى قرية اللبوة القريبة من بعلبك، فأراد أخذ قسط من الراحة، وخرج متصيداً فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام، فاشتبك معهم، واشتد القتال، وصبر الفريقان وكان صبر المسلمين أكبر، إذ لا يمكن القول أن الفرنج قد صبروا وعدد فرسانهم ألف ثلاثمائة مقابل ثلاثمائة فارس من فرسان المسلمين. وكثر القتل بين الطائفتين، فانهزم الفرنج، وعمهم القتل والأسر. فلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به، وسار شهاب الدين برؤوس القتلى

وبالأسرى إلى نور الدين. فركب نور الدين والعسكر فلقوهم، فرأى نور الدين في الرؤوس رأس صاحب حصن الأكراد ـ مقدم طائفة فرسان الاسبتارية ـ وكان من الشجاعة بمحل كبير، وكان شجاً في حلوق المسلمين.

لقد كان نور الدين يشغل نفسه طوال الوقت بجهاد الفرنج وبحشد القوى، وحثّ امراء البلاد وتحريضهم للعمل ضد أعداء الدين، وقد أعطى بذلك الأمثولة التي يجب على امراء البلاد والأقاليم الأخذ بها، والسير على نهجها، ولهذا لم يكن موقفه غريباً من أتابك شمس الدين أيلدكز ـ صاحب همذان وبلد الجبل وأذربيجان وأصفهان والري يوم حاول هذا التدخل في شؤون الموصل، فأرسل إليه مع رسوله:

«لا تتدخل، وعند الفراغ من اصلاح البلاد يكون الحديث معك على باب همذان. فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها. وقد بليت أنا بالفرنج وليس لي مثل ربع بلادك، والفرنج أشجع العالم. فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم، ولا يحل لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت، وإزالة الظلم عن المسلمين» ★.

وكذلك موقفه من عزّ الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ـ صاحب ملطية وسيواس وأقصرا وغيرها والذي تقاعس عن جهاد الفرنج المجاورين له. فقصد محاربته والاستيلاء على بلاده، ثم جرى الصلح على شرط فرضه نور الدين:

«أن ينجده بعساكر إلى الغزاة».

وقال له: **«أنت مجاور الروم، ولا تغزوهم، وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام ولا بد من الغزاة معي»** ★★.

ليس ذلك فحسب، بل إنه استعان بالأرمن لقتال الفرنج، فعمل على تعيين مليح ابن ليون الأرمني أميراً على بلاده المجاورة لحلب ـ والتي كانت معروفة باسم بلاد

★ الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ست وستين وخمسمائة.

★★ المرجع السابق ـ احداث سنة ثمان وستين وخمسمائة.

الدروب - واعترض بعض قادة نور الدين على هذا التعيين، فرد عليهم نور الدين بقوله:

«أستعين به على قتال أهل ملته، وأريح طائفة من عسكري تكون بإزائه لنمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له».

وبرهن مليح بن ليون على ولائه ووفائه فلازم نور الدين، وشاركه في حروبه ضد الفرنج. ومقابل ذلك كان مليح يستعين بنور الدين ويستنصر به ضد من يجاوره من الأرمن والروم. وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية، فأخذها مليح منهم لأنها تجاور بلاده، فسير إليه ملك الروم جيشاً كثيفاً (سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م) وجعل عليه بعض أعيان البطارقة من أقاربه - فلقيه مليح ومعه طائفة من جند نور الدين فقاتله وصدقه القتال، فانهزمت الروم وكثر فيهم القتل والأسر. وقويت شوكة مليح، وانقطع أمل الروم من تلك البلاد. وأرسل مليح إلى نور الدين كثيراً من غنائمهم ومن الأسرى ثلاثين رجلاً من مشهوريهم وأعيانهم، فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله. وكتب يعتد بهذا الفتح لأن بعض جنده فعلوه.

هكذا اتسعت حدود البلاد التي يحكمها نور الدين، وطالت مملكته وعرضت أكنافها، وتباعدت أوائلها عن أواخرها. ثم إنها جاورت بلاد الفرنج، وكانوا ربما نازلوا حصناً من ثغوره، فإلى أن يصل الخبر، ويسير إليهم، يكون الفرنج قد بلغوا غرضهم.

ومن أجل ذلك اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادي (سنة سبع وستين وخمسمائة = ١١٧١ م) وهي التي يقال لها المناسيب، وتطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، وجعلها في جميع بلاده. حتى يصل الخبر إليه في يومه. وأجرى الجرايات - الرواتب - على المرتبين لحفظها وإقامتها، فحصل منها الراحة العظيمة، والنفع الكبير للمسلمين.

لقد حرص نور الدين على أن يكبح جماح الفرنج الصليبيين باستمرار، وأن يضيق

عليهم قدر استطاعته، وبحسب ما يتوافر له من القدرات والامكانات، فكانت كل زيادة في هذه القدرات والإمكانـات تسـاعـده على تحقيـق المزيـد مـن النجـاحـات والانتصارات ـ في ميادين القتال ـ ومقابل ذلك أيضاً كان كل انتصار يحققه على الفرنج يساعده على اكتساب المزيد من الدعم والتأييد من جماهير المسلمين ـ ومن أمرائهم ـ. وهذا ما يوضح حرص نور الدين على بذل جهد متوازن وفي آن واحد على الجبهتين الداخلية والخارجية. ولقد تطلب ذلك العمل المتواصل للإفادة من كل فرصة لتقييد حرية عمل الفرنج العسكرية، وزيادة حرية العمل العسكري لقوات المسلمين. ومن الأمثلة على ذلك، ما حدث سنة ٥٦٧ هـ = ١١٧١ م حيث خرج مركبان من مصر إلى الشام، فأرستا بمدينة لاذقية، فأخذهما الفرنج وهما مملوأتان من الأمتعة والتجارة، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا. فأرسل نور الدين إليهم في المعنى وإعادة ما أخذوه من أموال التجار، فغالطوه، واحتجوا بأمور منها أن المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء، وكان الشرط أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه. فلم يقبل نور الدين مغالطتهم، وجمع العساكر وبث السرايا في بلادهم بعضها نحو أنطاكية وبعضها نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيتا وعريمة، فأخذهما عنوة ونهب وخرب وغنم المسلمون، غنائم كثيرة، وعادوا إليه وهو بعرقة. فسار في العساكر جميعها إلى أن قارب طرابلس ينهب ويخرب ويحرق ويقتل. وأما الذين ساروا إلى أنطاكية ففعلوا في ولايتها مثل ما فعل في ولاية طرابلس، فراجعه الفرنج وبذلوا جميع ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة معهم، فأجابهم إلى ذلك، وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم. وحدث مثل ذلك أيضاً سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م. عندما اجتمعت الفرنج وساروا إلى بلد حوران من أعمال دمشق للغارة عليه، وبلغ الخبر إلى نور الدين. وكان قد برز ونزل هو وجيشه بالكسوة. فسار إليهم مجداً، وقدم بجموعه عليهم فلما علموا بقربه منهم، وسار نور الدين فنزل في عشترا وسير منها سرية إلى أعمال طبرية فشنوا الغارات عليها، فنهبوا وسبوا وأحرقوا وخربوا، فسمع الفرنج ذلك، فرحلوا إليهم ليمنعوا عن بلدهم. فلما وصلوا كان قد

فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم وعادوا وعبروا النهر، وأدركهم الفرنج، فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم فقاتلوهم، فاشتد القتال وصبر الفريقان: الفرنج يرومون أن يلحقوا الغنيمة فيستردوها، والمسلمون يريدون أن يمنعوهم عنها لينجو بها من قد سار معها. فلما طال القتال بينهم، وابتعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين، عاد الفرنج ولم يستردوا منها شيئاً.

يظهر ذلك بوضوح سبب غضبة نور الدين من سلوك صلاح الدين يوسف بن أيوب، بعد أن ملكه مصر، وفتوره في غزو الفرنج من ناحيته، فقد اعتقد أن صلاح الدين يؤثر بقاء الفرنج بينه وبين بلاد الشام، ليمتنع بهم. ولهذا أرسل إلى الموصل وديار بكر وديار الجزيرة بطلب العساكر للغزاة. وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل والشام؛ ويسير هو بعساكره إلى مصر. فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مرد له. وترك الدنيا لأهل الدنيا، واكتفى من دنياه بما قدمه لآخرته★

كان نور الدين في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها. فقال له القطب النساوي الفقيه:

★ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر (٥١١ - ٥٦٩هـ = ١١١٧ - ١١٧٣م) مات بعلة الخوانيق، ودفن بقلعة دمشق. ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين. طبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله حتى قيل فيه بأنه ليس بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز، أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرياً منه للعدل، وأما شجاعته فاليها النهاية، بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها. فمنها دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها. وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وبنى الجامع النوري بالموصل. وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق. وبنى الخانكاهات في جميع البلاد. وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، وينبسط معهم ولا يرد لهم قولاً. ويكاتبهم بخط يده. كان يصلي كثيراً بالليل، ولا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له، قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، شكت له زوجته من الضائقة - فقال لها: «ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين، لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك».

« بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام . فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف » .

فقال نور الدين :

« ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ من قبلي مَن حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو » .

وحفظ الله البلاد والإسلام ، وسخر للإسلام وأهله رجالاً من أمثال نور الدين محمود ، فجاء صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وورث عنه مملكته ، وسار على نهجه ، ولقد ترك موت نور الدين محمود شعوراً لدى الفرنج بالارتياح ، كمثل ذلك الشعور الذي تركته وفاة والده من قبله ، وكمثل الشعور الذي سيعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك ، غير أن حقيقة واحدة لم يدركها الفرنج الصليبيون ـ يومئذ ـ ولم يدركوها من بعد أيضاً ، وهي أن الملك لله وحده ، وأن الدين لله ، يسخر له من عباده من يقومون بحفظه ضد أولئك الذين يعملون على محاربته ويحاولون اطفاء نوره .

٩ ـ صلاح الدين والإرث الكريم .

انتقل نور الدين إلى الرفيق الأعلى. وعرف صلاح الدين أنه بات هو أقوى الأمراء والحكام في مصر والشام. وظهر ذلك في رسالته التي وجهها إلى الحكام والأمراء ـ وجاء فيها :

« لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته إلي، لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته. ولو لم يعجل عليه الموت، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي ـ الملك الصالح اسماعيل ـ دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها. وأجازي كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده » .

وأرسل صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الملك الصالح اسماعيل يعزيه بوفاة والده نور الدين، ويهنئه بالملك، وأرسل إليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له ـ في مصر ـ كما كانت لأبيه من قبل.

كان الملك الصالح اسماعيل عندما توفي والده يبلغ من العمر أحد عشر عاماً (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) فبايعه الأمراء والمقدمون في دمشق. وحلفوا له. وأطاعه الناس. وتولى تربيته وإدارة مملكته الأمير شمس الدين محمد بن عبدالملك (المعروف بابن المقدم).

جاءت الظروف الداخلية لتخدم صلاح الدين، ولتعمل على مساعدته، **فقد عمل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي** على الاستقلال بأمور البلاد الجزرية ـ الجزيرة الشامية وعاصمتها الموصل ـ ووجه سيف الدين تهديده لحلب، مما دعى (ابن المقدم ـ الذي كان مريضاً بحلب) إلى الانتقال **بالملك الصالح**

اسماعيل إلى حلب. ووجه سيف الدين غازي عندها قواته إلى دمشق، مما دفع حكام دمشق للاستنصار بصلاح الدين. وكتبوا إليه يستدعونه لتسليمه البلد، وأسرع صلاح الدين بقواته حتى إذا اقترب من دمشق، خرج كل من بها من المعسكر إليه، فلقوه وخدموه، ودخل البلد فأعلن: (أنا مملوك الملك الصالح، ما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التي أخذت منه إليه). وسار منها إلى حمص وحماه فامتلكهما بعد أن أعلن لامرائهما: «أنه في طاعة الملك الصالح، وإنما يريد حفظ بلاده عليه». ثم سار إلى حلب. وأدرك الملك الصالح ما يريده صلاح الدين، فجمع أهل حلب، وقال لهم:

«قد عرفتم إحسان أبي إليكم، ومحبته لكم، وسيرته فيكم. وأنا يتيمكم. وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق...».

وقال من هذا كثيراً. وبكى فأبكى الناس. فبذلوا له الأموال والأنفس، واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده. وجدوا في القتال. وهم أهل شجاعة، قد ألفوا الحرب، واعتادوها، حيث كان الفرنج بالقرب منهم. فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل حوشن، فلا يقدر على ملك البلد أو الاقتراب منها.

اتصل مقدم جيش سيف الدين غازي (واسمه سعد الدين كمشتكين) إلى مقدم الإسماعيلية (سنان) وبذل له أموالاً كثيرة لقتل صلاح الدين. فأرسل سنان جماعة من طائفته إلى معسكر صلاح الدين، فرآهم أمير اسمه خمارتكين - صاحب قلعة بوقيس - فعرفهم لأنه كان جارهم في بلاد كثيرة، وكان غالباً ما يجتمع بهم، ويتردد عليهم لقتالهم. فلما رآهم قال لهم: «ما الذي أقدمكم؟ وفي أي شيء جئتم؟» فهجموا عليه وجرحوه جراحات مثخنة، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله، فقتل دونه، وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا.

استمر صلاح الدين في حصار حلب شهراً ونيف، فلما طال الحصار، عمل (سعد الدين كمشتكين) على إطلاق سراح أمير طرابلس - الكونت ريموند سانت جيل - مقابل مائة ألف وخمسين ألف دينار واطلاق ألف أسير من المسلمين - وكان نور الدين

قد أسره منذ سنة ٥٥٩ هـ فتم إطلاق سراحه الآن ـ سنة ٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م. فلما وصل إلى بلده، اجتمع الفرنج عليه يهنؤونه بالسلامة، وكان عظيماً فيهم من أعيان شياطينهم، فاتفق أن مات في تلك الفترة ملك القدس ـ املريك أو ايمري ـ. فتولى الكونت ريموند سانت جيل تدبير الملك. وجاءته رسالة من حلب تقترح عليه قصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين حتى يرحل عن حلب. فسار ريموند بالفرنج إلى حمص، واضطر صلاح الدين لرفع الحصار والسير نحو الجنوب فوصل إلى حماه، ثم إلى الرستن، فلما علم الفرنج بقربه رحلوا. وتقدم صلاح الدين من حمص إلى بعلبك، فملكها.

كان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين قد أرسل إلى ابن عمه سيف الدين غازي يستنجده على صلاح الدين، لما بلغه استيلاء صلاح الدين على دمشق وحمص وحماه، فجمع سيف الدين غازي جيشه وسار إلى حلب، حيث انضم إليه جيش حلب. وسار لقتال صلاح الدين الذي عمل عندما علم بتحرك جيش الجزيرة وجيش حلب، على ارسال رسالة إلى سيف الدين عرض فيها تسليم حمص وحماه مقابل احتفاظه بدمشق، ولكن سيف الدين لم يجب إلى ذلك، وقال:

«لا بد من إعادة جميع ما أخذ من بلاد الشام، والعود إلى مصر».

وكان صلاح الدين يعمل خلال ذلك على حشد قواته والاستعداد للحرب، فلما أنهى استعداداته، سار لقتال سيف الدين، والتقى به بالقرب من مدينة حماه، بموضع يقال له قرون حماة ودارت معركة قاسية انتصر فيها صلاح الدين، وغنم معسكر خصمه وما احتواه من الغنائم الكثيرة والأسلحة العظيمة، والخيول الفارهة. وعاد المنهزمون إلى حلب.

ومنح صلاح الدين جيشه فترة قصيرة للراحة، ثم سار به إلى حلب، فنازلها وحاصرها وقاتل أهلها. وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح، وأزال اسمه عن السكة ـ النقود ـ في بلاده. ودام محاصراً لهم. فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام. ولهم ما بأيديهم منها،

فأجابهم إلى ذلك. وانتظم الصلح. ورحل عن حلب، فلما وصل إلى حماه، وصلت إليه خلع الخليفة مع رسوله.

عندما رجع سيف الدين غازي إلى الموصل، أعاد تنظيم قواته، وفرق الأموال في جنده، واستنجد بامراء ماردين وحصن كيفا وسواهما، فأمكن لهم حشد ستة آلاف فارس. فسار سيف الدين بهم إلى نصيبين، وأطال المقام حتى انقضى الشتاء، وضجر العسكر، ونفدت نفقاتهم، وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر، لما كانوا يتوقعونه ان ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة. ثم سار إلى حلب، فنزل إليه مدبر دولة الملك الصالح (سعد الدين كمشتكين) ومعه جيش حلب. وكان صلاح الدين في قلة من الجند لأنه كان صالح الفرنج في المحرم من هذه السنة (٥٧١ هـ = ١١٧٥ م) وسير جنده إلى مصر. فأرسل يستدعيهم. فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه. لكنهم تريثوا وتأخروا عنه، فجاءته قواته. فسار من دمشق إلى ناحية حلب. فالتقى الجيشان عند تلّ السلطان على طريق حماه - وعلى بعد مرحلة من حلب -. وكان سيف الدين قد سبقه. فلما وصل صلاح الدين كان وصوله وقت العصر، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة. فأشار جماعة على سيف الدين بقتالهم وهم على هذا الحال، ولكن مقدم جيش الموصل - عزّ الدين محمود ويعرف باسم زلفندار - عارض ذلك وقال: «ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة غداً بكرة نأخذهم كلهم». فلما أصبحوا اصطفوا للقتال، فجعل زلفندار أعلامهم في وهدة من الأرض لا يراها إلا من هو بالقرب منها. فلما لم يرها الناس ظنوا أن السلطان سيف الدين قد انهزم، فلم يثبتوا، وانهزموا ولم يلو أخ على أخيه. ولم يقتل بين الفريقين على كثرتهم غير رجل واحد. وسار سيف الدين إلى حلب وترك فيها قوة بقيادة أخيه عزّالدين مسعود، لدعم الملك الصالح، وعاد إلى الموصل. وأما صلاح الدين، فإنه لما استولى على أثقال جيش الموصل، سار إلى بزاغة فاستولى عليها، كما استولى على منبج، وسار منها إلى إعزاز فحاصرها وضيق عليها، ونصب عليها المنجنيقات، وبينما صلاح الدين يوماً في خيمة لبعض أمرائه، إذ وثب عليه باطني - اسماعيلي - فضربه بسكين في رأسه فجرحه،

فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله. فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده، ولكنه لم يتمكن من منعه من الضرب تماماً، ولكن ضربات الباطني أصبحت ضعيفة، وبقي الباطني يضرب صلاح الدين في رقبته بالسكين. فكانت الضربات تقع على حافة السترة الواقية ـ الكراغند ـ فتقطعها، ولكن الزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته. وجاء أمير من أمرائه ـ اسمه يازكش ـ فأمسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني، وجاء آخر من الإسماعيلية فقتل أيضاً، وثالث فقتل، وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور، لا يصدق بنجاته، ثم تفقد جنده، فمن عرفه أبقاه في خدمته، ومن أنكره أبعده. ولازم حصار أعزاز ثمانية وثلاثين يوماً، كل يوم أشد قتالاً مما قبله، حتى أذعن أهل أعزاز، وسلموا إليه القلعة.

قاد صلاح الدين جيشه بعد ذلك إلى حلب، وحاصرها، وجد في قتال أهلها. وقاتله أهل حلب بعناد، وصبروا شهراً ونيف، وكثر القتل في الطرفين، إلى أن سارت الرسل في الصلح فتم الاتفاق في العشرين من المحرم (سنة ٥٧٢ هـ = ١١٧٦ م) وشمل الاتفاق الملك الصالح في حلب وسيف الدين في الموصل وصاحب الحصن وصاحب ماردين واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر. وبعد أن تم الصلح، جاءت الأخت الصغرى ـ وكانت طفلة، إلى صلاح الدين، فأكرمها، وحمل لها شيئاً كثيراً. وقال لها: «ما تريدين؟». فقالت: «أريد قلعة أعزاز». وكانوا قد علموها ذلك. فسلمها إليها ورحل إلى قلعة مصياف ـ مصيات ـ لأخذ ثأره من الإسماعيلية الذين أرادوا قتله أكثر من مرة، فنهب بلاد الإسماعيلية. وأرسل سنان مقدم الاسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي ـ صاحب حماه وخال صلاح الدين ـ يتوسطه بالصلح، ويتهدده. واستجاب صلاح الدين لطلب الصلح وقد شعر بأن جنده قد تعبوا لكثرة المشاق. فصرفهم إلى بلادهم. وعاد هو إلى مصر بجيشه.

أفاد الفرنج من هذه الصراعات الداخلية، ومن انصراف المسلمين عنهم، فهاجموا أعمال دمشق، وانتصر جيش دمشق في معركة صغرى كما انتصر الفرنج في معركة مماثلة، فلما كانت السنة التالية (٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م) خرج صلاح الدين بجيشه من مصر بهدف غزو الفرنج، وسار مجداً حتى وصل إلى عسقلان، فأطلق جيشه، فنهبوا

وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا في تلك الأعمال مغيرين، فلما رأوا أن جند الفرنج لم يخرجوا لقتالهم. طمعوا وانبسطوا وساحوا آمنين. ووصل صلاح الدين إلى الرمله عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره، ولم يرعه إلا والفرنج قد أشرفت بأبطالها وفرسانها[1] على جيشه، ولم يكن مع صلاح الدين إلا قوات قليلة، فاشتبكت قوات صلاح الدين مع الفرنج. وقتل عدد من أبطال المسلمين، وانسحب صلاح الدين بقواته مستفيداً من ظلمة الليل، فسار عبر الصحراء إلى مصر. ولقي وجنده في الطريق مشقة شديدة، وقل عليهم القوت والماء. وهلك كثير من دواب العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سير. وأما العسكر الذي كانوا قد دخلوا بلاد الفرنج في الغارة، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير.

وصل في تلك الفترة إلى عكا فيليب كونت ڤلاندر ومعه جيش صغير، وذلك من أجل الحج. وحاول ملك القدس ـ بلدوين ـ وبارونات الفرنج إغراءه لقيادة حملة ضد مصر ولكن فيليب كونت فلاندر رفض كل عروض ملك القدس وإغراءاته. وبعد زيارته للقدس سار إلى طرابلس. وهناك وافق على أن يرافق كونت طرابلس ـ ريمونـد ـ بالهجوم على حماه. وتصدى أهل حماه ـ ومعهم جند صلاح الدين ـ لحملة الفرنج، وقاتلوهم قتالاً شديداً. وهجم الفرنج بعض الأيام على طرف من حماه، وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً. فاجتمع أهل البلد مع العسكر، وساروا إلى تلك الناحية، واشتد القتال، وعظم الخطب على الفريقين، واستقتل المسلمون، وحاموا عن الأنفس والأهل والمال، فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره، ودام القتال ظاهر البلد ليلاً ونهاراً، وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد، وطمعوا فيهم، وأكثروا فيهم القتل، فرحل الفرنج حينئذ خائبين، وساروا إلى حارم فحصروها. وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر، ونصبوا عليها المنجنيقات والسلالم. فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالاً، وقال لهم إن صلاح الدين واصل إلى الشام، وربما يسلم القلعة من بها إليه، فأجابوه حينئذ إلى الرحيل عنها. ورجع فيليب كونت فلاندر إلى بيت المقدس، ليقضي عيد القيامة، ثم استقل من اللاذقية سفينة حملته إلى القسطنطينية.

جمع الفرنج جمعهم من الرجالة والفرسان، وقصدوا مدينة حماه من جديد (سنة

٥٧٤ هـ = ١١٧٨ م) طمعاً في النهب والغارة، فنهبوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا. فلما سمع العسكر المقيم بحماه، ساروا إليهم وهم قليل، متوكلين على الله تعالى، فالتقوا واقتتلوا، وصدق المسلمون القتال، فنصرهم الله تعالى، وانهزم الفرنج، وكثر القتل والأسر فيهم، واستردوا ما غنموه من السواد. وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام، ووصل إلى ظاهر حمص، فحملت الرؤوس والأسلاب إليه فأمر بقتل الأسرى فقتلوا.

عمل ملك الفرنج - بلدوين ملك القدس - على جمع قواته، وسار بها إلى دمشق. فأغار على أعمالها، فنهبها وأسر وقتل وسبى من المسلمين، فأرسل صلاح الدين قوة من جيشه بقيادة ابن أخيه فروخشاه، وأمره أنه إذا قارب الفرنج أن يرسل إليه يخبره - بواسطة الحمام الزاجل - ليسير إليه، وطلب إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدي الفرنج. فسار فروخشاه بمن معه، ولم يشعر إلا والفرنج قد أحاطوا به، فاضطر إلى القتال، فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس، وألقى فروخشاه نفسه عليهم وغشي الحرب ولم يترك القيادة لسواه، فانهزم الفرنج، وانتصر المسلمون عليهم، وقتل من مقدميهم جماعة، ومنهم همفري - سيدتبنين - الذي كان يضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب. وكان بلاء صبّه الله على المسلمين، فأراح الله من شرّه، وقتل غيره من أضرابه ولم يبلغ عسكر فروخشاه ألف فارس. وأثناء ذلك، أغار البرنس صاحب أنطاكية واللاذقية على المسلمين في ريف شيزر، وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان، فأجحف بأموالهم. وكان صلاح الدين على بانياس، فسير ولد أخيه تقي الدين عمر إلى حماه، كما أرسل ابن عمه ناصر الدين محمدٍ بن شيركوه إلى حمص. وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو.

قرر الفرنج تشييد استحكامات متينة على امتداد حدود إمارة دمشق، فتم تحصين تل هونين على الطريق الممتد من بانياس إلى تبنين. وشرع ملك القدس - بلدوين - بتشييد قلعة على المجرى الأعلى لنهر الأردن - بين بحيرة الحولة وبحر الجليل - كما تتحكم في المخاضة التي زعم الفرنج الصليبيون أنه دارت عندها المصارعة بين يعقوب والملاك والتي أطلق عليها الفرنج أيضاً اسم (مخاضة الأحزان). وتعهد الفرنج لصلاح

الدين بألا يقوموا مطلقاً بتحصين موضع العبور ، وأراد ملك القدس الالتزام بما تعهد به لصلاح الدين ، وأن يشيد القلعة في موضع آخر ، غير أن طائفة فرسان الداوية غلبوه على أمره ، وتقدم المسلمون من فلاحين ورعاة أغنام إلى صلاح الدين بالشكوى لما يقوم به الفرنج من نقض للعهود والأيمان ، فعرض صلاح الدين على ملك القدس بلدوين مبلغ ستين ألف دينار ، ثم زادها إلى مائة ألف دينار ليثنيه عن عمله . فلما رفض الملك العرض ، أقسم صلاح الدين بأنه سوف يعمل ما بوسعه لمنعه . وسار بجيشه في سنة ٥٧٥ هـ (ربيع سنة ١١٧٩ م) فألقى الحصار على قلعة مخاضة الأحزان . غير أن استحكاماتها الدفاعية بلغت من القوة والمتانة ما حمله على الارتداد عنها بعد مضي بضعة أيام ، فعسكر أمام بانياس . وأرسل من موقعه هذا قوات للاغارة على الجليل ، وتدمير المحاصيل الزراعية في الأراضي الواقعة بين صيدا وبيروت . فقام الملك بلدوين بحشد كل قوات المملكة ، ودعى ريموندكونت طرابلس للانحياز إليه ، فسارا معاً مجتازين طبرية وصفد إلى تبنين ، حيث علما أن فروخشاه وجماعة من المغيرين ، في طريق عودتهم قادمين من الساحل بغنيمة كبيرة ، فتحركا صوب الشمال لاعتراضهم بوادي مرجعيون - بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن . غير أن صلاح الدين سبق أن شاهد من برج للمراقبة ، على تل يقع شمالي بانياس ، ما حدث على الجانب الآخر من نهر الأردن ، من ذعر قطعان الأغنام وتشتتها ، فأدرك أن جيش الفرنج لا بد وقد اجتاز هذا الموضع ، فنهض لمطاردته . وبينما كان جيش الفرنج يخوض معركته ضد فروخشاه (يوم ١٠ حزيران - يونيو - ١١٧٩) كان الكونت ريموند والداويه يتقدمون نحو نهر الأردن . وظهروا بصورة مباغتة أمام صلاح الدين . فبادر الداوية إلى الاشتباك في القتال على الفور ، غير أن ما قام به صلاح الدين من هجوم عليهم . ردّهم على أعقابهم ، فولوا الأدبار مذعورين إلى جيش الفرنج الذي يقوده الملك بلدوين ، والذي اضطر للارتداد أيضاً ، ولم يلبث الجيش الصليبي بأكمله أن لاذ بالفرار . واستطاع الملك بلدوين والكونت ريموند وبعضاً من قواتها عبور نهر الليطاني واللجوء إلى قلعة شقيف أرنون ، الواقعة على مرتفع على الضفة الغربية ، وتعرض للقتل أو الأسر كل من تبقى من جيش الفرنج وراء نهر الليطاني - بعد التضييق عليهم وحصرهم . على

أن جماعة من الفارين لم يتوقفوا عند قلعة شقيف أرنون، بل مضوا في طريقهم إلى الساحل، فالتقوا برينالد سيد صيدا في عسكره، فأخطروه بأن الوقت قد فات، ولم يسعه إلا العودة، على الرغم من أنه لو استمر في سيره إلى نهر الليطاني، لكان بوسعه أن ينقذ عدداً كبيراً من الفارين الآخرين.

لقد وقع في أسر صلاح الدين عدداً من كبار قادة الصليبيين، منهم مقدم الداوية أودوسانـت أماند - الذي يعتبر تهوره وحماقته السبب الأساسي للهزيمة -. وبلدوين سيد ببنه، وهو سيد الجليل. ولم تلبث كونتيسة طرابلس - والدة هيو - أن افتدته بخمسة وخمسين ألف دينار صوري. وطلب صلاح الدين مائة وخمسين ألف ديناراً، فدية عن بلدوين صاحب ببنة، وهي فدية ملك، نظراً لما كان لبلدوين من أهمية بالغة الشأن عند صلاح الدين. ولم تمض إلا بضعة شهور حتى تم إطلاق سراح بلدوين، مقابل الإفراج عن ألف أسير من المسلمين، فضلاً عن وعده بالتماس المال المطلوب للفدية. وجرى الاقتراح بمبادلة أودو بأحد كبار الأسرى المسلمين. غير أن مقدم الداوية بلغت به الغطرسة أنه لم يقبل بأن يساوي أحد في القيمة. فظل في الحبس بدمشق حتى قضى نحبه في السنة التالية.

عاد صلاح الدين من موقع المعركة إلى بانياس، وتجهز للدخول إلى حصن مخاضة الأحزان ومحاصرته، فسار إليه، وأحاط به، وبثّ العساكر في بلد الفرنج للإغارة، ففعلوا ذلك، وجمعوا من الأخشاب شيئاً كثيراً ليجعله متارس للمنجنيقات. فقال له جاولي الأسدي، وهو مقدم الأسدية ومن أكابر الأمراء:

«الرأي أننا نجربهم بالزحف أول مرة ونذوق قتال من به، وننظر الحال معهم فإن استضعفناهم وإلا فنصب المنجنيقات ما يفوت».

فقبل رأيه، وأمر فنودي بالزحف إليه والجد في قتاله، فزحفوا واشتد القتال، وعظم الأمر، فصعد إنسان من العامة، بقميص خلق، في باشورة الحصن، وقاتل على السور لما علاه، وتبعه غيره من أضرابه، ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة، فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد.

وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية، فألح المسلمون في قتال الحصن خوفاً من وصول الفرنج إليهم، وإزاحتهم عنه. وأدركهم الليل. فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد، ففعلوا. فلما كان الغد وأصبحوا، نقبوا الحصن وعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه، وانتظروا سقوط السور، فلم يسقط لعرضه، وانتظروه يومين، فلم يسقط. فأمر صلاح الدين باطفاء النار التي في النقب، فحمل الماء وألقي عليها فطفئت، وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور وألقوا فيه النار، فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ٥٧٥ هـ (٢٩ - آب - أغسطس - ١١٧٩ م). ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه، وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين، وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الفرنج، وأدخل الباقين إلى دمشق فسجنوا. وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفي أثره وألحقه بالأرض ★.

أرسل ملك القدس - بلدوين - إلى صلاح الدين بطلب عقد الهدنة، وذلك بعد أن قام الأسطول المصري بغارة ناجحة على سفن الفرنج الراسية في ميناء عكا. وبعد أن شنّ المسلمون غارة عنيفة على الجليل. وتحددت الهدنة لمدة سنتين. ووافق صلاح الدين، فوقعها ممثلون عن بلدوين وصلاح الدين في سنة ٥٧٦ هـ (في شهر أيار - مايو - ١١٨٠ م).

لقد كان هدف ملك الفرنج - بلدوين - من عقد هدنة مع صلاح الدين، هو كسب الوقت لإقامة جبهة صليبية قوية ومتماسكة تستطيع مجابهة القوة المتعاظمة للمسلمين، وكان صلاح الدين يحتاج بدوره لمثل هذه الهدنة لإعادة تنظيم جبهته الداخلية. وتوجه - في فصل الخريف - صوب الشمال - إلى الفرات - حيث وقع

★ أكثر الشعراء من مديح صلاح الدين لتدمير حصن مخاضة الأحزان. فقال النشو بن نفاذة:

هلاك الفرنج أتى عاجلاً ... وقد آن تكسير صلبانها.
ولو لم يكن قد دنا حتفها ... لما عمرت بيت أحزانها.

وكذلك قول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي:

أتسكن أوطان النبيين عصبة ... تمين لدى أيمانها وهي تحلف.
نصحتكم والنصح للدين واجب ... ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف.

شجار بين الأمير نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر، الذي أضحى حليفاً لصلاح الدين، وبين السلطان السلجوقي قلج أرسلان، إذ كان نور الدين قد تزوج من ابنة السلطان السلجوقي، غير أنه أهملها، ووقع في غرام فتاة تمتهن الرقص★. وعقد صلاح الدين مجلساً قرب سميساط، وشهد هذا المجلس أمراء الأراتقة، ورسل من قبل السلطان قلج أرسلان، وسيف الدين أتابك الموصل، وروبين صاحب أرمينية، وأقسم جميع الحاضرين على مراعاة السلام بينهم في السنتين التاليتين. وتوجه صلاح الدين بجيشه بعد فراغه من أمر قلج أرسلان إلى بلاد ابن ليون الأرمني، وكان السبب في ذلك هو أن ابن ليون هذا، كان قد استمال قوماً من التركمان المسلمين، وبذل لهم الأموال، وسمح لهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده، وهي بلاد حصينة كلها حصون منيعة، والدخول إليها صعب لأنها مضائق وجبال وعرة. ثم غدر بهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله. ونزل صلاح الدين على النهر الأسود. وبثّ الغارات على بلاده. فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ، فخربه وأحرقه. وعلم صلاح الدين بذلك فأسرع السير إليه، فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات، فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه، فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق من عنده من الأسرى والسبي، وإعادة أموالهم، على أن يعودوا عن بلاده. فأجابه صلاح الدين إلى ذلك،

★ وردت القصة في الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ أحداث سنة ست وسبعين وخمسمائة. كما يلي: «جاء رسول قلج أرسلان إلى صلاح الدين وقال له: أريد أن أقول شيئاً من عندي، ليس رسالة عن صاحبي ـ قلج أرسلان ـ وأحب أن تنصفني. فقال له صلاح الدين: قل. فقال رسول قلج أرسلان: يا مولانا، ما هو قبيح بمثلك وأنت أعظم السلاطين وأكبرهم شأناً أن تسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة، وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية. ما يكون عذرك عند الله تعالى؟ ثم عند الخليفة وملوك الإسلام وكافة العالم؟ وأحسب أن أحداً ما يواجهك بهذا أما يعلمون أن الأمر هكذا؟ الخ...» فقال له صلاح الدين: «والله الحق بيدك. وان الأمر لكما تقول. اجتمع أنت به وأصلح الحال بينكم على ما تحبون، وأنا أعينكم عليه وأقبح فعله». ومضى الرسول. وتم الصلح، وتعهد صاحب حصن كيفا ـ نور الدين ـ باخراج المغنية بعد سنة، وصرفها، ونفذ تعهده عند حلول الأجل المتفق عليه.

واستقر الحال، وأطلق الأسرى، وأعيدت أموالهم. وعلم صلاح الدين بوفاة أخيه شمس الدولة نورانشاه بن أيوب ـ في الاسكندرية، فرجع مسرعاً إلى مصر، بعد أن استخلف بالشام ابن أخيه عزّ الدين فروخشاه ـ أو فرخشاه ـ.

لقد استطاع صلاح الدين تنظيم جهاز جاسوسية دقيق ومحكم أمكن له بواسطته معرفة ما كان يجري على جبهة الفرنج من نزاعات وصراعات داخلية. وتوافرت له المعلومات عن تداعي سلطة امبراطورية الروم ـ البيزنطيين ـ وتمزقها. مما أبهج أمير أرمينية وانطاكية، واحتفلا بزوال ضغط بيزنطة بأن تشاجر كل منهما مع الآخر. إذ ما كاد أمير انطاكية بوهمند الثالث يعلم بوفاة الامبراطور البيزنطي ـ مانويل (في ٢٤ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١١٨٠ م) حتى افترق عن زوجته اليونانية، كما يتزوج من امرأة خليعة من أنطاكية اسمها سبيللا، ومع أن بطريرك انطاكية ـ ايمري ـ لم يكن راضياً عن زواج بوهمند من اليونانية، إلا أنه ارتاع لارتكاب جريمة الزنا، فقطع بوهمند من الكنيسة، وفرض الحرمان الديني على مدينة أنطاكية، وتوافر لنبلاء أنطاكية من الأسباب ما يحملهم على كراهية سبيللا، إذ كانت جاسوسة تتقاضى دخلاً من صلاح الدين مقابل ما تقدمه من معلومات عن قوة جيوش الفرنج وتحركاتها. وقام هؤلاء النبلاء بمساندة البطريرك ايمري. واندلعت الحرب الأهلية. وابتهج صلاح الدين لما وقع بين امراء الفرنج في الشمال. إذ لم يعد باستطاعة الروم، ولا فرنج الشمال، أن يقوموا بأي عمل مزعج لإمارات المسلمين.

كان لزاماً على مملكة بيت المقدس، في هذه الأحوال، أن تحافظ على الهدنة التي وقعت على وثيقتها (سنة ٥٧٦ هـ) وأن تتمسك بها قدر المستطاع ـ غير أن رينالد شاتيون الذي كان وقتئذ سيداً على إقطاع إقليم ما وراء الأردن وعاصمته الكرك ـ والذي وصفته المصادر الإسلامية بقولها: «كان البرنس أرناط صاحب الكرك من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين»★ لم يكن بوسعه أن يفهم كل سياسة تتعارض مع رغباته. فبمقتضى شروط الهدنة، أضحى للتجار المسلمين

★ الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٧٦ هـ.

والمسيحيين الحرية في أن يجتاز كل من الجانبين بلاد الجانب الآخر. على أن رينالد ساءه أن يرى القوافل التجارية الإسلامية الوافرة الثروة وهي تسير مطمئنة آمنة قرب إقطاعه. ففي سنة ٥٧٧ هـ = ١١٨١ م، استجاب رينالد لداعي الاغراء، فقاد قواته صوب الشرق، وقد عزم على المسير في البرّ إلى تيماء، ومنها إلى مدينة النبي ﷺ، للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة، فلما وصل إلى قرب واحة تيماء، انقض على قافلة كانت تسير مطمئنة إلى مكة المكرمة، واستولى على كل ما تحمل من السلع التجارية. ولعله فكر أيضاً في المضي لمهاجمة المدينة، غير أن نائب صلاح الدين في دمشق - فروخشاه - سارع إلى حشد جيش دمشق، وسار إلى نواحي إمارة الكرك ونهب بلاده وخربها، وعاد إلى طرف بلادهم، فلما علم رينالد شاتيون بذلك أسرع بالعودة إلى إقطاعه. وأقام فروخشاه ليمنع البرنس رينالد من المسلمين. فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر، علم البرنس أن المسلمين لا يعودون حتى تفرق جمعه، وانقطع طمعه من الحركة، فعاد فروخشاه إلى دمشق.

قدم صلاح الدين احتجاجاً إلى ملك القدس - بلدوين - عن نقض اتفاقية الهدنة، وطلب التعويض. وأقر الملك بلدوين عدالة الاحتجاج. وعلى الرغم من محاولة - رينالد شاتيون - عرض وجهة نظره والدفاع عنها، فانه رفض أداء كل ما يصلح سلوكه أو يقومه. ولقي رينالد من التأييد من أصدقائه في حاشية الملك ما حمل بلدوين الضعيف على تجاهل الموضوع. لكن صلاح الدين لم يتجاهله، وحرص على متابعته، وحدث بعد بضعة شهور أن ساءت الأحوال الجوية، فأرغمت قافلة من السفن كانت تقل ألفاً وخمسمائة حاج صليبي على الجنوح الى الأراضي المصرية قرب دمياط، دون أن تعلم ما حدث من انتهاك للهدنة. فأمر صلاح الدين بتكبيلهم جميعاً بالأغلال. ثم أرسل إلى بلدوين يعرض عليه استعداده لإطلاق سراحهم عند ردّ المتاجر التي نهبها رينالد، ولكن رينالد رفض للمرة الثانية أن يعيد شيئاً. فأضحت الحرب أمراً لا مفر منه.

لقد ارتبط ذلك بحدوث تطورات داخلية على جبهة الشام، استدعت بدورها قدوم صلاح الدين إليها. فقد توفي أمير الموصل سيف الدين غازي بن مودود (سنة ٥٧٦ هـ) ولحق به في السنة التالية صاحب حلب (الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين

محمود)★. وظهر احتمال تفكك الأسرة الزنكية أو تجدد محاولاتها للسيطرة على بلاد الشام. إذ ما كاد ينتشر نبأ وفاة الملك الصالح اسماعيل حتى هرب تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين من مدينة منبج إلى مدينة حماه. ولكن حماه بدورها أعلنت ثورتها على الحكم الأيوبي وولاءها للزنكيين، واستدعت الحاكم الجديد لحلب - عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي - لتسليمه البلد. فأشار عسكر حلب على عزّ الدين بقصد دمشق. وأطمعوه في غيرها أيضاً من بلاد الشام التي آلت إلى حكم صلاح الدين، وأعلموه محبة أهلها له وللزنكيين، ولكنه امتنع عن كل تحرك وقال: «بيننا وبين صلاح الدين يمين، فلا نغدر به». ولما كان أجل الهدنة يقترب من نهايته فقد كان لزاماً على صلاح الدين التحرك قبل انتهاء الهدنة لمجابهة المستجدات.

★ الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود (٥٥٨ - ٥٧٧ هـ = ١١٦٢ - ١١٨١ م). توفي وعمره تسع عشرة سنة، مرض واشتد مرضه، ووصف له الأطباء شرب الخمر للتداوي. فقال: «لا أفعل» واستفتى الفقهاء فأفتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك. فقال له: «أرأيت إن قدر الله تعالى بقرب الأجل أيؤخره شرب الخمر». فقال الفقيه: لا فرد عليه الملك الصالح: «والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه عليَّ» ولم يشربه. فلما أيس من نفسه، أحضر الأمراء وسائر الأجناد، ووصاهم بتسليم حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، واستحلفهم على ذلك. فقال له بعضهم: «إن عماد الدين بن عمك أيضاً، وهو زوج أختك، وكان والدك يحبه ويؤثره، وهو تولى تربيته. وليس له غير سنجار. فلو أعطيته حلب لكان أصلح. وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همذان، ولا حاجة به إلى بلدك» فردّ عليهم الملك الصالح: «إن هذا لم يغب عني. ولكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام - سوى ما بيدي - ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام. وعز الدين أقدر على حفظها».

١٠ ـ نادت الشام، فوداعاً يا مصر

نادت الشام نداءها، وخرج صلاح فلبى النداء، وأقام خيمته بظاهر القاهرة حتى تجتمع العساكر والناس عنده وأعيان دولته وأرباب الآداب، فمن بين مودع له، وسائر معه وكل منهم يقول شيئاً في الوداع والفراق، وما هم بصدده من السفر، وكان في الحاضرين معلم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين، وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه، وتطير، وتنكد المجلس على الحاضرين. وصدقت نبوءة المعلم. فلم يعد صلاح الدين إلى مصر إلى أن مات، مع طول المدة بين خروجه من مصر وبين وفاته.

أنهى صلاح الدين استعداداته، وغادر مصر يوم ٥ محرم ٥٧٨ هـ (١١ ـ أيار ـ مايو ـ ١١٨٢) وتبعه من التجار وأهل البلاد، ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام، وغيره عالم كثير. فلما سار جعل طريقه على أيلة، فسمع أن الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير. فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق، وبقي هو في العساكر المقاتلة لا غير، فشن الغارات بأطراف بلادهم ـ وأكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك. وكان حاكم دمشق ـ فروخشاه ـ قد علم بأن الفرنج قد جمعوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك. بالقرب من الطريق الذي سيسلكه صلاح الدين، لعلهم ينتهزون فرصة أو يظفرون بنصرة، وربما أعاقوا المسلمين عن الوصول إلى دمشق، بأن يقفوا على بعض المضايق. وبذلك خلت بلادهم من ناحية الشام. فجمع فروخشاه جيش الشام، وقصد بلاد الفرنج ـ في الجليل ـ وأغار عليها، ونهب دبورية وما يجاورها من القرى وأسر الرجال وقتل وأكثر، وسبى النساء، وغنم الأموال، وظفر بعشرين ألف رأس من

الماشية ـ. وهاجم أثناء عودته حصن حبيس جلدك، المنحوت في الصخرة التي تطل على نهر اليرموك وراء نهر الأردن وشق فروخشاه نفقاً في الصخرة فأضحى الحصن تحت رحمته، ولما لم تكن حامية الحصن المؤلفة من نصارى البلاد، حريصة على أن تموت من أجل قضية الفرنج، فانها بادرت الى التسليم. وأرسل فروخشاه إلى صلاح الدين بالبشاره، ولقيه في الطريق، ففت ذلك في عضد الفرنج، وانكسرت شوكتهم. وسار صلاح الدين وفروخشاه إلى دمشق، حيث أمضى صلاح الدين فيها ثلاثة أسابيع، لاعطاء جنده قسطاً من الراحة، ثم سار بهم إلى طبرية ـ ونزل بالقرب منها، وخيم في الأقحوانة من الأردن. فسار ملك القدس بجيشه بعد أن استدعى البطريرك والصليب المقدس، ليبارك أسلحته وجيوشه. واتجه إلى الضفة الغربية لنهر الأردن. فوجه صلاح الدين قوة بقيادة ابن أخيه فروخشاه إلى بيسان، فدخلها قهراً، وغنم ما فيها وقتل وسبى، وشنّ غارة شعواء على الغور، فعم أهله قتلاً وأسراً، وجاءت العرب فأغارت على جنين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا عكا. ووصل جيش الفرنج بقيادة ملك القدس بلدوين إلى سفح الجبل الذي تتربع عليه قلعة كوكب الهوى. فأرسل إليهم صلاح الدين الرماة ليرموا عليهم بالنشاب، فلم يبرحوا ولم يتحركوا لقتال. فأمر ابني أخيه: تقي الدين عمر وعزّالدين فروخشاه، فحملا على الفرنج فيمن معهما، فقاتلوا قتالاً شديداً. ثم إن الفرنج انحازوا غلى حاميتهم. فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم. عاد عنهم إلى دمشق، ولم يتوقف فيها إلا لفترة قصيرة. وانطلق منها إلى بيروت بعد أن أمر أسطوله بمصر ـ بواسطة الحمام الزاجل، بالتقدم إليها، فنهب بلدها وحصرها براً وبحراً عدة أيام. وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها، فأتاه الخبر وهو عليها بأن الفرنج قد حشدوا أسطولهم في ميناء عكا وفي ميناء صور، واتجهوا إلى مياه بيروت، فأمر أسطوله بالعود إلى مصر. ورفع الحصار عن بيروت. ولما كانت الهدنة مع أمراء الشمال ـ الزنكيين ـ قد انتهت وانقضى أجلها، فقد سار صلاح الدين بجيشه، وتظاهر أنه يريد السير إلى حلب، ولكنه انحرف فجأة وتحرك إلى الفرات، فعبره عند البيرة، فهوت أمامه مدن الجزيرة: الرها وسروج ونصيبين. ثم مضى في سيره إلى الموصل، وشرع في منازلة المدينة التي صمدت وقاومت.

وارتاع الخليفة الناصر لما حدث من صراع بين المسلمين (الزنكيين والأيوبيين) فحاول التفاوض في أمر الصلح، وتجهز شاه أرمن السلجوقي وأمير ماردين لإرسال قوة لانقاذ الموصل، فانسحب صلاح الدين إلى سنجار، وهاجمها وفتحها بعد حصارها لمدة اسبوعين. وتابع فتوحاته فاستولى على ديار بكر - أكبر حصون الجزيرة وأوفرها ثروة وبها أروع مكتبة في العالم الإسلامي. وأعاد تنظيم أمور الجزيرة. وأفاد الفرنج من ابتعاد صلاح الدين في الشمال فساروا نحو دمشق، ونهبوا القرى، ووصلوا إلى قرية داريا القريبة من دمشق، وأرادوا تخريب جامعها - ذو الشهرة الذائعة - فأرسل نائب صلاح الدين في حكم دمشق وفداً من النصارى لمقابلة ملك الفرنج - بلدوين - وابلاغه:

«إنكم ان أخربتم الجامع جددنا عمارته، وأخربنا كل بيعة - كنيسة - لكم في بلادنا. ولا نمكن أحداً من عمارتها».

فتركوه. وعلم صلاح الدين بهجوم الفرنج، فلم يرجع، وقال:

«يخربون قرى، ونملك عوضها بلاداً، ونعود نعمرها، ونقوى على قصد بلادهم».

أفاد صاحب الكرك أرناط - رينالد شاتيون - من هذا الموقف، وشرع في تنفيذ حلم طالما راوده، وهو الهجوم على الديار المقدسة، وكان قد صنع اسطولاً من السفن في الكرك، ولم يبق إلا جمع قطعه بعضها إلى بعض، فحملها إلى بحر إيلة - ايلات - وجمعها في أسرع وقت، وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة، وسيرها، فساروا في البحر وافترقوا فرقتين: فرقة قامت على حصن إيلة يحصرونه ويمنعون أهله من ورود الماء، فنال أهله شدة شديدة، وضيق عليهم، وأما الفرقة الثانية، فانها سارت إلى عيذاب. وأفسدوا في السواحل. ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار. **وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً - لا تاجراً ولا محارباً -.**

وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب، ينوب عن أخيه صلاح الدين، فعمر

أسطولاً، وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين **ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب**، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفراً فيه، شجاعاً كريماً. فسار حسام الدين لؤلؤ مجداً في طلبهم، فابتدأ بالذين على إيلة، فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده، فقاتلهم، فقتل بعضهم، وأسر الباقي. وسار من وقته بعد الظفر، بقص أثر الذين قصدوا عيذاب، فلم يرهم، وكانوا قد أغاروا على ما وجدوه بها، وقتلوا من لقوه عندها وساروا إلى غير ذلك المرسى، ليفعلوا كما فعلوا فيه.

وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز - مكة والمدينة - حرسها الله تعالى، وأخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام، والدخول بعد ذلك إلى اليمن. فلما وصل لؤلؤ إلى عيذاب ولم يرهم، سار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وغيرهما، فأدركهم بساحل الجوزاء، فأوقع بهم هناك، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك، خرجوا إلى البر، واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم، وقاتلهم أشد قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك، فركبها وقاتلهم فرساناً ورجالة - مشاة - فظفر بهم وقتل أكثرهم. **وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها - عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا جميعهم.**

تتابعت الأنباء على صلاح الدين تحمل إليه الأخبار السيئة، ومنها وفاة ابن أخيه أمير دمشق (عز الدين فروخشاه) - في جمادي الأول من السنة ذاتها (٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م) فلم يصرفه شيء عن هدفه، وأعاد - شمس الدين محمد بن المقدم - إلى حكم دمشق، ومضى هو بجيشه إلى آمد، وأمكن له الاستيلاء عليها (في العاشر من محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة = ١١٨٣ م). واستولى بعدها على تل خالد وعينتاب. ولم يلبث أن استولى على (حلب وحارم) أيضاً★.

وبذلك أصبح صلاح الدين حاكماً على البلاد - ما بين برقة غرباً ونهر دجلة والفرات شرقاً، وخضعت لحكمه المدن الكبرى الثلاث: القاهرة ودمشق

★ انظر، قلعة حلب، قلعة حارم - في الفصل الثاني.

وحلب. ولقي صلاح الدين التأييد من الخليفة العباسي ببغداد، وسعى سلطان السلاجقة ببلاد الأناضول (آسيا الصغرى) إلى كسب صداقته، ولم يكن لامراء السلاجقة بالشرق من القوة ما يدفعهم إلى مقاومته. ولم تعد الامبراطورية البيزنطية مصدر خطر له. ولم يتبق له سوى أن يقهر الدخلاء - الفرنج الصليبيين - الذين صاروا وصمة عار في جبين الإسلام، بتملكهم فلسطين وساحل بلاد الشام.

وقعت خلال هذه السنة معركتان كان فيهما الظفر للمسلمين، فقد خرج اسطول المسلمين من مصر، وأوغل في البحر، فلقوا سفينة عليها ثلثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل، فقاتلوهم، وصبر الفريقان. وكان الظفر للمسلمين، وأخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم، واحتفظوا ببعضهم أسرى وغنموا ما معهم، وعادوا إلى مصر سالمين. وحدث أيضاً أن سارت مجموعة كبيرة من مقاتلي الفرنج من نواحي الداروم وهدفهم الوصول إلى مصر للإغارة والنهب، فعلم بهم المسلمون، فخرجوا إليهم على طريق صدر وإيلة، فانتزح الفرنج من بين أيديهم، ونزلوا بماء يقال له - العسيلة - وسبقوا المسلمين إليه. فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة، فمطروا منها حتى رووا. وكان الزمان قيظاً والحر شديد في برّ مهلك، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله لهم، وقاتلوا الفرنج، فنصرهم الله عليهم، فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله تعالى.

ما إن فرغ صلاح الدين من أمر حلب، حتى جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي - وهو صبي - وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج، وكان أكبر الأمراء عنده، وسار إلى دمشق ومعه جند الشام والجزيرة وديار بكر، ثم سار إلى الفرنج فعبر نهر الأردن (يوم ٩ جمادى الآخرة ٥٧٩ هـ=١١٨٣ م) فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بيسان فأحرقها وخربها، وأغار على ما هناك، فاجتمع الفرنج، وأقاموا معسكرهم في مواجهته، فحين رأوا كثرة جنده لم يقدموا عليه، فأقام عليهم

بالسهام وتناوشهم القتال، فلم يخرجوا، وأقاموا على ذلك خمسة أيام. ثم عاد المسلمون عنهم على أمل إغراء الفرنج بالخروج للقتال واستدراجهم. فلما رأى الفرنج انسحاب المسلمين، لم يطمعوا في الوصول إليهم. ورجع صلاح الدين وجيشه إلى دمشق، حيث منح جنده فترة قصيرة للراحة، وللاستعداد وكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب - وهو نائبه بمصر - يأمره بالخروج بجميع جنده إلى الكرك، وسار هو بجنده إلى الكرك، وكثر جمعه، وتمكن من حصره.

كانت الكرك يومها تحتفل بعقد قران الأميرة ايزابيلا التي بلغت وقتذاك الحادية عشرة من عمرها، على همفري سيد تبنين الذي كان يناهز سبع عشرة سنة من العمر. وعزم رينالد شاتيون على أن يهيء كل ما يستطيع من مظاهر الفخامة والأبهة للاحتفال بالعرس في قلعته بالكرك، والتي تعتبر العروس وريثة لها. فأخذت الضيوف تتوافد على القلعة. ومع أن عدداً كبيراً من هؤلاء الضيوف - مثل ملكة القدس ماريا كومنينا والدة العروس - كانوا أعداء شخصيين لرينالد شاتيون، فإنهم قدموا لحضور العرس على أمل بذل محاولة أخيرة لرأب الصدع بين أمراء الفرنج وقادتهم - مقدميهم - وتبع هؤلاء الضيوف أرباب الملاهي من الراقصات والحواة والموسيقيين من سائر امارات الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. غير أن هذه الاحتفالات عطلها فجأة ما ورد من أنباء مزعجة عن اقتراب صلاح الدين بجيشه من الكرك.

لقد أصبح تدمير الكرك وقائدها الجاحد هو الهدف الأول في مخططات صلاح الدين. إذ طالما بقي الحصن الضخم في يد رينالد شاتيون، فإن باستطاعته اعتراض الطريق الذي تسلكه القوافل التجارية ما بين الشام ومصر. ويظهر أن الفرنج الصليبيين كانوا يتوقعون هجوم المسلمين، ولهذا فعندما وصل جيش صلاح الدين ولحق به جيش أخيه العادل الذي قدم من مصر، أسرع الفلاحون والرعاة من المسيحيين السوريين فاقتادوا أغنامهم ومواشيهم ودخلوا بها إلى المدينة، ولاذ عدد كبير منهم بفناء القلعة. فبادر صلاح الدين على الفور إلى مهاجمة المدينة السفلى، وشق لنفسه منفذاً إليها. ولم يستطع رينالد شاتيون أن يفلت إلى القلعة إلا بفضل بطولة أحد فرسانه الذي ظلّ يقاتل بمفرده للدفاع عن الجسر القائم على الخندق الذي يفصل بين المدينة السفلى

والقلعة، حتى تم تدمير ما يقع من الجسر وراء ظهره. وأمر صلاح الدين بنصب المنجنيقات على ربضه. واشتد القتال، فملك المسلمون الربض، وبقي الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد، إلا أن بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً. فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه - يردمه - ولكن أحداً لم يتمكن من الاقتراب منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام والأحجار من المنجنيقات، فأمر أن يبني بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال من السير تحت السقائف لالقاء ما يردم الخندق، فيما كانت المنجنيقات التسعة للمسلمين تتابع الرمي باستمرار - في الليل والنهار -.

وأثناء ذلك، استمرت احتفالات العرس تجري بداخل القلعة، ولم ينقطع الرقص ولا الغناء، وأعدت والدة العريس ستيفاني أطباقاً من طعام العرس وبعثت بها إلى صلاح الدين، الذي أرسل مقابل ذلك يسأل عن أي الأبراج ينزل بها العروسان. وأصدر أمره بألا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار. وفيما عدا ذلك لم يخفف جهوده.

وأرسل الفرنج المحصورين بالكرك الى الملك بلدوين بالقدس يستمدونه ويطلبون منه المعونة العاجلة، ويعرفونه عجزهم عن حفظ القلعة، وما هم به من ضعف، فاستدعى بلدوين الجيش الملكي، وأسند قيادته إلى كونت طرابلس ريموند، وأصر على أن يحمل على محفة كيما يبقى مع رجاله - إذ كان وقتها مريضاً للغاية - وأسرع الفرنج - فارسهم وراجلهم - بالهبوط متجاوزين أريحا، ثم ارتقوا جبل النبي★. ولما علم صلاح الدين بمسيرهم رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلقاهم ويشتبك معهم ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك. فقرب منهم، وخيّم ونزل، ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسلك إليهم وضيقه، وأقام ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم، فلم يبرحوا منه خوفاً على نفوسهم. فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ. وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم. فساروا ليلاً إلى الكرك. فلما علم صلاح الدين ذلك

★ جبل النبي: هو الجبل الذي يقع على بعد اثني عشر ميلاً من مصب نهر الأردن، وتشير الروايات إلى أن النبي موسى عليه السلام قد توفي على هذا الجبل.

وقد استندوا إلى جبل هناك وخندقوا عليهم. فأحاط بهم، وجند المسلمين ترميهم علم أنه لا يتمكن حينئذ منهم، ولا يبلغ غرضه، فسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل إلى نابلس أحرقها وخربها وقتل فيها وأسر وسبى وأكثر.

توجه صلاح الدين من جديد لمنازلة حصن الكرك في صيف السنة التالية (٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م). وانحاز إلى جيشه كتائب بعث بها الأمراء الأراتقة، غير أن الاستحكامات الضخمة للكرك صمدت للحصار. ولم يتمكن صلاح الدين من إغراء الفرنج بالخروج للقتال على المنحدرات أسفل المدينة. وأدرك صلاح الدين أن الوقت لم يحن بعد للتخلص من المسيحيين، فعاد إلى دمشق، بعد أن ترك قوة للإغارة على الجليل، ولتمضي في نهب البلاد الواقعة إلى الجنوب حتى نابلس.

أدرك الفرنج الصليبيون ما حدث من تحولات في غير مصلحتهم، بسبب تماسك الجبهة الإسلامية مقابل تمزق الجبهة الداخلية للفرنج الصليبيين، وتزايد الصراعات بين الأمراء والبارونات، مع استنزاف قدرة الفرنج في الحروب المستمرة، فتم تشكيل وفد للذهاب إلى أوروبا من أجل استنفار القوى وتوجيه حملة صليبية جديدة، وضم الوفد بطريرك القدس - هرقل - ومقدما طائفتي فرسان الداوية والاسبتارية. واستقبل امبراطور الغرب - فريدريك الأول - وملك فرنسا هنري الثاني الوفد بكل مظاهر الحفاوة والتشريف. وعندما قدم هذا الوفد بياناً بما ينتظر الإمارات الصليبية في الشام من الأخطار، وما تتعرض له من التهديدات، التمس عاهلا الغرب الاعذار التي تمنعهما من الاشتراك في الحملة التي لم تتمكن من حشد سوى عدد قليل من الفرسان.

واجتمع كل امراء الفرنج وقادتهم في القدس (سنة إحدى وثمانين وخمسمائة - أيار - مايو - ١١٨٥) بمناسبة موت ملك القدس بلدوين وتنصيب جاي لوزنجيان ملكاً جديداً. وتبين للجميع أنه ما لم تقدم حملة صليبية ضخمة، فليس بوسع مملكة تكاد تهلك جوعاً أن تواجه الحرب. فوافقوا على اقتراح كونت طرابلس - ريموند - بأن يلتمسوا من صلاح الدين عقد هدنة لمدة أربع

سنوات. ووجد صلاح الدين أن من مصلحة المسلمين عقد مثل هذه الهدنة في تلك الفترة. فوافق عليها. وتقرر من جديد استئناف التجارة بين إمارات الفرنج وما يجاورها من بلاد المسلمين، وما تدفق من القمح من بلاد المسلمين هو الذي أنقذ الفرنج الصليبيين من الهلاك جوعاً.

أفاد صلاح الدين من الهدنة لتسوية بعض أمور جبهته الداخلية، فتوجه إلى حلب، ومنها الموصل. لكنه عندما وصل إلى (حران) أصابه مرض شديد، حتى أيس أهله من عافيته، فحلف الناس لأولاده، وجعل لكل منهم شيئاً من البلاد معلوماً. وجعل أخاه الملك العادل وصياً على الجميع، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق بعد أن ملك ميافارقين. وشعر صلاح الدين خلال مرحلة مرضه، وبعد أن عوفي، بالحاجة لإعادة تنظيم مملكته فنقل أخاه الملك العادل من حلب إلى مصر ـ ومعه الملك العزيز، ونقل أخاه الأفضل من مصر إلى دمشق.

عاد بعض الرخاء إلى فلسطين بفضل الهدنة التي انعقدت بين الفرنج وبين المسلمين، إذ نشطت من جديد التجارة بين داخل البلاد وبين مينائي عكا وصور. وظهر أن المنطقة مقبلة على فترة من الهدوء، عندما تلبدت السحب القادمة من سماء إمارات الفرنج.

لقد كان من المعروف ـ للمسلمين ـ ما كان بين الفرنج من صراعات ومنافسات زاد من حدتها ما برع به بطريرك القدس ـ هرقل ـ وملكة القدس سبيللا من حبك للمؤامرات والتي أدت إلى دفع كونت طرابلس ـ ريموند ـ للتحالف مع صلاح الدين (سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م أيضاً). وقد وردت قصة هذا التحالف في المصادر العربية كما يلي:

«كان القمص صاحب طرابلس ـ واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلي ـ قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية. وانتقل إليها، وأقام عندها بطبرية. ومات ملك الفرنج بالشام، وكان مجذوماً، وأوصى بالملك إلى ابن أخت له. وكان صغيراً، فكفله القمص ريمند، وقام بسياسة الملك وتدبيره، لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأناً ولا

أشجع ولا أجود رأياً منه، فطمع في الملك بسبب هذا الصغير، فاتفق أن الصغير، فانتقل الملك إلى أمه ـ سبيللا ـ فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به. ثم إن هذه الملكة هويت رجلاً من الفرنج الذين قدموا الشام اسمه كي ـ جاي ـ فتزوجته ونقلت الملك إليه، ووضعت التاج على رأسه. وأحضرت البطرك ـ هرقل الذي كان عشيق أمها ـ والقسوس ومقدمي الاسبتارية والداوية والبارونية، وأعلمتهم أنها قد ردّت الملك إليه، وأشهدتهم عليها بذلك، فأطاعوه ودانوا له، فعظم ذلك على القمص ـ ريموند ـ وسقط في يديه، وطولب بحساب ما جبى من الأموال مدة ولاية الصبي، فادعى أنه أنفقه عليه. وزاده ذلك نفوراً. وجاهر بالمشاققة والمباينة. وراسل صلاح الدين وانتمى إليه واعتضد به، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج. ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك، ووعده النصرة والسعي له في كل ما يريد. وضمن له أنه يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة. وكان عنده جماعة من الأسرى من فرسان القمص، فأطلقهم، فحل ذلك عندهم أعظم محل. وأظهر طاعة صلاح الدين، ووافقه على خطأ ما فعل جماعة من الفرنج، فاختلفت كلمتهم، وتفرق شملهم».

كان من الأفضل للفرنج، في مثل ما كانت عليه حالهم، أن يلتزموا بشروط الهدنة التي عقدوها مع المسلمين. وهي الهدنة التي ضمنت حماية القوافل التجارية بالتنقل بحرية وأمن ما بين القاهرة ودمشق. ولكن حدث في نهاية سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م أن ارتحلت قافلة ضخمة من القاهرة تحت حراسة قوة صغيرة من جند مصر ـ لحمايتها من إغارات البدو ـ وبينما كانت تتجه إلى مؤاب، انقض عليها رينالد شاتيون بصورة مباغتة، فقتل جند الحراسة، وحمل إلى قلعته بالكرك التجار وعائلاتهم وما في حوزتهم من الأمتعة. وتجاوزت الغنيمة في الضخامة كل ما سبق أن حازه. وأظهر صلاح الدين حرصه على مراعاة شروط الهدنة عندما بلغته أنباء الاعتداء على القافلة. وأرسل إلى رينالد شانيون طلباً لاطلاق سراح جميع الأسرى، وتقديم تعويض عن خسائرهم. ولكن رينالد شاتيون رفض استقبال رسل صلاح الدين. فتوجهوا إلى القدس، ورفعوا شكواهم واحتجاجهم إلى الملك جاي.

واستمع جاي للشكوى، وأمر رينالد شاتيون بأداء التعويضات، غير أن رينالد لم

يحفل بأمر الملك، لما يعلمه بأن الملك جاي يدين إلى مساندته في اعتلاء العرش والاحتفاظ به. ولم يكن بوسع جاي أن يفرض على رينالد شاتيون أن يطيعه. فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به ـ وكان هذا النذر هو النذر الثاني، إذ سبق لصلاح الدين أن أقسم على قتل رينالد شاتيون إن أظفره الله به، يوم قام بالعدوان على الأماكن المقدسة.

أصبح وقوع الحرب أمراً لا مفر منه بعد أن تم انتهاك الهدنة بمثل هذه الصورة الوقحة. فأسرع كونت طرابلس ـ ريموند ـ لعقد هدنة مع صلاح الدين شملت إمارة زوجته بالجليل، وذلك على الرغم من أن السيادة على الجليل كانت تابعة لملك القدس جاي ـ. كما أسرع أمير انطاكية بوهمند إلى تجديد الهدنة مع صلاح الدين. وأثناء ذلك، كان صلاح الدين قد كتب إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد. وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق، وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد، ويحثهم عليه، ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان. **ثم خرج من دمشق ـ أواخر المحرم سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م.** وسار إلى رأس الماء، وتلاحقت به القوات من بلاد الشام. فعين لقيادتهم ولده الملك الأفضل، وسار هو في قوة خفيفة من الفرسان، إلى بصرى، حيث توافرت له المعلومات أن صاحب الكرك ـ رينالد شاتيون ـ يريد الهجوم على قافلة الحجاج المسلمين لأخذها، ثم لينتقل بعد ذلك لمهاجمة القوات القادمة من مصر لمنعها من الالتحاق بصلاح الدين. وكان في الحجاج جماعة من أقاربه ـ منهم ابن أخت صلاح الدين، محمد بن لاجين ـ. فلما علم رينالد باقتراب صلاح الدين من الكرك، لم يفارق بلده، وانقطع عما طمع فيه، فوصل الحجاج سالمين. وبثّ سراياه عندها إلى ناحيتي الكرك والشوبك وغيرهما، فنهبوا وخربوا وأحرقوا، والبرنس رينالد محصور لا يقدر على المنع عن بلده. ولزم سائر الفرنج طرق بلادهم خوفاً من جيش الأفضل من جهة، ومن جيش صلاح الدين من جهة ثانية.

لم يكن باستطاعة صلاح الدين أن يطمئن إلى تحالفه مع كونت طرابلس ـ ريموند ـ ما لم يضع هذا التحالف موضع الاختبار. ولهذا أصدر أمراً إلى ابنه

الأفضل بتوجيه قوة استطلاعية إلى بلد عكا ـ ينهبونه ويخربونه ـ وجهّز الأفضل قوة من الفرسان أسند قيادتها إلى صاحب حران والرها ـ مظفر الدين كوكبري بن زين الدين ـ وأضاف إليه قايماز النجمي ودلارم الياقوتي وهما من أكابر الأمراء وغيرهما. ولما كان لا بد لهذه القوة من اجتياز أراضي الكونت ريموند في الجليل. فقد جرى إخطاره واستئذانه. ولم يكن بوسع الكونت ريموند رفض هذا الطلب المثير للحرج والحيرة. وكل ما اشترطه ريموند، هو أن تجتاز قوة المسلمين أراضيه قبل شروق الشمس، وأن تعود من إغارتها قبل حلول الظلام، وينبغي ألا تلحق القوة أضراراً بأي مدينة أو قرية في البلاد التي يجتازونها والتي تتبع إمارته. كما أرسل مبعوثين من قبله للطواف باقطاعه، والطلب الى السكان بالبقاء طوال اليوم مع قطعانهم داخل الأسوار، وألا يتطرق إليهم الخوف. وشاهد ريموند من قلعته في الصباح المبكر من أواخر صفر (**الأول من أيار ـ مايو**). الأمير مظفر الدين كوكبري على رأس سبعة آلاف فارس وهم يجتازون القلعة فرحين مبتهجين. وما إن وصلت هذه القوة إلى **عيون كريسون** ـ مابين صفورية وكفركنة ـ حتى بوغتوا بهجوم قوة فرسان الداوية والاسبتارية مع قوات اخرى من فرسان الفرنج. وتصدى المسلمون للهجوم. ودارت معركة تشيب لها المفارق السود. ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، فانهزم الفرنج وتحولت هزيمتهم إلى مذبحة قتل فيها معظم الفرنج، وأسر الباقون ـ وفيمن قتل مقدم الاسبتارية روجر ـ ومارشال الداوية ـ جيمس مايللي ـ. وكانا من فرسان الفرنج المشهورين ولهما النكايات العظيمة في المسلمين، ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد وغنموا وسبوا. وشهد ريموند قوة المسلمين وقد عادت في المساء عن طريق طبرية ـ وقد رفع فرسان المقدمة على اسنة رماحهم رؤوس فرسان الداوية، وعادوا إلى قواعدهم قبل حلول الظلام، دون أن يلحقوا ضرراً بأي بناء في الأقليم. وابتهج المسلمون لهذا النصر العظيم على فرسان الداوية والاسبتارية ـ الذين كانوا جمرة الفرنج ـ وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك. ومقابل ذلك، اهتز الفرنج بعنف لهذه الهزيمة التي نزلت بأفضل فرسانهم. وبعث ملك القدس ـ جاي ـ إلى كونت طرابلس ريموند، البطرك والقسوس والرهبان وكثيراً من الفرسان، فأنكروا عليه انتماءه إلى

صلاح الدين. وقالوا له: «إنك لا شك قد أسلمت، وإلا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالفرنج، يقتلون الداوية والاسبتارية، ويأسرونهم، ويجتازون بهم عليك، وأنت لا تنكر ذلك ولا تمتنع عنه». ووافقهم على ذلك من عند ريموند من جند طبرية وطرابلس، وتهدده البطرك بالحرمان، وأن يفسخ عليه نكاح زوجته، إلى غير ذلك من التهديد. فلما رأى الكونت شدة الأمر عليه، خاف واعتذر، وتنصل وتاب، فقبلوا عذره، وغفروا له زلّته، وطلبوا منه الموافقة على حرب المسلمين والمؤازرة على حفظ بلادهم. فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم، والاجتماع بهم. وسار معهم إلى ملك الفرنج - في القدس - واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم. وإذ تأثر أمير انطاكية بوهمند بما حدث، فقد نكث بدوره اتفاقه مع صلاح الدين على الهدنة. ووعد بارسال كتيبة من قواته. وأرسل ابنه ريموند ليلحق بكونت طرابلس ريموند - الذي كان عراباً له عند التنصير -. وبدأ الفرنج بحشد فارسهم وراجلهم في عكا، بحيث لم ينقص شهر حزيران - يونيو - سنة ١١٨٧ م حتى اجتمع بالمعسكر الصليبي الذي أقيم أمام عكا، ألف ومائتا فارس بكامل أسلحتهم، وما يزيد على هذا العدد من الخيالة الوطنيين المتخففين المعروفين باسم - التركبولية - ونحو عشرة آلاف من المشاة - الرجالة -. وتقررت دعوة البطريرك هرقل للقدوم بالصليب المقدس، غير أنه قال بأنه معتل الصحة. وعهد بالأثر المقدس إلى مقدم كنيسة القمامة - القيامة - كيما يسلمه إلى أسقف عكا. على أن أعداءه رووا أنه آثر البقاء مع عشيقته باشيا.

١١ ـ يوم حطين .

ما إن تلقى صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية حتى عاد عن الكرك، إلى المعسكر الذي أقامه في بانياس ـ بقيادة ابنه الأفضل. والذي التحق به سائر الأمراء وجندهم. فاستعرض القوات التي بلغت عدتها اثني عشر ألف فارس ممن له الأقطاع والجامكية ـ الراتب ـ سوى المتطوعة، فنظم هذه القوات، وتولى بنفسه قيادة قلب الجيش، وأسند قيادة المجنبة اليمنى لابن أخيه تقي الدين عمر، وأسند قيادة المجنبة اليسرى للأمير مظفر الدين كوكبري زين الدين، كما نظم المقدمات والطلائع والمؤخرة. وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته، وسار من بانياس بتنظيم القتال إلى خسفين، ومنها توجه إلى الأقحوانه ـ عند الطرف الجنوبي لبحر الجليل، ودفع كشافته واستطلاعه إلى الأرجاء لجمع كل ما يتعلق بأخبار قوات الفرنج الصليبيين. وعلم صلاح الدين بأن جيش الفرنج قد تحرك من عكا، وأنه نزل بصفورية فجمع أمراءه واستشارهم، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ـ تجنب المعركة ـ وأن يعمل على إضعاف الفرنج واستنزاف قوتهم بشن الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة. وقال له بعض أمرائه: « الرأي عندي أن نجوس بلادهم، وننهب ونخرب ونحرق ونسبي. فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار، وأقبل يريد قتال المسلمين. والرأي أن نفعل فعلاً نعذر فيه ونكف الألسنة عنّا ». فقال صلاح الدين:

« الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار. فإن الأمور لا تجري بحكم الانسان. ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا. ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد بالجهاد ».

ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها (وهو يوم الخميس لسبع بقين

من ربيع الآخر = ٢ تموز - يوليو). فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره، وصعد جبلها، وتقدم حتى قارب الفرنج، فلم يرَ منهم أحداً، ولا فارقوا خيامهم. فنزل وأمر الجند بالنزول، فلما جنه الليل، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال. ونزل في قوة من الفرسان إلى طبرية، وقاتلها، ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عنوة في ليله. ولجأ من بها إلى القلعة التي لها، فامتنعوا بها، وفيها صاحبتها - الكونتيسة ايشيفا زوجة الكونت ريموند - ومعها أولادها، فنهب المدينة وأحرقها. فلما علم الفرنج بذلك اجتمعوا للمشاورة، فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية. فقال لهم الكونت ريموند:

« إن طبرية لي ولزوجتي. وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل، وبقي القلعة وفيها زوجتي. وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها، ويعود. فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً، ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة. وإنه إن أخذ طبرية فانه لا يمكنه المقام بها، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها. وإن هو أقام بها، فإنه لا يقدر على المقام إلا بجمع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان وهم بعيدين عن أوطانهم وأهليهم، فيضطر إلى تركها. ونفتك من أسر منا ».

ردّ رينالد شاتيون - أرناط - على حجة الكونت ريموند المنطقية والمقنعة بقوله: « قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا، وأما قولك إنهم كثيرون، فإن النار لا يضرها كثرة الحطب ».

فما كان من الكونت ريموند إلا أن قال:

أنا واحد منكم؛ إن تقدمتم تقدمت، وإن تأخرتم تأخرت، وسترون ما يكون ».

فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم. فرحلوا عن معسكرهم الذي لزموه - في صفورية - وقربوا من عساكر الإسلام. فلما علم صلاح الدين بذلك عاد عن

طبرية إلى معسكره وكان قريباً منه، وقد أدرك أنه حقق هدفه، إذ كان قصده من محاصرة طبرية أن يفارق الفرنج معسكرهم الذي يتوافر فيه الماء والطعام، وأن يقودهم إلى ميدان المعركة الذي اختاره لقتالهم. وكان المسلمون قد نزلوا على الماء الذي كان هو الأكثر أهمية بالنسبة للمقاتلين ـ وخيولهم ـ في حرّ الصيف اللاهب. فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء. وكانوا قد دمروا صهاريج المياه. ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد ـ وهو يوم السبت ـ وقد أخذ العطش منهم. وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم، وكانوا من قبل يخافونهم، فباتوا يحرض بعضهم بعضاً وقد وجدوا ريح النصر والظفر. وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان، زاد طمعهم وجرأتهم، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم. ونظم صلاح الدين الحراسة تلك الليلة، وأفاد من الظلمة لنشر قواته على التلال المجاورة، وبات معسكر الفرنج مطوقاً من كل جهاته؛ حتى لم يعد باستطاعة أحد الخروج من الفخ.

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (الرابع من تموز ـ يوليو ـ ١١٨٧م) وقد أخذوا أهبتهم للحرب، وتقدموا بتنظيم القتال إلى جيش الفرنج.

ودنا بعضهم من بعض. فاقتتلوا واشتد القتال، وصبر الفريقان، ورمى رماة المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر، فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً. واندفعت قوة من فرسان الفرنج ومشاتهم وهي تريد الوصول إلى طبرية على أمل ورود الماء. فلما عرف صلاح الدين هدفهم، صدّهم عن مرادهم، ووقف وجنده في مواجهتهم، وطاف على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم، وينهاهم عما يضرهم، والناس يأتمرون لقوله، ويقفون عند نهيه. وحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج، فقاتل قتالاً عجب منه الناس. ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه. فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيراً. فلما رأى كونت طرابلس ريموند شدّة الأمر، علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين، فاتفق هو وجماعة على الخروج من المعركة، وحملوا على من يليهم. وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية

تقي الدين عمر، فلما رأى حملة الفرنج، أمر جنده بافساح المجال لهم للخروج من المعركة، ثم عاد فأقفل الطريق أو الثغرة، واتخذ ريموند وأصحابه طريقهم إلى طرابلس.

كان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض ناراً، فاحترق الحشيش الذي كان كثيراً، وهبت الريح فحملت حرّ النار والدخان. واجتمع على الفرنج العطش وحرّ الزمان وحرّ النار وحرّ القتال. وزاد من بؤسهم هرب الكونت ريموند حتى كادوا يستسلمون. ولم يلبث باليان إبلين وريNالد سيد صيدا أن شقا لهما بعد فترة قصيرة طريقاً إلى خارج ميدان المعركة، فكانا آخر من هرب. ولم يعد عند الصليبيين بارقة أمل، ومع ذلك ظلوا يقاتلون أثناء انسحابهم إلى قمتي التل المعروفتين بقرني حطين، حيث تقرر نقل خيمة الملك جاي - الحمراء اللون - ونصبها بأعلى القمة، والتف الفرسان حوله وقد علموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الاقدام عليه. فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم، لولا لطف الله بهم. إلا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قتل منهم، فوهنوا لذلك وهناً عظيماً. وأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها. فارتفع من بقي من الفرنج إلى تل بناحية حطين - عند قرني حطين - وحاولوا أن ينصبوا خيامهم، ويحموا نفوسهم بها، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات، ومنعوهم عمّا أرادوا، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير. وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه - صليب الصلبوت، ويزعمون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك، هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم - مشاتهم -. فبقي الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين.

وحكى الملك الأفضل ولد صلاح الدين قصة الفصل الأخير من المعركة - كما شهدها - فقال: «كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي، فنظرت إليه وقد علته كآبة وأربد لونه وأمسك بلحيته

وتقدم وهو يصيح ـ **كذب الشيطان** ـ فعاد المسلمون على الفرنج ورجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم، صحت من فرحي: **هزمناهم**. فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى، وألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولاً. وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم. فالتفت إلي والدي وقال: **اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة**. وبينما هو يقولها إذا الخيمة قد سقطت. فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرحه. وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً. وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم. وجلسوا على الأرض. وصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم، وفيهم الملك جاي، وأخوه، والبرنس أرناط ـ رينالد شاتيون ـ صاحب الكرك، ولم يكن في الفرنج أشدّ منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضاً صاحب جبيل وابن هنفري ـ همفري ـ ومقدم الداوية وكان من أعظم الفرنج شأناً، وأسروا أيضاً جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية. وكثر القتل والأسر فيهم. **فكان من يرى القتل لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً**. وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل، وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة = ١٠٩٧ م. بمثل هذه الوقعة».

انتهت المعركة، وعاد صلاح الدين إلى خيمته، حيث استقبل فيها الملك جاي وشقيقه الكندسطبل أملريك ـ ورينالد شاتيون، وابن زوجته همفري سيدتبنين، فضلاً عن عدد كبير من صغار بارونات المملكة. فحياهم صلاح الدين في لطف وبشاشة، وأجلس الملك جاي إلى جانبه، وإذ شهد ما حلّ به من الظمأ، ناوله كأساً امتلأ بالجلاب الذي أثلجه ما وضع به من قطع الثلج الوارد من جبل الشيخ ـ حرمون ـ فشرب منه جاي. ثم سلمه إلى رينالد الذي كان يجلس إلى جانبه، ووفقاً للتقاليد العربية في الضيافة، فإنه متى جرى بذل الطعام أو الشراب للأسير، فإن ذلك معناه الابقاء على حياته، ولذا بادر صلاح الدين بأن قال للمترجم:

إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني ». ثم كلم البرنس رينالد - وقرعه بذنوبه، وعدد عليه عوراته، وقال له:

« كنت نذرت أن أقتله إن ظفرت به مرتين: إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدراً ».

وقام إليه بنفسه فضرب رقبته، وسحب وأخرج فلما قتله ارتعدت فرائص الملك جاي، وظنّ أنه سيحل دوره. فطمأنه صلاح الدين بقوله:

« إن الملك لا يقتل ملكاً غير أن ما ارتكبه ذلك الرجل من الغدر والخيانة قد تجاوز كل حد ».

ثم أصدر صلاح الدين الأوامر بأن لايتعرض للأذى البارونات العلمانيون، بل ينبغي أن يلقوا في أسرهم الاحترام والمروءة. غير أنه لم يود الابقاء على حياة أحد من الفرسان الرهبان - باستثناء مقدم الداوية -. والمعروف أنه كان بجيش صلاح الدين جماعة من الزهاد والمتصوفين، فعهد إليهم صلاح الدين بالاجهاز على الأسرى من الداوية والاسبتارية، فاغتبطوا للقيام بهذا العمل. فلما تم ذلك، تحرك صلاح الدين بجيشه من حطين، وما تناثر على ساحة القتال من جثث القتلى أصبح طعاماً للضباع والصقور. وجرى حمل الأسرى إلى دمشق، حيث تهيأت للبارونات أسباب الراحة في معتقلهم. بينما تقرر بيع الأسرى الفقراء في سوق الرقيق. وبلغ من كثرة الأسرى بهذا السوق أن هبط سعر الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير. وأضحى بوسع الشخص أن يشتري أسرة سليمة بأكملها مؤلفة من رجل وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتين بثمانين ديناراً. بل إن أحد المسلمين اعتبر ما أجراه من مبادلة نعليه بأسير صفقة غير رابحة.

هكذا غربت شمس يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٤ تموز - يوليو - ١١٨٧ م) وقد تم على أرض حطين تدمير أضخم جيش صليبي لم يحشد الفرنج مثله من قبل. وضاع منهم صليب الصلبوت، وارتقى صلاح الدين الأيوبي إلى مرتبة عظماء أمراء المسلمين وحكامهم.

١٢ ـ الحملة الصليبية الثالثة.

انطلق المسلمون لاستثمار انتصارهم في حطين، فأخذوا في فتح قلاع الفرنج وحصونهم، وطرد الفرنج من كثير من المدن التي سبق لهم احتلالها، وانطلقت جيوشهم من الجليل إلى القدس ثم إلى الساحل، ومنه إلى الشمال وهي تجتاح كل ما تستطيع اجتياحه، وتعرض عما يمتنع عليها فتحه. وعلى سبيل المثال فعندما فرض صلاح الدين الحصار على صور، وطال أمد حصارها ولم تستسلم **« رحل عنها وهذه كانت عادته، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره، فرحل عنه »**.

بينما كان المسلمون يعيشون في بلادهم حلاوة انتصاراتهم المتتالية، كانت رسل الفرنج تنطلق صوب الغرب ـ تباعاً ـ وهي تحمل تفاصيل معركة حطين وما تبعها من فتح المسلمين للقدس. وزعر الغرب الصليبي لهذه الكارثة التي لم يكن يضعها في حسابه على ما يظهر، رغم التحذيرات المتتالية التي أرسلتها مملكة القدس وامارات الفرنج، والتي أنذرت بتعاظم قدرة المسلمين. وتزايد قوتهم، وكان في جملة رسل الفرنج إلى الغرب اسقف مدينة صور ـ جوسياس ـ الذي غادر صور في صيف سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) قاصداً بلاط ملك صقلية (وليم الثاني) الذي ما إن عرف بتفاصيل ما حدث حتى ارتدى ثوباً من الخيش، واعتزل الدنيا لمدة أربعة أيام، خرج بعدها من عزلته، ووجه إلى رفاقه الملوك يحثهم على الاشتراك في حملة صليبية جديدة (ثالثة). بينما أخذ في الاعداد لتوجيه حملة إلى بلاد الشام بأسرع ما يمكن. ولما كان في تلك الفترة يخوض حرباً ضد الامبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس، فقد بادر إلى عقد صلح مع الامبراطور. وبينما كان اسقف صور ـ جوسياس ـ يتابع بفرح جهد ملك صقلية، بلغه نبأ موت البابا ايربان الثالث (في ٢٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١١٨٧ م). إذ كانت شدة الصدمة أقوى من قدرة احتمال البابا، فمات كمداً. وبادر خليفته في البابوية (غريغوري الثامن) فأرسل كتاباً دورياً ـ تعميماً ـ إلى جميع المؤمنين

بالغرب، اورد فيه القصة الخطيرة عن ضياع الأرض المقدسة وصليب الصلبوت. وحرص على أن يذكر الذين يقرؤون كتابه، بأن ما حدث منذ أربعين سنة (عندما طرد المسلمون الفرنج من إمارة الرهـا والحملة الصليبية الثانية) كان نذيراً بذلك. وأضحت الحاجة ماسة إلى بذل جهود ضخمة.

« فليكفر كل انسان عن خطاياه، وليدخر لنفسه كنزاً في السماء، بأن يتخذ الصليب » ووعد جميع الصليبيين بقدر وفير من غفران الذنوب، فينبغي أن ينعموا بالحياة الأبدية في السماء، بينما تصير سلعهم في الدنيا في حماية المقر المقدس.

واختتم كتابه بالدعـوة إلى الصيـام كـل يـوم جمعـة، لمدة خمس سنـوات، والامتناع عن تناول اللحم يومي الأربعاء والسبت. وسوف يصوم أيضاً يوم الاثنين أهل بيته وأسرات الكرادلة.

وتقرر أيضاً أن يتوجه من روما مبعوثون آخرون، ليفرضوا على جميع امراء العالم المسيحي الهدنة لمدة سبع سنوات. وترددت الرواية أن جميع الكرادلة أقسموا أنهم سوف يكونون من أوائل الذين يتخذون الصليب، وسوف يقودون الجيوش الصليبية إلى فلسطين باعنبارهم مبشرين متسولين.

لم يعش البابا غريغوري الثامن ليشهد نتيجة جهوده، إذ مات ولما يمض سوى شهرين على بابويته، فتم اختيار أسقف برائينيست لمنصب البـابـويـة بـاسم (كليمنـت الثالث). وقد بادر البابا الجديد إلى الاتصال بكبار ملوك الغرب، لتحريضهم على تجاوز خلافاتهم، وتوجيه حملة صليبية جديدة. وأثمرت هذه الجهود المكثفة فتم عقد هدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا!.

وتقرر أن يسير الجيشان معاً، فاتخذ العساكر الفرنسيون الصليب الأحمر على أرديتهم، بينما اتخذ العساكر الانكليز الصليب الأبيض، واختار الفلمنكيون الصليب الأخضر. وفرض الملكان ضرائب خاصة في نهاية كانون الثاني - يناير - ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) عرفت باسم عشر صلاح الدين، وهي نسبة عشرة بالمائة من ضريبة الدخل والأموال المنقولة، تجبى من الرعايا في فرنسا وانكلترا.

وبينما كانت تجتاح الغرب حمى الأعداد للحملة الصليبية الثالثة، كان امبراطور الغرب - فريدريك بربروسه - قد أعد حملة من ألمانيا، وتولى قيادتها. وتلقى الصليب من يد الكاردينال اليانو. وسار بجيشه في سنة ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ م، عن طريق المجر - ثم بلاد البيزنطيين، فيما كانت بقية قوات الغرب تسير عبر البحر إلى بلاد الشام. ولكن الجيش الالماني لم يتجاوز انطاكية، فقد مات فريدريك بربروسه في سنة ٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م. وتمزقت حملته تحت وطأة ضربات المسلمين. وشعر صلاح الدين بنوع من الارتياح، فقد كان يشعر بالقلق من التقاء قوات الحملة الصليبية، هذه القادمة من الشمال، وتلك القادمة عن طريق البحر، وقد وصل ملك فرنسا - فيليب أغسطس - إلى عكا في يوم ٢٠ نيسان - ابريل - ١١٩١، بينما وصل ملك انكلترا - ريتشارد قلب الأسد بعد اسبوع من ذلك (سنة ٥٨٧ هـ). وكان الصراع على أشده حول عكا. وقد يكون من المناسب العودة بهذا الصراع إلى بدايته (في أحداث سنة ٥٨٥ هـ) كما تعرضت لها أوابد المسلمين.

سار صلاح الدين بجيشه إلى قلعة (شقيف أرنون) في ربيع الأول من سنة ٥٨٥ هـ - وهذه القلعة هي من أمنع الحصون. فنزل بمرجعيون، فجاءه رينالد - أرناط - صاحب الشقيف، وصاحب صيدا، وكان من أعظم الناس دهاءً ومكراً. فدخل إليه واجتمع به، وأظهر له الطاعة والمودة، وقال له: «أنا محب لك، ومعترف باحسانك، وأخاف أن يعرف المركيس - صاحب صور - ما بيني وبينك فينال أولادي وأهلي منه أذى، فإنهم عنده. فأشتهي أن تمهلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده. وحينئذ أحضر أنا وهم عندك، ونسلم الحصن إليك. وأكون أنا وهم في خدمتك، نقنع بما تعطينا من إقطاع». فظنّ صلاح الدين صدقه وأجابه إلى ما سأل وأمهله ثلاثة أشهر لتسليم القلعة وأقام صلاح الدين بمرجعيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب انقضاء الهدنة بين صاحب انطاكية البيمند - بوهمند - فأمر ابن أخيه تقي الدين بالسير فيمن معه من الجند، ومن ينضم إليه من بلاد المشرق، ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء أجل الهدنة. وكان أيضاً منزعج الخاطر، كثير الهم، لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور، وما

يتصل بهم من الامداد في البحر. ولما عرف صلاح الدين خديعة رينالد ـ أرناط ـ عند انقضاء أجل المدة المحددة لتسليم قلعة الشقيف، أرسله إلى سجن دمشق. وترك قوة لحصار القلعة. وسار إلى صور في قوة من الفرسان الخفيفة، من شجعان أصحابه، حيث بلغه أن الفرنج في صور قد جمعوا جموعهم، للسير إلى صيدا. فاصطدموا بقوة المسلمين التي تركها صلاح الدين في مواجهة صور، وقاتلهم المسلمون على مضيق هناك، ومنعوهم، **وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد، وأسروا من الفرنج جماعة، وقتلوا جماعة.** وقتل من المسلمين أيضاً جماعة. وعندما وصل صلاح الدين إلى صور، كانت المعركة قد انتهت، وعاد الفرنج إلى قاعدتهم في صور. فأقام صلاح الدين في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم، ويأخذ بثأر من قتلوه من المسلمين، فركب في بعض الأيام في عدة يسيرة ـ للاستطلاع ـ ولينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل، ليعمل بمقتضى ما يشاهده، وظنّ من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أنه على قصد المصاف والحرب، فساروا مجدين، وأوغلوا في أرض العدو مبتعدين وفارقوا الحزم، وخلفوا السلطان صلاح الدين وراء ظهورهم، وقاربوا الفرنج. فأرسل صلاح الدين عدة من الأمراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا، فلم يسمعوا ولم يقبلوا.

وكان الفرنج قد اعتقدوا أن وراءهم كميناً، فلم يقدموا عليهم، وأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر ـ فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين، وليس وراءهم ما يخاف. فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد، فقاتلوهم، فلم يلبثوا أن أبادوهم. وقتل معهم جماعة من المعروفين.

وشق على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم، وكان ذلك بتفريطهم في حق أنفسهم، رحمهم الله ورضي عنهم، فلما رأى صلاح الدين ذلك، انحدر في جيشه من الجبل وحمل على الفرنج، فألقى الفرنج أنفسهم في الماء، فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل. وعزم السلطان صلاح الدين على مصابرتهم ومحاصرتهم، فتسامع الناس، فقصدوه، واجتمع معه خلق كثير. فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور. فلما

عادوا إليها، رجع صلاح الدين إلى تبنين ثم إلى عكا ينظر حالها، ثم عاد إلى المعسكر في مرجعيون.

وعلم صلاح الدين وهو في معسكره أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين - متفرقين -. فكتب إلى من بعكا من الجند، وواعدهم في يوم معين (ثامن جمادي الآخرة سنة ٥٨٥ هـ) **ليلاقوا الفرنج من الجانبين، ورتب كمناء في موضع من تلك الأودية والشعاب، واختار جماعة من شجعان جنده، وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنج، قاتلوهم شيئاً من قتال، ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم، وانسحبوا من وجههم، فإذا تبعهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا مواضع الكمين، ثم يعطفوا عليهم، ويخرج الكمين من خلفهم، فخرجوا على هذه العزيمة.**

فلما تراءى الجمعان، والتقت الفئتان، أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة، وثبتوا، وقاتلوهم، وصبر بعضهم لبعض، واشتد القتال وعظم الأمر، ودامت الحرب، وطال على الكمناء الانتظار، فخافوا على أصحابهم، وخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين، وإليهم قاصدين، فأتوهم وهم في شدة الحرب، فازداد الأمر شدة على شدة، وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة طي، وكانوا يجهلون تلك الأرض، فلم يسلكوا مسلك أصحابهم، فسلكوا الوادي ظناً منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم، وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين، فلما رآهم الفرنج بالوادي علموا أنهم جاهلون، فأتوهم وقاتلوهم، فقتلوهم. وجاء المسلمون من الغد إلى موضعهم فرأوا القتلى.

خرج الفرنج على الصعب والذلول براً وبحراً، يحفزهم الباعث الديني والنفساني لقتال المسلمين، وجاؤوا من كل فجّ عميق، فلولا لطف الله تعالى بالمسلمين، وإهلاكه لملك الألمان لما خرج إلى الشام، لكان يقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين. واجتمع الفرنج بصور يموج بعضهم في بعض، ومعهم الأموال العظيمة، والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم. فضاقت عليهم صور ظاهرها وباطنها. وأرادوا قصد صيدا، فلما فشلوا في مسعاهم، اتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصابرتها. فساروا إليها بفارسهم وراجلهم وقضّهم وقضيضهم، ولزموا البحر في مسيرهم، لا

يناوقونه في السهل والوعر الضيق والسعة، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر، فيها سلاحهم وذخائرهم، ولتكون عدة لهم إن جاءهم ما لا قبل لهم به، ركبوا فيها وعادوا. وسار المسلمون الذين كانوا يحاصرون صور على أثر الفرنج، يتخطفون المنفرد منهم ويأخذونهم. وعلم صلاح الدين بمسير الفرنج إلى عكا، فقاد جيشه وقاربهم، ثم جمع أمراءه واستشارهم:

« هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون؟ أو يكون في غير الطريق التي سلكوها؟ ».

فقالوا: « لا حاجة بنا إلى احتمال المشقة في مسايرتهم، فإن الطريق وعر وضيق، ولا يتهيأ لنا ما نريده منهم. والرأي أننا نسير في الطريق المهيع، ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم ». فعرف صلاح الدين ميل قادته إلى الراحة المعجلة، فوافقهم. وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون، وقال:

« إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض، فلا يتهيأ لنا إزعاجهم، ولا نيل الغرض منهم، والرأي قتالهم قبل الوصول إلى عكا ».

فخالفوه، فتبعهم، وساروا على طريق كفركنا، فسبقهم الفرنج. وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم، ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم. فلو أن جند المسلمين اتبعت رأي صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا، لكان بلغ غرضه وصدّهم عنها.

رأى صلاح الدين عندما وصل إلى عكا أن الفرنج قد وصلوا إلى عكا، ونزلوا عليها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق. فنزل صلاح الدين عليهم، وضرب خيمته على تل كيسان، وامتدت ميمنته إلى تل الغياظية، وميسرته إلى النهر الجاري، ونزلت الأثقال بصفورية، وسير الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة، وأتاه ابن أخيه تقي الدين، وأتاه أيضاً صاحب حران والرها ـ مظفر الدين

ابن زين الدين كوكبري ـ. وكانت الأمداد تصل إلى المسلمين في البر، وتأتي الفرنج في البحر. وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة، منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك، وما عداها كان قتالاً يسيراً من بعضهم مع بعض.

وكان يوم (٥ شعبان ٥٨٥ هـ) من الأيام المشهودة، ففي هذا اليوم، باكر صلاح الدين الفرنج بالقتال، واستدار عليهم من سائر جهاتهم، واستمر القتال حتى الظهر، وصبر الفريقان صبر حار له من رآه. فلما كان وقت الظهر، حمل عليهم تقي الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم، فأزاحهم عن مواقفهم، وركب الفرنج بعضهم بعضاً، لا يلوي أخ على أخيه، والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم، واجتمعوا بهم، وأخلوا نصف البلد، وملك تقي الدين مكانهم والتصق بالبلد. ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه. واتصلت الطرق، وزال الحصر عمن فيه.

وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك، ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه. فإن للصدمة الأولى روعة، لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر، أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال وقالوا: نباكرهم غداً ونقطع دابرهم. وقتل في هذا اليوم من الفرنج جماعة كبيرة.

نهض المسلمون لقتال الفرنج من الغد (وهو سادس شعبان) عازمين على بذل جهدهم، واستنفاد وسعهم في استئصالهم، فتقدموا على تعبيتهم، فرأوا الفرنج حذرين محتاطين، قد ندموا على ما فرطوا فيه بالأمس، وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم، وشرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم، فألح المسلمون عليهم في القتال، فلم يتقدم الفرنج إليهم، ولا فارقوا مرابضهم. فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم. ثم إن جماعة من العرب بلغهم أن الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أشغالهم، فكمنوا في معاطف النهر ونواحيه، فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم (يوم ١٦ شعبان) حملت عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم، وغنموا ما كان معهم،

وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين فأحسن إليهم وأعطاهم الخلع. واستمر المسلمون كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه. والفرنج لا يخرجون من معسكرهم ولا يفارقونه. ثم إن الفرنج اجتمعوا للمشورة، فقالوا: «إن عسكر مصر لم يحضروا، وهذا هو الحال مع صلاح الدين، فكيف إذا حضروا؟ الرأي هو أن نلقى المسلمين غداً، لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر، ووصول الامداد إليهم». وكان كثير من جند صلاح الدين بعيد عنه، بعضهم مقابل أنطاكية ليردوا غائلة صاحبها البيمند - بوهمند - عن أعمال حلب - وبعضهم في حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضاً. وهناك جند مقابل صور لحماية ذلك البلد، فيما بقي جند مصر لحماية ثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما. وهذا مما أطمع الفرنج في الخروج لقتال المسلمين الذين كانوا يوم صبحهم الفرنج بهجومهم، كعادتهم، منهم من يتقدم إلى القتال، ومنهم من هو في خيمته، ومنهم من قد توجه في حاجته سواء لزيارة صديق أو تحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه وغير ذلك. فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الأرض، قد ملؤوها طولاً وعرضاً، وتوجهوا إلى ميمنة المسلمين وعليها تقي الدين عمر، فلما رأى أن الفرنج نحوه قاصدين، حذر هو وأصحابه، فتقدموا إليه، فلما قربوا منه تأخر عنهم. فلما رأى صلاح الدين الموقف وهو في القلب. أمد تقي الدين برجال من عنده ليتقوى بهم، وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين في جناح القلب، فلما رأى الفرنج قلة الرجال في القلب، وأن كثيراً منهم قد ساروا نحو الميمنة مدداً لهم، عطفوا على القلب، وحملوا حملة رجل واحد، فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين، وثبت بعضهم، واستشهد جماعة من الأمراء والفقهاء والشجعان، ولم يبق بين أيديهم في القلب من يردهم، فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين، فقتلوا من مروا به، ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة، وانحدروا إلى الجانب الآخر من التل، فوضعوا السيف فيمن لقوه. وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين، أن الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين، ولو ألقوها لعلم الناس وصولهم إليها، وانهزام العساكر بين أيديهم، فكانوا انهزموا أجمعين، ثم إن الفرنج نظروا وراءهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم، فرجعوا خوفاً أن ينعزلوا عن أصحابهم، وكان سبب انقطاعهم أن

الميمنة وقفت مقابل الفرنج، فاضطر بعضهم للوقوف مقابلها، وحملت الميسرة على الفرنج، فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم واللحاق بهم، وعادوا إلى طرف خنادقهم. فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين، فصادفوهم وهم راجعون، فقاتلوهم. وثار بهم غلمان المعسكر. وكان صلاح الدين لما انهزم القلب، قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال، فاجتمع معه منهم جماعة صالحة، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة، **فأخذتهم سيوف الله من كل جانب، فلم يفلت منهم أحد، بل قتل أكثرهم، وأخذ الباقون أسرى، وفي جملة الأسرى مقدم الداوية، فأمر صلاح الدين بقتله. وكانت عدة القتلى ـ سوى من كان إلى جانب البحر ـ نحو عشرة آلاف قتيل، فأمر بهم فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه، وكان في جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات، كنّ يقاتلن على الخيل، فلما أسرن وألقي عنهن السلاح عرفن أنهن نساء.**

وأما المنهزمون من المسلمين، فمنهم من رجع إلى طبرية، ومنهم من جاوز الأردن وعاد، ومنهم من بلغ دمشق. ولولا أن العساكر تفرقت في الهزيمة، لكانوا بلغوا من الفرنج من الاستئصال والإهلاك مرادهم. على أن الباقين بذلوا جهدهم، وجدوا في القتال، وصمّموا على الدخول مع الفرنج في معسكرهم، لعلهم يفزعون منهم، فجاءهم النداء بأن رجالهم وأموالهم قد نهبت، وكان سبب هذا النهب أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب، فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه، فنهبوه، وأتوا عليه. وكان في عزم صلاح الدين أن يباكر الفرنج القتال والزحف. فلما رأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم، ويسعون في جمعها وتحصيلها، أمر بالنداء باحضار ما أخذ، فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والثياب والسلاح وغير ذلك، فرد الجميع إلى أصحابه، ففاته ذلك اليوم ما أراد، وسكن روع الفرنج، وأصلحوا شأن الباقين منهم، وأعادوا تنظيم قواتهم.

جافت الأرض من نتن ريح قتلى الفرنج لكثرتهم، وفسد الهواء والجو، ووجدت الأمزجة فساداً. وانحرف مزاج صلاح الدين وأصابه المرض ونال منه بشدة، فحضر

عنده الأمراء، وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع، وترك مضايقة الفرنج، وحسنوه له، وقالوا: «قد ضيقنا على الفرنج، ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا، والرأي أن نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود، فإن رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرّنا. وإن أقاموا عاودنا القتال، ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه. ثم إن مزاجك منحرف والألم شديد، ولو وقع إرجاف لهلك الناس، والرأي على كل تقدير البعد عنهم». ووافقهم الأطباء على ذلك، فأجابهم إليه، ورحلوا إلى الخروبة (رابع شهر رمضان سنة ٥٨٥ هـ) وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط، وأعلمهم بسبب رحيله. فلما رحل هو وجنده، أمن الفرنج وانبسطوا في تلك الأرض، وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر إلى البحر، فيما كانت مراكبهم تحاصرها من البحر أيضاً، وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق. وجاؤوا بما لم يكن في الحساب. وكان المسلمون الذين تركوا في مواجهة الفرنج، يتوجهون لقتالهم كل يوم، والفرنج لا يتحركون، ولا هم لهم إلا حفر الخندق وإقامة السور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين إن عاد إلى قتالهم. وعمل المسلمون على اعلام صلاح الدين أولاً بأول بما كان يفعله الفرنج، ويعظمون الأمر عليه، غير أن المرض كان يمنعه من الحركة. وأشار عليه بعضهم بأن يرسل جنده بكامله إلى عكا ليمنع الفرنج من حفر الخندق وإقامة السور، وقتالهم، وأن يبقى هو في موضعه ـ في الخروبة ـ فقال لهم:

«إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً، وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير».

تحرك جيش مصر بقيادة الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب إلى عكا فوصلها في منتصف شوال، فقويت نفوس الناس به وبمن معه، واشتدت ظهورهم. وأحضر معه من آلات الحصار والنشاب والأقواس شيئاً كثيراً، وجمع صلاح الدين جنداً كثيراً من المشاة من البلاد الشامية، وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل. ووصل بعده الاسطول المصري ومقدمه حسام الدين لؤلؤ، وكان شهماً شجاعاً مقداماً خبيراً بالبحر والقتال فيه، ميمون النقيبة، فوصل بغتة، فوقع على سفينة

كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالاً كثيرة ومواد تموينية عظيمة، فأدخلها إلى عكا. فسكنت نفوس من بها بوصول الاسطول المصري، وقوي جنانهم.

أقام صلاح الدين في - الخروبة - إلى أن ذهب الشتاء، فلما دخل صفر من سنة ٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م. علم الفرنج أن صلاح الدين قد سار للصيد. ووجدوا أن جيش المسلمين في مواجهتهم هو جيش صغير، وأن الوحل في عكا كثير ويشكل عائقاً أمام المسلمين إذا ما تحركوا لدعم الجيش المقابل لعكا. فقرروا الخروج من خندقهم، ومباغتة جند المسلمين، عند العصر، فقاتلهم المسلمون، وحموا أنفسهم بالنشاب، وأحجم الفرنج عنهم حتى فني نشابهم، فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد، فاشتد القتال وعظم الأمر، وعلم المسلمون أنهم لا ينجيهم إلا الصبر وصدق القتال، فقاتلوا قتال مستقتل، إلى أن جاء الليل، وقتل من الفريقين جماعة كثيرة، وعاد الفرنج إلى خندقهم. ولما علم صلاح الدين بما حدث، ندب الناس إلى نصر إخوانهم، فأتاه الخبر أن الفرنج عادوا إلى خندقهم. فجمع جنده الذين وصلوا من دمشق وحمص وحماة وغيرها، وسار بهم من الخروبة نحو عكا، فنزل بتل كيسان، وقاتل الفرنج كل يوم، ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين. وكان الفرنج مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً، طول كل برج منها خمس طبقات، كل طبقة مملوءة بالمقاتلة، وقد جمع أخشابها من الجزائر، إذ أن مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب إلا القليل النادر، وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها، وأصلحوا الطرق لها، وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات، وزحفوا بها (في العشرين من ربيع الأول ٥٨٦ هـ) فأشرفت على السور، وقاتل من بها من عليه، فانكشفوا وشرعوا في ردم - طم - الخنادق.

وكاد الفرنج يملكون البلد عنوة وقهراً، فأرسل المسلمون رجلاً سبح في البحر، وجاء إلى صلاح الدين، وأعلمه ما هم فيه من الضيق. وما أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم، فركب صلاح الدين وجنده وتقدموا إلى الفرنج، وقاتلوهم من جميع جهاتهم قتالاً عظيماً دائماً يشغلهم عن مكاثرة البلد، فافترق الفرنج فرقتين: فرقة تقاتل صلاح الدين، وفرقة تقاتل أهل عكا، وبذلك خفّ الأمر عمن بعكا، ودام القتال ثمانية أيام

متتابعة، وسئم الفريقان القتال، وملوا منه لملازمته ليلاً ونهاراً، وتيقن المسلمون من استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج، فإنهم لم يتركوا حيلة إلا عملوها، فلم يفد ذلك، ولم يغن عنهم شيئاً. وتابعوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها، فأيقنوا بالبوار والهلاك.

فأتاهم الله بنصر من عنده، وأذن من إحراق الأبراج، وكان سبب ذلك أن إنساناً من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفاطين، وتحصيل عقاقير تقوي عمل النار، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه، وهو يقول: «هذه حالة لم أباشرها بنفسي إنما أشتهي معرفتها». وكان بعكا لأمر يريده الله، **فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكا، شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما، فلما فرغ منها، حضر عند الأمير قراقوش، وهو متولي الأمور بعكا والحاكم فيها، وقال له: «يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه». وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله، فازداد غيظاً بقوله، وحرد عليه، وقال له: «قد بالغ أهل هذه الصنعة في الرمي بالنفط وغيره، فلم يفلحوا». فقال له من حضر: «لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا، ولا يضرنا أن نوافقه على قوله». فأجابه إلى ذلك، وأمر المنجنيقي بامتثال أمره. فرمى عدة قدور نفطاً وأدوية ليس فيها نار. فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يرقصون ويصيحون ويلعبون على سطح البرج، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج، ألقى قدراً مملوءة وجعل فيها النار، فاشتعل البرج. وألقى قدراً ثانية وثالثة فاضطرمت النار في نواحي البرج، وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص. فاحترق هو ومن فيه.**

فلما احترق البرج الأول، انتقل إلى الثاني وقد هرب من فيه لخوفهم، فأحرقه. وكذلك الثالث، وكان يوماً مشهوداً لم يرَ الناس مثله. والمسلمون ينظرون ويفرحون، وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر، وخلاص المسلمين من القتل. وحمل

ذلك الرجل - الدمشقي - إلى صلاح الدين، **فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع** الكثيرة، فلم يقبل منه الحبة الفرد، وقال:

«إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه». وأرسلت الكتب إلى البلاد بالبشائر.

أرسل صلاح الدين باستدعاء العساكر الشرقية، فجاءه جند سنجار وديار الجزيرة، ثم جاءه جند الموصل، ثم جند أربل، وكان كل جند إذا وصل يتقدم إلى الفرنج وينضم إليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون. ووصل الاسطول من مصر، **فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولاً ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدين في جيشه بكامله، وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول، ليتمكن من دخول عكا، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء، فكان القتال بين الفريقين براً وبحراً. وكان يوماً مشهوداً لم يؤرخ مثله.**

وأخذ المسلمون من الفرنج مركباً فيه من الرجال والسلاح. وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك. إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين. ووصل الأسطول الإسلامي سالماً.

أعاد الفرنج تنظيم قواتهم، وخرجوا بفارسهم وراجلهم، وبعددهم الكثير الذي لا يحصى، وقصدوا عسكر مصر (في ٢٠ جمادي الآخرة) فنظم الملك العادل أبو بكر قواته للقتال والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانحاز المصريون عنهم، ودخل الفرنج خيامهم، ونهبوا أموالهم، فعطف المصريون عليهم، فقاتلوهم من وسط خيامهم، فأخرجوهم عنها. وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج، فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا، **وكانوا متصلين كالنمل، فلما انقطعت أمدادهم ألقوا بأيديهم، وأخذتهم السيوف من كل ناحية، فلم ينج منهم إلا الشريد، وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل.**

وكانت عساكر الموصل بقيادة علاء الدين خرم شاه بن عزّالدين مسعود. قريبة من جيش مصر. فحملوا أيضاً على الفرنج، وبالغوا في قتالهم، ونالوا منهم نيلاً كثيراً.

هذا جميعه، ولم يباشر القتال أحد من الحلقة الخاصة التي مع صلاح الدين، ولا أحد من الميسرة وكان بها عسكر سنجار وإربل وغيرهم بقيادة عماد الدين زنكي. ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة، خمدت جمرتهم، ولانت عريكتهم، وأشار المسلمون على صلاح الدين بمبادرتهم القتال مبكراً من الغد، ومناجزتهم القتال وهم على هذه الحال من الهلع والجزع. فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الألمان، وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر، وما صار إليه أمرهم من القلة والذلة، واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بإزائهم. وظنوا أن الفرنج إذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهناً على وهنهم وخوفاً على خوفهم، فلما كان بعد يومين، أتت الفرنج أمداد في البحر مع الكونت هنري ابن أخي ملك فرنسا لأبيه وابن أخي ملك انكلترا لأمه، ووصل معه من الأموال شيئاً كثيراً يفوق الإحصاء، فجند الأجناد، وبذل الأموال، فعادت نفوس الفرنج قوية واطمأنت. وأخبرهم أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضاً، فتماسكوا وحفظوا مكانهم. ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج لقتال المسلمين، فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة (في ٢٧ جمادى الآخرة) ليتسع المجال، وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى، ثم نصب الكونت منجنيقاً ودبابات وعرادات، فخرج من بعكا من المسلمين، فأخذوها، وقتلوا عندها كثيراً من الفرنج، وأراد الكونت بعد أخذ منجنيقاته أن ينصب منجنيقاً، فلم يتمكن من ذلك لأن المسلمين بعكا كانوا يمنعون الفرنج من عمل ساتر يختفي وراءه من يرمي بالمنجنيق، فعمل تلاً من تراب بعيداً عن البلد، وأخذ الفرنج في تقديم التل إلى البلد بالتدريج، ويستترون به، حتى وصل إلى المسافة التي يمكن للمنجنيق منها أن يرمي بحجارته على البلد، ونصبوا وراء التل منجنيقين.

كانت المواد التموينية ـ الميرة ـ قد قلت بعكا خلال هذه الفترة، فأرسل صلاح الدين إلى الاسكندرية، يأمرهم بارسال الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى عكا، فتأخر انفاذها. فسير صلاح الدين إلى نائبه ببيروت في ذلك، فأرسل سفينة ضخمة مملوأة من كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسوا لباس الفرنج وتشبهوا بهم، ورفعوا عليها الصلبان، فلما وصلوا إلى عكا لم يشك

الفرنج أنها لهم، فلم يتعرضوا لها، فلما جازت ميناء عكا أدخلها من بها من المسلمين، ففرح أهل عكا وانتعشوا وقويت نفوسهم وتبلغوا بما فيها، إلى أن أتتهم الميرة من الاسكندرية.

وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل، فأخذت وأسرت بنواحي الاسكندرية. وأخذ المسلمون من كان معها أسرى. ثم إن الفرنج وصلهم كتاب من البابا - وهو كبيرهم الذي يصدرون عن أمره، وقوله عندهم كقول النبيين، لا يخالف، والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه - يأمرهم بملازمة ما هم بصدده، ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم براً وبحراً، ويعلمهم بوصول الأمداد إليهم، فازدادوا قوة وطمعاً. وتتابعت الأمداد إلى الفرنج، وجمعوا جمعاً كثيراً، فعزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين، فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها، وخرجوا (يوم ١١ - شوال - ٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م) وهم كالرمل كثرة وكالنار جمرة، فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون - وهو على ثلاثة فراسخ من عكا -. وكان قد عاد إليه من فرق عساكره، لما هلك ملك الألمان، ولقي الفرنج على تعبية حسنة: فكان أولاده الأفضل علي والظاهر غازي والظافر مما يلي القلب، وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم إليه. وكان في الميسرة صاحب سنجار عماد الدين زنكي وصاحب حماة تقي الدين وصاحب جزيرة ابن عمر - معزالدين سنجرشاه، مع جماعة من الأمراء، واتفق أن أصاب صلاح الدين ألم كان ينتابه في جوفه - مغس - مما أرغمه على البقاء في خيمة صغيرة تم نصبها له على تل مشرف على الجيش. فسار الفرنج شرقي نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر، **فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها، فارتاعوا لذلك، واستقبلتهم عناصر الاستطلاع والمقدمات، فأمطرتهم من السهام ما كاد يستر الشمس، فلما رأوا ذلك تحولوا إلى غربي النهر، ولزمهم جند الاستطلاع والمقدمات - الجاليشية - يقاتلونهم، والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً، وكان غرض هذه العناصر من المسلمين دفع الفرنج للقيام**

بالهجوم عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال، فيكون الفصل ويستريح الناس.

ولكن ظهر أن الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم، فلزموا مكانهم، وباتوا ليلتهم تلك، فلما كان الغد عادوا نحو عكا، ليعتصموا بخندقهم، ولكن عناصر استطلاع المسلمين طاردتهم واشتبكت معهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام، وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم. فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يخرجوا بعد ذلك منها، عاد المسلمون إلى خيامهم، وقد قتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً.

نصبت جماعة من المسلمين كميناً للفرنج، قرب عكا، (يوم ٢٣ شوال). وأغارت قوة من المسلمين على الفرنج، فخرجت قوة للفرنج ضمت أربعمائة فارس، فتصدت لها قوة من المسلمين واشتبكت معها، ثم تظاهرت بالانسحاب والتراجع، وتبعهم الفرنج حتى جازوا موضع الكمين، فخرجوا عليهم، فلم يفلت منهم أحد.

اشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري، فصبروا على هذا، وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان، منهم مستحفظ بيروت الأمير أسامه الذي كان يحمل إليهم الطعام وغيره، ومنهم أمير صيدا سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب. وكذلك من عسقلان وغيرها، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً، خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم لهياج البحر -.

خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم، وذلك لما هجم الشتاء وعصفت الرياح، فسيروها إلى بلادهم مثل صور وإلى الجزائر مثل قبرس، فانفتح الطريق إلى عكا في البحر، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسأمة، فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها، وإخراج من فيها. وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر، ونزل تحت جبل حيفا، وجمع المراكب والشواني - السفن - وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم. فدخل إليها

عشرون أميراً. وكان بها ستون أميراً، فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا.

وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم. وكان على خزانة ماله قوم من النصارى، فكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا، نعتوهم بأنواع شق، تارة بإقامة معرفة، وتارة بغير ذلك، فتفرق بهذا السبب خلق كثير، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب.

فانحسر الشتاء والأمر كذلك، وعادت مراكب الفرنج إلى عكا، وانقطع الطريق - إلا من سابح يأتي بكتاب -. وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة، ويأمرهم بالمقام، فإنهم قد جربوا وتدربوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه، فلم يفعل، وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل.

وصلت امدادات الفرنج من الغرب، إلى الفرنج القائمين على حصار عكا، وكان أول من وصل ملك فرنسا - فيليب أغسطس - في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٥٨٢ هـ = ١١٩١ م.

ولم يكن في الكثرة التي ظنوها، وإنما كان معه ست سفن كبيرة فقويت به نفوس من على عكا منهم. ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها. وكان صلاح الدين بشفرعم، فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن الزحف على عكا. وأرسل إلى مستحفظ بيروت - الأمير أسامة - يأمره بتجهيز ما عنده من السفن الكبيرة - الشواني - والمراكب، وشحنها بالمقاتلين، وتسييرها في البحر لمنع الفرنج من الوصول إلى عكا. ففعل ذلك، وسير السفن، فصادفت خمسة مراكب للفرنج مملوأة بالرجال من أصحاب ملك انكلترا - ريتشارد قلب الأسد - الذي كان قد تأخر بقبرس، وأرسلهم أمامه، فاقتتلت سفن المسلمين مع مراكب الفرنج، فانتصر المسلمون عليهم، وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال. وكتب أيضاً صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا. وأما

الفرنج القائمين على حصار عكا فانهم لازموا قتال من بها، ونصبوا عليها سبع منجنيقات (٤ جمادى الأولى). فلما رأى صلاح الدين ذلك، انتقل من شفرعم ونزل عليهم، لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعود عنهم، فقرب منهم، وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم، فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بعكا من المسلمين.

ثم وصل ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد (في ١٣ جمادى الأولى) ومعه خمس وعشرين قطعة كباراً مملوءة رجالاً وأموالاً، فعظم به شرّ الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين، وكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً، وبلي المسلمين منه بالداهية التي لا مثل لها. ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز سفينة كبيرة مملوأة من الرجال والعدد والأقوات، فتجهزت وسيرت من بيروت. وفيها سبعمائة مقاتل، فلقيها ملك انكلترا مصادفة، فقاتلها، وصبر من فيها على قتالها، فلما أيسوا من الخلاص، نزل مقدمها - وهو يعقوب الحلبي - إلى أسفلها فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر، فغرق جميع ما فيها. . . .

مضى عامان وأهل عكا في ضيق وكرب وحصار، وأدرك أمير عكا - سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب - أنه بات من المحال الاستمرار في المقاومة، فقرر الدخول في مفاوضات مع الفرنج لتسليم عكا، فخرج إلى ملك فرنسا ومعه عدة من الأمراء، وعرض تسليم البلد والسماح لأهله المسلمين بالخروج من البلد واللحاق بالمسلمين، فلم يوافق ملك فرنسا، وعاد - المشطوب - إلى عكا، وقد ضعفت نفوس أهلها وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم. ثم أن الأمير بن عزّ الدين الأسدي وابن عز الدين جاولي ومعهم جماعة من الأمراء، خرجوا ليلاً من عكا ولحقوا بمعسكر صلاح الدين، فازداد الناس وهناً إلى وهنهم وضعفاً إلى ضعفهم، وأيقنوا بالهلاك. وأرسل الفرنج إلى صلاح الدين لتسليم عكا بشرط اطلاق أسرى من الفرنج بعدد من كان من المسلمين بعكا، وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت. ووافق صلاح الدين، ولكن الفرنج عادوا واشتطوا في الطلب، فأرسل صلاح الدين إلى أهل عكا وأمرهم بالخروج من عكا يداً واحدة، وأن يتركوا البلد بما فيه، ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي

يخرجون منها بجيشه ويقاتل الفرنج فيها، وشرعوا في ذلك، واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه، فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح، فبطل ما عزموا عليه لظهوره وافتضاح سرّه. وزحف الفرنج بجدهم وحديدهم إلى عكا، فظهر من بالبلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون ـ وكانت هي العلامة إذا اخترمهم أمر ـ فحملوا على الفرنج من جميع جهاتها طلباً منهم أن يشتغل الفرنج عن الذين بعكا، وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم، وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم، ومالوا إلى جهة البلد، فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم، فعاد الفرنج إلى خنادقهم، ومنعوا المسلمين وتركوا في مواجهة عكا من يقاتل أهلها. فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع، ولا يدفع عنهم ضراً، خرج إلى الفرنج، **واتفق معهم على تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم، وأنفسهم، وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين وإعادة صليب الصلبوت، وأربعة عشر ألف دينار للمركيز صاحب صور. فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه. واتفقوا على أن تكون مدة تحصيل المال وإطلاق سراح الأسرى إلى شهرين. فلما حلفوا له سلم البلد إليهم، ودخلوه سلماً يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م. فلما دخلوه وملكوه غدروا واحتجزوا من فيه من المسلمين وأموالهم، وحبسوهم. وأظهروا أنهم يفعلون ذلك حتى يتسلموا ما تم الاتفاق عليه.**

وراسل الفرنج صلاح الدين في إرسال الأموال والأسرى وصليب الصلبوت حتى يطلقوا من عندهم، فشرع في جمع المال، وكان هو الأمان له، إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول، فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار، جمع الأمراء واستشارهم. فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه، وأن يضمن الداوية ذلك. فراسلهم صلاح الدين في ذلك، فقال الداوية: «لا نحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا». وقال ملوكهم: «إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب، فلنا الخيار فيمن عندنا». فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر، فلم يرسل إليهم شيئاً.

أضحى ريتشارد قلب الأسد حريصاً على أن يغادر عكا، وأن يزحف على بيت المقدس، وصار الأسرى المسلمون مصدر حيرة له. فانشرح صدره لما تهيأ له من الذريعة للتخلص منهم، فأعلن في برود شديد يوم الثلاثاء ٢٧ رجب ٥٨٧ هـ (٢٠ - آب - أغسطس - ١١٩١ م) أي بعد أن مضى ما زاد على اسبوع على عودة الرسل إليه، أن صلاح الدين نقض عهده، وأمر بالاجهاز على سبعمائة وألفي أسير من المسلمين الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا. فاشتدت حماسة عساكره للقيام بهذه المجزرة، وأقبلوا على تنفيذها في جذل وسرور.

ولقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم إلى جوارهم. ولم يبقوا على حياة أحد - سوى بعض الأعيان - وبعض الرجال الأشداء للإفادة منهم في أعمال السخرة، وشهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما قد حدث، فاندفعوا لانقاذ ذويهم، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام، فانهم لم يستطيعوا الوصول إليهم. ولما انتهت المذبحة. غادر الانكليز البقعة، وتقدم المسلمون للتعرف على إخوانهم الشهداء، ودفنهم.

قاد ريتشارد الجيش الصليبي يوم الخميس ٢٩ رجب (٢٢ - آب - أغسطس) وغادر عكا، وقد تغيب عن مرافقته عدد كبير من البارونات المحليين. وكان الفرنسيون بقيادة دوق برغنديا في مؤخرة الجيش، قد خرجوا من عكا ساخطين، فما من أحد من العسكر يريد مغادرة المدينة التي ظلوا يعيشون فيها حتى الشهر الأخير في راحة ونعيم، بما توافر فيها من الخبز والطعام، وبمن تكاثر فيها من النساء الساقطات لاشباع شهواتهم. وما من أحد منهم ارتاح لما سمعه من أنه لم يسمح بأن يصحبهم من العاملات في المعسكر سوى الغسالات، غير أن قوة شخصية ريتشارد قهرتهم. أما صلاح الدين فمازال معسكراً في شفرعم، التي تحكمت في الطريقين الرئيسين الممتدين من الساحل، فيتجه أحدهما إلى طبرية ودمشق، بينما يجتاز الطريق الثاني الناصرة إلى بيت المقدس.

عندما علم صلاح الدين برحيل الفرنج، نادى في عسكره بالرحيل، فساروا، ودفع أمامه عناصر الاستطلاع والمقدمات بقيادة ابنه الملك الأفضل ومعه عدة من شجعان الأمراء، فضايقوا الفرنج في مسيرهم، وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس، ووقعوا على مؤخرة قوات الفرنج ـ ساقتهم ـ فقتلوا منها جماعة، وأسروا جماعة، وأرسل الأفضل إلى والده يستمده ويعرفه الحال، فأمر العساكر بالمسير إليه، فاعتذروا بأنهم ما ركبوا بأهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير، فبطل ارسال المدد. وعاد ملك انكلترا ـ ريتشارد ـ إلى ساقة الفرنج فحماها، وجمعهم، وساروا حتى وصلوا **حيفا**، فنزلوا بها. ونزل المسلمون بقرية قريبة منهم ـ اسمها قيمون ـ. وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعوض ما هلك من الخيل، ثم ساروا إلى قيسارية، والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم، ويقتلون على من قدروا عليه منهم، لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا. فلما قاربوا **قيسارية**، لاصقهم المسلمون، وقاتلوهم أشد قتال، فنالوا منهم نيلاً كثيراً. ونزل الفرنج بها. وبات المسلمون قريباً منهم. فلما نزلوا، خرج من الفرنج جماعة فابتعدوا عن جماعتهم، فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا في الاستطلاع، فقتلوا وأسروا منهم. ثم سار الفرنج من **قيسارية إلى أرسوف**، وكان المسلمون قد سبقوهم إليها، ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق. فلما وصل الفرنج إليهم، حمل المسلمون عليهم حملة منكرة ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم. فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد، فولوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد. وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا إقامة الخيام وقت الحرب قريباً من ميدان المعركة، فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم. فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير، والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين، فلو علم الفرنج أنها هزيمة، لتبعتهم، واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون، ولكن كان بالقرب من المسلمين غيضة كثيرة الشجر، فدخلوها، وظنّها الفرنج مكيدة، فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق، وقتل من الفرنج كونت كبير ـ الفارس جيمس أفيسنيز ـ. وقتل من المسلمين مثله. فلما نزل الفرنج، نزل المسلمون وأعنة خيولهم بأيديهم، ثم سار

الفرنج إلى يافا فنزلوها، ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها. وسار صلاح الدين عنهم إلى الرملة - واجتمع بأثقاله بها، وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بتخريب عسقلان، وقالوا له: «قد رأيت ما كان منا بالأمس - عند الهزيمة في أرسوف - وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها، فهم لا شك يقاتلونا عنها، وينزلون عليها. فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها. ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا، ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها». فلم تسمح نفسه بتخريبها، وندب الناس إلى دخولها والدفاع عنها، فلم يجبه أحد إلى ذلك، وقالوا:

«إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد، لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا».

لما رأى صلاح الدين ذلك، سار إلى عسقلان، وأمر بتخريبها (في ١٩ شعبان ٥٨٧ هـ) وألقيت حجارتها في البحر، وهلك فيها من الأموال والذخائر التي للسلطان والرعية مالا يمكن حصره، وعفي أثرها حتى لا يبقى للفرنج فيها مطمع. ولما علم الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها. وكان المركيز - كنراد مونتفيرات - لما أخذ الفرنج عكا، قد أحس من ملك انكلترا بالغدر به، فهرب من عنده ولجأ إلى مدينة صور، وهي له وبيده - وكان رجل الفرنج رأياً وشجاعة وهو الذي أثار هذه الحروب كلها، فلما خربت عسقلان، أرسل إلى ملك انكلترا يقول له: «مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً، ويتقدم على الجيوش. تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها، ولو أنك سرت إليه مجداً فأبعدته عنها لملكتها صفواً عفواً بغير قتال ولا حصار، فإنه ما خرّبها إلا وهو عاجز عن حمايتها وحفظها. وإني لو كنت معك، وحق المسيح، لكانت عسقلان اليوم بأيدينا، لم يخرب منها غير برج واحد».

عندما فرغ صلاح الدين من تخريب عسقلان، رحل عنها (يوم ٢ رمضان ٥٨٧ هـ) ومضى إلى الرملة، فخرب حصنها، وخرّب كنيسة لد، ثم سار إلى القدس

فأعاد تنظيم أمورها ودعم دفاعاتها وزودها بالذخائر والأسلحة والرجال. وعاد إلى معسكره. وخرج ملك انكلترا من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم، فصدمتهم قوة من المسلمين وقاتلتهم قتالاً شديداً حتى كاد ملك انكلترا يؤخذ أسيراً، فحماه بعض أصحابه، ودفعوا حياتهم ثمناً لحمايته. ووقعت معركة أخرى بين طائفة من جند ريتشارد وبين المسلمين، كان النصر فيها للمسلمين. ولما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها، وشرعوا في عمارتها، رحل من معسكره إلى النطرون (١٣ ـ رمضان) وخيّم به، فراسله ملك انكلترا بطلب المهادنة. فكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخي صلاح الدين، فاستقرت القاعدة أن ملك انكلترا يزوج أخته ـ الملكة جوانا، أو اليانور كونتيسة بريتاني ـ من العادل، ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل، ويكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لأخت ملك انكلترا، مضافاً إليها مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها. وأن يرضى الداوية والاسبتارية بما يقع الاتفاق عليه. فعرض العادل ذلك على صلاح الدين، فوافق عليه. فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان إلى أخت ملك انكلترا ـ الملكة جوانا ـ وأنكروا عليها، فامتنعت من الإجابة ـ وقيل كان المانع منه غير ذلك والله أعلم ـ. وكان العادل وملك انكلترا يجتمعان بعد ذلك، ويتجاريان حديث الصلح. وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين، فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له، فاستحسن ذلك. ولم يتم بينهما صلح.

كان ملك انكلترا ـ ريتشارد ـ يفعل ذلك خديعة ومكراً، ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد القدس، فسار صلاح الدين ومعه قوة من الفرسان الخفيفة إلى الرملة، وترك الأثقال بالنطرون. وقرب من الفرنج، وبقي عشرين يوماً ينتظرهم، فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات، في كلها ينتصر المسلمون على الفرنج ـ وعاد صلاح الدين إلى النطرون. ورحل الفرنج من يافا إلى الرمله على عزم قصد القدس (يوم ٣ ذي القعدة) فقرب بعضهم من بعض، فعظم الخطب واشتد الحذر، فكان كل ساعة يقع الانذار في المعسكرين بوقوع المعركة، فلقوا من ذلك شدة شديدة. وأقبل الشتاء فحجز بينهما. ولما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم،

والأمطار متوالية متتابعة، والناس منها في ضنك وحرج من شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم، وكان كثير من العساكر قد طال بعدها عن أوطانها، أذن لهم في العود إلى بلادهم للاستراحة والاستعداد. وسار هو إلى القدس فيمن بقي معه، فنزلوا جميعاً داخل البلد، فاستراحوا مما كانوا فيه ونزل هو بالمسجد الأقصى، مجاور بيعة القمامة - كنيسة القيامة - وقدم إليه عسكر مصر، فقويت نفوس المسلمين بالقدس. وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون (يوم ٣ ذي الحجة) على عزم القدس. فكانت بينهم وبين مقدمات المسلمين ومفارز استطلاعهم وقعات واشتباكات، وأسر المسلمون في وقعة منها نيفاً وخمسين فارساً من مشهوري الفرنج وشجعانهم، وكان صلاح الدين لما دخل القدس، أمر بعمارة سوره، وتجديد ما تداعى منه، فأحكم الموضع الذي ملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل. وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله. فوضع ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة، وأرسل صاحب الموصل أتابك عزّ الدين مسعود جماعة من الجصاصين لهم في قطع الصخر اليد الطولى، فعملوا له هناك برجاً وبدنة. وكذلك جميع الأمراء. ثم إن الحجارة قلت عند العمال، فكان صلاح الدين يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر. فكان يجمع عنده من العمال في اليوم الواحد أكثر ممن يعملون قدر عدة أيام.

علا الفرنج إلى الرملة (في ٢٠ من ذي الحجة). وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل. فلما ابتعدوا عنه، كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الامدادات والمواد التموينية، فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم. ثم إن ملك انكلترا قال لمن معه من الفرنج الذين أقاموا من قبل في الشام: «صوروا لي مدينة القدس فإني ما رأيتها». فصوروها له. فرأى الوادي المحيط بها ما عدا موضعاً يسيراً من جهة الشمال. فسأل عن الوادي وعن عمقه، فأخبر أنه عميق وعر المسالك، فقال: «هذه مدينة لا يمكن حصرها، طالما بقي صلاح الدين حياً، وطالما بقيت كلمة المسلمين مجتمعة. لأننا إن نزلنا في الجانب الذي يلي المدينة، بقيت سائر الجوانب غير محصورة، فيدخل إليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون إليه، وإن نحن افترقنا، فنزل بعضنا من جانب الوادي وبعضنا من الجانب الآخر، جمع صلاح الدين جيشه،

وهاجم إحدى الطائفتين، ولا تستطيع الطائفة الأخرى تقديم المساعدة لأنها إن فارقت مكانها، خرج المسلمون من القدس فغنموا ما فيه معسكرها، وإن تركوا فيه من يحميه وساروا إلى أصحابهم، وإلى أن يعبروا الوادي ويلحقوا بهم، يكون صلاح الدين قد فرغ منهم. هذا سوى ما يتعذر علينا من إيصال ما يحتاج إليه الجند من التموين والامداد». فلما قال لهم ذلك، علموا صدقه، ورأوا قلة الأطعمة والتموين عندهم، وما يجري للجالبين لها على أيدي المسلمين، فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة. فعادوا خائبين خاسرين.

أراد ملك انكلترا ريتشارد تغطية فشله في الوصول إلى القدس، فقرر بناء عسقلان. فسار بجيشه إليها (في محرم سنة ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م). وشرع في تشييد تحصيناتها وخرج بقوة من الفرسان الخفيفة لمهاجمة عناصر استطلاع المسلمين، فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بعض. وبقي صلاح الدين مقيماً في القدس، إلا أن سراياه ما برحت تقصد الفرنج، فتارة تواقع طائفة منهم، وتارة تقطع التموين عنهم، ومن جملتها سرية خرجت على قافلة كبيرة للفرنج فأخذتها وغنمت ما فيها. وكان صلاح الدين قد أرسل إلى مقدم طائفة الاسماعيلية - سنان شيخ الجبل - لقتل ملك انكلترا أو قتل المركيز كنراد مونتفيرات، مقابل عشرة آلاف دينار. فوجد سنان أن قتل ملك انكلترا ليس في مصلحته، لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج، ويتفرغ له ولطائفته، ولكنه رغب في الحصول على المال، فقرر قتل المركيز كنراد فأرسل رجلين في زي الرهبان، واتصلا بصاحب صيدا وصاحب الرمله باليان ابن بارزان، وكانا مع المركيز بصور، وأقاما معهما ستة أشهر وهما يظهران النسك والعبادة، ووثق بهما المركيز، **فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر سنة ٥٨٨ هـ (٢٨ نيسان - ابريل - ١١٩٢) أقام أسقف بوييه مأدبة عشاء، حضرها المركيز، وأكل طعامه، وشرب مدامه، وخرج من عنده، فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحاً وثيقة. وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفي بها - فاتفق أن المركيز حمل إليها لمعالجة جراحه، فوثب عليه ذلك الباطني فقتله، وقتل الباطنيان بعده.**

ونسب الفرنج قتله إلى ملك انكلترا، لينفرد بملك الساحل الشامي. فلما قتل ولي بعده الملك كند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكند هري- الكونت هنري كونت شامبانيا - وتزوج بالملكة - ايزابيللا - وهو ابن أخت ملك فرنسا من أبيه، وابن أخت ملك انكلترا من أمه، وملك الكونت هنري بلاد الساحل، وأصبح ملكاً على الفرنج.

ما إن فرغ الفرنج من تسوية مشكلاتهم الداخلية، حتى وجه ملك انكلترا - ريتشارد - الدعوة إلى الملك هنري - ملك القدس والفرنج - ليلحق به في عسقلان -. وترددت شائعة عن قيام ابن أخ لصلاح الدين بالخروج على طاعة السلطان واستقلاله باقليم الجزيرة. فقرر ريتشارد أن يقوم بهجوم مباغت على حصن الداروم الساحلي والذي يبعد عشرين ميلاً من عسقلان. غير أن هنري ومن معه من الجيش الفرنسي أضاعوا الوقت في اللهو والعبث في عكا. ولهذا لم ينتظر ريتشارد وصولهم، ومضى في زحفه براً وبحراً وأمكن له بعد قتال مرير استمر خمسة أيام أن يقتحم المدينة السفلى، واستسلمت حامية القلعة. ولم يتعلم ريتشارد شيئاً من مروءة صلاح الدين أو من فضائل المسلمين، فتم ذبح رجال الحامية، وجرى تعليق بعضهم على شرفات الحصن. وفرض على سواهم الأسر.

لقد استولى الفرنج الصليبيون على الداروم وهي آخر حصن بقي في قبضة المسلمين على ساحل فلسطين، دون مشقة كبيرة، مما رفع من الروح المعنوية للصليبيين، فقرروا مجدداً الزحف على القدس. ووصل هنري والعساكر الفرنسيون إلى الداروم بعد يوم من استيلاء ريتشارد عليها، فعاد الجيش إلى عسقلان، واتفق الانكليز والفرنسيون على مهاجمة القدس. وسار الجيش الصليبي مرة أخرى من عسقلان، واجتاز الرملة، ووصل إلى النطرون فتوقف فيها، وتلقى صلاح الدين - في القدس - امدادات من الجزيرة والموصل، فلجأ الجانبان إلى المناوشات

وعلم ريتشارد أن قافلة ضخمة للمسلمين قادمة من الجنوب إلى القدس، فانقض

عليها عند أبار الخويلفة الواقعة في أقليم مقفر على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من حبرون - ولم يكن المسلمون مستعدين للهجوم، واستولى ريتشارد على القافلة بعد معركة قصيرة وحاسمة. فصار لدى الفرنج كميات ضخمة من المؤن، وبضعة آلاف من الجياد والإبل، وعاد الجيش الصليبي منتصراً إلى معسكره في بيت نوبة. وارتاع صلاح الدين لضياع القافلة التي أمدت الفرنج بالقدرة لمتابعة الهجوم على القدس ولكن الانباء التي كانت تصل تباعاً للملك ريتشارد عن تدهور الموقف في بلاده - انكلترا - حمله على العودة إلى يافا. وجرت مفاوضات من جديد - تخللها هجوم المسلمين على يافا ثم نجاح ريتشارد في استعادتها.

اقتنع ملك انكلترا بأنه من المحال عليه تحقيق أكثر مما حققه، وأنه لا سبيل له لاستعادة القدس، وليس باستطاعته مفارقة ساحل البحر، وليس للمسلمين بلد يطمع فيه. وقد طالت غيبته عن بلاده وظهرت أمور استدعت عودته، فأرسل إلى صلاح الدين بطلب الصلح، فلم يجبه صلاح الدين ظناً منه أنه يفعل ذلك خديعة ومكراً، على نحو ما فعل من قبل، ورد عليه صلاح الدين بطلب المصاف والحرب. فأعاد ريتشارد رسله مرة بعد مرة، وتوقف عن بناء عسقلان وغزة والداروم والرملة. وأرسل إلى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة، فأشار هو وجماعة الأمراء على صلاح الدين بالإجابة إلى الصلح، وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل. وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم، ونفذ من نفقاتهم، وقالوا له: « إن هذا الفرنجي إنما طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده. فإن تأخرت إجابته إلى أن يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر، نحتاج للبقاء هنا سنة أخرى، وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين ».

استطاع أمراء صلاح الدين اقناعه بالاستجابة لطلب ريتشارد. وعلم صلاح الدين أن خصمه مصاب بالحمى، فأرسل إليه الخوخ والكمثرى، والثلج من جبل الشيخ - حرمون - لتبريد أشربته، وحضر رسل الفرنج، وعقدوا الهدنة، وتحالفوا على هذه القاعدة، وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان إبلين - الذي كان صاحب الرملة ونابلس وهنري كونت شامبانيا، ومقدما الاسبتارية والداوية، **وعقدت الهدنة**

يوم ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ (٢ - أيلول - سبتمبر - ١١٩٢ م) وحددت بمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر. أولها يوم التوقيع على الهدنة.

وأقرت الهدنة للصليبيين احتفاظهم بالمدن الساحلية جنوباً حتى يافا. وأضحى للحجاج الحرية في زيارة الأماكن المقدسة. وللمسلمين والمسيحيين الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر. أما عسقلان فكان لا بد من تدميرها.

قال باليان إبلين لصلاح الدين عندما وقع على اتفاقية الهدنة: «ما عمل أحد في الإسلام ما عملت، ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة، فإننا أحصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة، فكانوا ستمائة ألف رجل، ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد، بعضهم قتلتهم أنت، وبعضهم مات، وبعضهم غرق».

أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة القدس، بعد التوقيع على الهدنة، فزاروها وتفرقوا. وعادت كل طائفة إلى بلادها. وأقام الكونت هنري ملكاً على الفرنج، وكان خير الطبع قليل الشرّ رفيقاً بالمسلمين محباً لهم. وسار صلاح الدين إلى القدس، فأحكم أمورها، وأمر ببناء مدرسة وبيمارستان ورباط فيها. وصام رمضان بالقدس. وعاد إلى دمشق، ففرح به أهل دمشق فرحاً شديداً، لطول غيبته، وذهاب العدو عن بلاد الإسلام. ولكن رحلة العمر انتهت، فانتقل صلاح الدين إلى الرفيق الأعلى★.

بذلك بلغت الحملة الصليبية الثالثة نهايتها، فلن يتوجه ثانية إلى بلاد الشام مثل هذا الحشد الهائل من القوات، ومثل هذا اللفيف من الملوك والأمراء. ومع أن أوروبا الغربية بأسرها اتحدت في ذلك الجهد الكبير، فان ما حصلت عليه

★ صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣ م) توفي عن ٥٧ عاماً قضاها في الجهاد في سبيل الله. مات ولم يخلف في خزائنه غير دينار صوري، وأربعين درهماً، أنفق كل ما تحصل لديه للجهاد، فأخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج، ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال، وأما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت الحصر. ولد في تكريت. وتوفي في دمشق - وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً.

من نتائج كان ضئيلاً . فكل ما حصلت عليه هذه الحملة هو إعادة احتلال عكا، والمدن الساحلية حتى يافا . ولكن الدرس غير المباشر لهذه الحملة كان كبيراً . فقد استنزفت الحملة قدرات المسلمين وامكاناتهم، وأوقفت مدهم المتصاعد . فكان لا بد من انقضاء فترة أخرى قبل تصعيد حركة الجهاد الإسلامي من جديد .

١٢ ـ الصليبيون في دمياط.

انصرف الفرنج والمسلمون إلى أمورهم الداخلية ـ طالما أنه لم تعد هناك قضايا خارجية يشتغلون بها، ولقد كان للفرنج مشكلاتهم المعقدة، والتي لم تكن على كل حال أقل حجماً أو تعقيداً من مشكلات المسلمين. وكان صلاح الدين يدرك ذلك، فحرص على تحقيق التماسك لدولته بأن جعل الأمر فيها لابنه الأفضل، فلما شعر بدنو أجله، استدعى الأمراء وكبار القادة، وأخذ عليهم العهود والمواثيق بالإخلاص لدولته ولبنيه من بعده. وألزمهم بالقسم على ذلك★. ولكن تلك الاجراءات المسبقة التي اتخذها صلاح الدين لم تكن ثابتة ولا مستقرة. فعندما توفي صلاح الدين، **كان معه بها ولده الأكبر الأفضل** نور الدين علي، وحلف له الجند، وملك الساحل والقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم.

وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر، فاستولى عليها واستقر ملكه بها. وكان ولده **الظاهر غازي بحلب** فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك. ولم يكن قد بقي على قيد الحياة من أخوة صلاح الدين، عند وفاته سوى: **طغتكين**، الذي سبق أن خلف نورانشاه في الإمارة على اليمن. ثم **العادل**، الذي كان من الطموح ما جعل صلاح الدين يرتاب

★ كان نص القسم كالتالي: «إنني من وقتي هذا، قد أصفيت نيتي، وأخلصت طويتي للملك الناصر ـ صلاح الدين ـ وانني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، ممتثلاً أمره، واقفاً عند مراضيه، ثم من بعده لولده الملك الأفضل علي. ووالله انني في طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، وأمتثل أمره ونهيه، وباطني وظاهري في ذلك سواء. والله على ما أقول وكيل».

النوادر السلطانية ـ ابن شداد ـ نشر الدكتور الشيال، ص: ٢٤٥.

فيه. فترك له اقطاع الرهـا وما حولها من بلاد الجزيرة، بالاضافة إلى اقطاع البلاد الواقعة وراء نهر الأردن. وحاز أبناء أخوة صلاح الدين وأبناء عمومته اقطاعات صغيرة. أما الأميران الزنكيان: عزالدين وعماد الدين، فحازا الموصل وسنجار، فيما استقر الامراء الأراتقة في ماردين وحصن كيفا، وبقيت خلاط في قبضة أشهر أمراء صلاح الدين ـ الامير بكتمر ـ.

وبوفاة صلاح الدين أخذت الجبهة الإسلامية بـالتـداعـي والتمـزق. فبينما ظهـر التحاسد بين أبناء صلاح الدين، تحرك الشمال الشرقي لإعادة حكم الزنكيين في شخص أمير الموصل عز الدين، الذي سانده بكتمر والأمراء الأراتقة. ولم ينقذ الأيوبيين إلا ما اتخذه العادل من التدابير العاجلة والناجعة، والتي مارست فيها يد القدر لعبتها، حيث توفي الأميرين عز الدين وبكتمر في السنة ذاتها (٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م). ولكن، ومع زوال هذا الخطر، ظهر التمزق في الجنوب، حيث خرج الملك العزيز بجيشه من مصر، وهاجم دمشق. فأرسل الأفضل إلى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وهو صاحب الديار الجزريه، يستنجده، وكان الأفضل يثق بعمه الثقة كلها ويعتمد عليه الاعتماد كله. فسار الملك العادل إلى دمشق هو والملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، وناصر الدين محمد بن تقي الدين صاحب حماه، وأسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه صاحب حمص، وعسكر الموصل وغيرها. فلما رأى العزيز اجتماعهم عرف أنه لا يستطيع الاستيلاء على دمشق، وترددت الرسل حينئذ في الصلح، وتم الاتفاق على أن تكون القدس وما يجاورها من أعمال فلسطين للملك العزيز حاكم مصر، وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها والغور للأفضل، وأن يعطي الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية. وكان الخاسر الوحيد في هذه الصفقة هو الملك الأفضل، كما أن الملك العادل لم يكسب شيئاً في هذه الجولة، سوى أنه أصبح الحكم فيما ينشب بين إخوته من خلافات.

عاد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، فقاد جيشه في السنة التالية (٥٩١ هـ = ١١٩٥ م) وخرج به من مصر قاصداً دمشق، وأسرع الأفضل مرة أخرى لطلب

النجدة من عمه الملك العادل، ولم يستمع لنصح أخيه الظاهر غازي صاحب حلب الذي قال له:

«أخرج عمنا من بيننا، فإنه لا يجيء علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد. وأنا أعرف به منك، وأقرب إليه، فانه عمي مثل ما هو عمك. وأنا زوج ابنته. ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكنت أنا أولى به منك». فأجابه الأفضل: «أنت سيء الظن في كل أحد. أي مصلحة لعمنا في أن يؤذينا، ونحن إذا اجتمعت كلمتنا وسيرنا معه العساكر من عندنا كلنا، ملك من البلاد أكثر من بلادنا ونربح الذكر الحسن».

سار العادل لنجدة الأفضل، وانحاز أمراء الملك العزيز إلى العادل والأفضل، مما أرغم الملك العزيز على الفرار والعودة إلى مصر. ولكن الأفضل وعمه العادل سارا إلى مصر وانضم جند مصر إلى الملك الأفضل، فخاف العادل من امتلاك الأفضل لمصر بالاضافة الى الشام، فمنع الصدام بين الاخوين. وأجرى اتصالات سرية مع العزيز، وتم الاتفاق على إعادة القدس لحكم الأفضل، بالاضافة إلى جميع البلاد بفلسطين والأردن، وأن يبقى العادل مع ابن أخيه العزيز في مصر. ولكن هذا الاتفاق الجديد لم يعمر طويلاً. فقد اتفق العادل مع العزيز على توجيه جيش للاستيلاء على دمشق. وتم تنفيذ ذلك سنة ٥٩٢ هـ = ١١٩٦ م) واعتزل الأفضل بمدينة صلخد وانصرف للعبادة والتقوى. وتدخلت يد القدر مرة أخرى لمصلحة الملك العادل، فقد توفي الملك العزيز بعد سنتين في سنة (٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م). وأصبح الملك العادل ملكاً على مصر والشام، وأخضع سائر الأمراء الأيوبيين لحكمه. وأعاد تنظيم المملكة، فتولى الكامل - أكبر أبناء العادل - الحكم في مصر. وتولى ثاني أبنائه - المعظم عيسى - حكم دمشق. بينما تولى ابنه الثالث - الأشرف - حكم معظم بلاد الجزيرة. وبذا عادت الوحدة الإسلامية تحت قيادة الملك العادل الذي لم تكن له مثل كفاءة أخيه صلاح الدين، ولكن ربما كان أكثر منه مكراً ودهاء.

لقد أفاد العادل من الهدنة التي وقعها صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد فلما مات صلاح الدين تم تجديد هذه الهدنة لمصلحة الطرفين. ولكن حدث في سنة ٥٩٣ هـ = ١١٩٧ م، ما أوجب نقض هذه الهدنة.

كانت مدينة بيروت تحت حكم الأمير أسامة. فدأب على ارسال السفن الكبيرة - الشواني - لقطع الطريق على الفرنج. فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة إلى الملك العادل بدمشق وإلى الملك العزيز بمصر. فلم يمنعا أسامه من ذلك، فأرسل فرنج الشام إلى ملوكهم - في قبرص وأوروبا - يشتكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون. وقالوا لهم: « إن لم تنجدونا أخذ المسلمون البلاد ». فأجابهم الفرنج بارسال امدادات كثيرة. ولم يلبث ملك الألمان هنري السادس أن وجّه حملة ضخمة، بقيادة القس كنراد - فلما علم العادل بذلك، أرسل بطلب جيش مصر وجيش الجزيرة والموصل، فجاءته الأمراء، واجتمعوا على عين جالوت، فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال (سنة ٥٩٣ هـ).

ورحلوا إلى يافا، وملكوا المدينة، وامتنع من بها من المقاتلين بالقلعة التي لها، فخرب المسلمون المدينة، وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهراً بالسيف في يومها. وأخذوا كل ما بها غنيمة وأسراً وسبياً. ووصل الفرنج من عكا إلى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا، فوصلهم الخبر بها بملك المسلمين لها، وكان سبب تأخرهم أن ملكهم - هنري كونت شامبانيا - سقط من موضع عال بعكا، فمات. فاختلفت أحوالهم، وتأخروا لذلك. وعاد المسلمون إلى عين جالوت، **فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت**، فرحل العادل والعسكر (في ذي القعدة) إلى مـرجعيـون، وعزم على تخريب بيروت. فسار إليها جمع من العسكر، وهدموا سور المدينة، وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة، فمنعهم أسامة من ذلك، وتكفل بحمايتها والدفاع عنها. ورحل الفرنج من عكا إلى صيدا. وعاد عسكر المسلمين من بيروت. فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيدا، وجرى بينهم مناوشة، فقتل من الفريقين جماعة، وحجز بينهم الليل، وسار الفرنج إلى بيروت، فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين. فملكها الفرنج صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال. فكانت غنيمة باردة. فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقي منها. وسار جند المسلمين إلى صور، وأقاموا عليها، فقطعوا أشجارها وخربوا مالها من قرى وأبراج. فلما علم الفرنج بذلك، سارت قوات الحملة الألمانية من بيروت، إلى صور وأقاموا عليها، ونزل المسلمون عند قلعة هونين. وسمح الملك العادل لجند الجزيرة والموصل بالعودة إلى بلادهم، ظناً منه

أن الفرنج يقيمون ببلادهم. وأراد أن يعيد جند مصر أيضاً، فجاءته المعلومات بأن الفرنج - الألمان - يريدون محاصرة حصن تبنين والاستيلاء عليه. فسير العادل قوة لحمايته والدفاع عنه. وسار الفرنج من صور ونازلوا تبنين (أول صفر سنة ٥٩٤ هـ = ١١٩٨ م). وقاتلوا من به، وجدوا في القتال ونقبوه من جهاتهم. ولما رأى المسلمون المدافعون عن حصن تبنين ما أحدثه الألمان من نقوب خربت القلعة، ولم يبق إلا أن يملكوها بالسيف. بادروا إلى إجراء مفاوضات مع قائد الألمان - القس كنراد - وعرضوا عليه تسليم القلعة بمن في سجونها من أسرى الصليبيين والذين بلغ عددهم خمسمائة أسير، مقابل الإبقاء على حياة رجال الحامية وممتلكاتهم الشخصية. غير أن كنراد أصرّ على التسليم بدون قيد ولا شرط.

وإذ حرص بارونات الفرنج على الاحتفاظ بصداقة العادل، وخافوا مما تثيره المذبحة في رجال الحامية من الدعوة إلى الجهاد، أرسلوا إلى السلطان العادل ينذرونه أن الألمان لن يبقوا على حياة أحد من رجال الحامية.

فاستمات المسلمون في الدفاع عن الحصن، ووصل دعم من مصر، وشعر الألمان بالتعب والإرهاق، وخفت حماستهم، وأظهر عدد كبير من قادتهم رغبته بالعودة إلى ألمانيا. وفي تلك الأثناء وردت إلى عكا الأنباء بوفاة امبراطور ألمانيا هنري السادس. فقرر كنراد ورفاقه التخلي عن الحصار، والانسحاب إلى صور ومنها إلى عكا. ولكن هذا الانسحاب أخذ شكل هزيمة وفرار خوفاً من الصدام مع جيش مصر. ولم تنقض إلا بضعة أيام حتى شرع الجيش الألماني بركوب السفن من عكا راجعاً إلى بلاده.

وفشلت الحملة الألمانية فشلاً ذريعاً، إذ لم تحقق تلك الانتصارات الرائعة التي كانت تحلم بتحقيقها عند قدومها. ولم تفعل شيئاً سوى احتلال بيروت. وخلفت وراءها - في عكا - طائفة دينية جديدة حملت اسم (فرسان التيوتون) الذين أقاموا بحي خاص في عكا، واشتروا بعدئذ قلعة مونتفورت الواقعة على التلال المسيطرة على صور، وأطلقوا عليها اسم (شتاركنبرغ).

كانت زوجة هنري كونت شامبانيا - ايزابيلا - قد تزوجت بعد موت زوجها

(في ١٠ ـ أيلول سبتمبر ـ سنة ١١٩٧ م) بملك قبرص ـ املريك ـ لتوحيد مملكتي الفرنج (القدس وقبرص) . ولهذا فما إن انسحبت القوة الألمانية حتى بادر املريك في إجراء المفاوضات مع العادل لعقد هدنة جديدة، **وتم عقد هذه الهدنة في شعبان ٥٩٤ هـ (أول ـ تموز ـ يوليو ـ سنة ١١٩٨ م)** . ونصت هذه المعاهدة، على أن تبقى يافا في حكم المسلمين مقابل الاعتراف ببقاء بيروت وجبيل للفرنج، ويقتسم الطرفان مدينة صيدا ، **وتقرر أن يكون أجل المعاهدة خمس سنوات وثمانية أشهر .**

لم تكن الحملة الصليبية الألمانية السابقة سوى مقدمة لما كانت تعده ألمانيا . ففي سنة ٥٩٥ هـ = ١١٩٩ م . وجه تيبالدكونت شامبانيا الدعوة إلى أصدقائه وجيرانه الأمراء للحضور إلى حفل في قلعة ايكري على نهر الاين . وجرى في الحفل بحث توجيه حملة صليبية جديدة . واستجاب الحضور لهذه البادرة الصادرة عن ابن أخ ـ غير شقيق ـ لريتشارد قلب الأسد ، وابن اخت ـ غير شقيقة ـ لملك فرنسا فيليب اغسطس ، وشقيق ملك فلسطين السابق ـ هنري كونت شامبانيا . وجرى اخطار البابا ـ انوسنت الثالث ـ بالاتفاق على توجيه هذه الحملة ، ووضعت هذه الحملة هدفاً لها هو توحيد الكنيسة البابوية مع كنيسة القسطنطينية ، وكان ذلك أمراً بالغ الأهمية بالنسبة للبابا الذي طالما عمل أسلافه على بذل الجهود لتوحيد الكنيسة ، وحرمان الكنيسة الشرقية ـ الارثوذكسية ـ من استقلاليتها . فاتخذ انوسنت الثالث خطوة تمهيدية لذلك بأن استهل المفاوضات مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث ، عن توحيد الكنيستين .

وكان الكسيوس الثالث هذا قد دبر مؤامرة ضد أخيه الامبراطور إسحق ، فعزله وسمل عينيه وألقى به في السجن مع ابنه الكسيوس الصغير (سنة ٥٩١ هـ = ١١٩٥ م) فلما كانت سنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م ـ هرب الكسيوس الصغير من السجن في القسطنطينية ، واتخذ طريقه إلى بلاط اخته ايرين انجلينا ، زوجة فيليب دوق سوابيا . وتصادف في تلك الفترة أن مات تيبالدكونت شامبانيا ، فأجمع الامراء والبارونات على انتخاب بونيفاس مونتفيرات ليكون قائداً للحملة . وقام بونيفاس مونتفيرات بزيارة فيليب دوق سوابيا الذي قدم له شقيق زوجته الكسيوس الصغير ، وأظهر له رغبته في إعادة الكسيوس إلى عرش القسطنطينية ، وبذلك تصير الامبراطورية الشرقية تابعة

للامبراطورية الغربية ـ الألمانية ـ ويتحقق بذلك الحلم الذي عجز عن تحقيقه امبراطور الغرب السابق ـ هنري السادس ـ. وتم الاتفاق على أن تتوجه هذه الحملة إلى القسطنطينية.

لقد تطلب إعداد الحملة وقتاً طويلاً، ولم تصل قواتها إلى القسطنطينية حتى صيف سنة ١٢٠٣م فهرب الكسيوس الثالث، وتم تنصيب الكسيوس ابن اسحق امبراطوراً ـ باسم الكسيوس الرابع، وإذ عجز هذا عن تلبية نهم حلفائه الفرنج الذين جاؤوا به إلى الحكم، قامت ثورة ضده، وتم قتله (في شباط ـ فبراير ـ سنة ١٢٠٤). وقام الفرنج بهجوم على القسطنطينية ودمروها تدميراً مريعاً. وقد تعرضت المصادر التاريخية لوصف بعض ما حدث بقولها:

«ليس لنهب القسطنطينية مثيل في التاريخ، إذ ظلّت المدينة العظيمة تسعة قرون عاصمة للمدنية المسيحية، فزخرت بما تخلف عن بلاد اليونان القديمة من الأعمال الفنية، وحفلت بما أجراه صناعها المهرة من الروائع. والواقع أن البنادقة ـ أهل البندقية ـ أدركوا قيمة هذه الروائع، فاستولوا على كل ما وصلت إليه أيديهم ونقلوه إلى مدينتهم، فزينوا بها الميادين والكنائس والقصور. أما الفرنسيون والفلمنكيون، فتسلطت عليهم شهوة التدمير، فاندفعوا كالكلاب المسعورة يجوبون الشوارع، ويقتحمون الدور، ينتزعون كل ما يلمع ويبرق. أو ينقضوا على مستودعات النبيذ لينتشوا منها. وهم في سيرهم يدمرون كل ما لا يستطيعون حمله، وكانوا كالعاصفة لا يتوقفون إلا لينهبوا أو يقتلوا. وامتدت يد النهب والتدمير حتى الأديرة والكنائس والمكتبات.

بل حدث في كنيسة القديسة صوفية ذاتها، أن جرت مشاهدة العساكر السكارى يمزقون الستائر الحريرية، ويحطمون الأواني الفضية الكبيرة. وداسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والايقونات. وبينما كانوا يتناولون الشراب في أواني المذبح مبتهجين، تربعت عاهرة على كرسي البطريرك، وأخذت تردد أغنية فرنسية بذيئة. وتعرضت الراهبات للاغتصاب في أديرتهن.

ولم تجر التفرقة بين القصور والأكواخ فيما تعرضت له من الهجوم والتدمير. وأخذ الجرحى من النساء والأطفال يلفظون أنفاسهم في الشوارع. وظلّت مناظر النهب وسفك الدماء المريعة مستمرة ثلاثة أيام. حتى أضحت المدينة الضخمة الجميلة شبيهة بسوق اللحوم. وهتف المؤرخ نكيتاس في صدق: إن المسلمين لأكثر منهم رحمة»★ «وليس بوسع أحد أن يحصي الذهب والفضة، ولا الصحون والجواهر، ولا الثياب الحريرية الفاخرة، أو المنسوجات الحريرية الثمينة، أو الثياب المصنوعة من فراء الفندس. أو الفراء الرمادي الفضي، أو فراء السنجاب... إنه منذ خلق الله العالم، لم ينزع من مدينة واحدة من الأشياء مثلما أخذ من القسطنطينية. وتقرر تقسيم كل هذه الغنيمة وفقاً لأحكام المعاهدة؟ بأن صار للفرنج الصليبيين ثلاث أثمانها، وللبنادقة ثلاث أثمانها، بينما صار الربع من نصيب الامبراطور المقبل».

هكذا انتهت الحملة الصليبية المعروفة باسم الحملة الصليبية الرابعة سنة ستمائة للهجرة (١٢٠٤ م) بتدمير القسطنطينية. وخاب أمل الفرنج بالشام من إمكان حصولهم على دعم جديد بالقدرة البشرية المقاتلة. كما خاب أمل المسيحيين في المشرق. فقد حدث عكس ما كان يتوقعه البابا والفرنج، وعوضاً عن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، زاد الانقسام عمقاً واتساعاً. والأهم من ذلك، هو زوال هيبة دولة الروم التي كانت تعتبر نفسها حامية للمسيحية ضد المسلمين في الجنوب، وضد البرابرة في الشمال.

يمكن أن يضاف إلى هذه الحملة التي عرفت أيضاً باسم - الحملة المنحرفة - لانحرافها عن قتال المسلمين لقتال المسيحيين، تلك الحملة التي اشتهرت باسم (**حملة الأطفال**). والتي بدأت التبشير لها في سنة ٦١٢ هـ (١٢١٢ م) عندما تقدم صبي اسمه ستيفان وعمره اثنتي عشرة سنة ويعمل راعياً، إلى ملك فرنسا فيليب أغسطس، الذي كان يعقد محكمته في مدينة كلوي الصغيرة، وقدم إليه رسالة زعم أن المسيح

★ انظر الكامل في التاريخ ابن الأثير - أحداث سنة ستمائة - وتاريخ الحروب الصليبية: ١٩٥/٣ - ٢٣٥. وذكر أبو شامة - أن البنادقة باعوا قدراً كبيراً من الغنيمة للمسلمين. (أبو شامة: ١٥٤/٢).

بشخصه قد أعطاها له، وأمره بأن يمضي فيدعو إلى الحرب الصليبية. ولم يهتم ملك فرنسا بالراعي الصغير، وطلب إليه أن يعود إلى داره. والمعروف أنه في الخمس عشرة سنة السابقة ظلّ المبشرون يطوفون بالقرى، يحضون على الاشتراك في حملة صليبية لقتال المسلمين في اسبانيا أو في بلاد الشام. فكان من اليسير أن يتأثر صبي شديد العاطفة بفكرة أنه بوسعه أيضاً أن يكون مبشراً، وأن يبز بطرس الناسك، الذي بلغت بسالته وإقدامه في القرن الماضي من الجلال والتعظيم ما جعله أسطورة من الأساطير. ولهذا لم ينزعج الصبي ستيفان من استخفاف الملك به. فشرع في التبشير عند مدخل دير القديس دينية ذاته، وأعلن أنه سوف يقود جماعة من الأطفال لإنقاذ العالم المسيحي، وسوف تجف البحار أمامهم، وسوف يجتازون البحر مثلما فعل موسى عندما اجتاز البحر الأحمر، فيصلون سالمين الى الأرض المقدسة. وقام بعدئذ بجولة في أنحاء فرنسا، فاستجاب له آلاف الأطفال الذين لم يتجاوز عمر الواحد منهم الثانية عشرة ربيعاً. وكان معظمهم من ابناء الفلاحين السذج، باستثناء عدد قليل من الصبيان الذين انحدروا من أسر النبلاء، ففروا من دورهم، ولحقوا باستيفان وأتباعه (الأنبياء الصغار). وكان معهم أيضاً فتيات صغيرات وبضعة قسس صغار، فضلاً عن جماعة قليلة من الحجاج الذين يكبرونهم في العمر، اجتذبت بعضهم التقوى، بينما كان الدافع للآخرين، على ما يبدو، الرحمة. ومن المؤكد أن هناك جماعات أخرى لم تنضم إليهم إلا لتشارك في الهدايا التي سوف تنهمر عليهم جميعاً. وقدمت الجماعات متزاحمة إلى مدينة ـ فندوم ـ التي احتشد فيها ثلاثين ألف طفل، وقد رأس كل جماعة منها قائد حمل العلم الفرنسي الأحمر القديم، والذي اتخذه ستيفان شعاراً لحملته الصليبية. وسارت الحملة نحو الجنوب ـ في حزيران ـ يونيو ـ ومات عدد كبير من الأطفال على جانبي الطريق من الجوع والعطش، حتى وصلوا إلى مرسيليا. وأسرعوا نحو البحر ليعبروه، ولكن البحر لم ينشق لهم. وحدث بعد بضعة أيام أن جاء تاجران من تجار مرسيليا ـ اسم أحدهما هيو الصلب، واسم الثاني وليم الخنزير، فعرضا على الأطفال نقلهم بالسفن إلى فلسطين. وقبل ستيفان العرض بفرح كبير. ومضت ثماني عشرة سنة دون أن ترد عنهم أنباء.

ظهر في تلك الفترة ذاتها حركة مشابهة في ألمانيا تزعمها طفل اسمه نقولا - من قرية ببلاد الراين. واشتهر نقولا بما اشتهر به بطرس الناسك من البلاغة والفصاحة، فمضى في دعوته وتبشيره عبر بلاد الراين من أقصاها إلى أقصاها، وأمكن له جمع حشد من الأطفال - في كولونيا -. وتجهز للمضي إلى ايطاليا والبحر. على أن متوسط العمر للأطفال الألمان قد زاد قليلاً على ما كان عليه عمر أقرانهم من الفرنسيين. كما أن نسبة الفتيات زادت عندهم عما كانت عليه لدى الفرنسيين. وكان بينهم من أبناء الأشراف مازاد في العدد على ما كان عند الفرنسيين. وانحاز إليهم أيضاً عدد أكبر من ذوي السمعة السيئة ومن المتشردين والعاهرات. وانقسمت الحملة الى قسمين - تولى نقولا نفسه قيادة القسم الأول الذي ضم عشرين ألف طفل، وسار بهم من الراين إلى بازل، فمدينة جنيف إلى أن وصلوا جنوه، وكانت رحلة شاقة هلك فيها قسم من الأطفال. أما القسم الثاني من الحملة فاجتاز وسط سويسرا، واخترق ممر سانت جوثار. ووصلوا إلى البحر عند انكونا، ولما لم ينفرج لهم البحر، ساروا إلى برنديزي.

عثر أطفال القسم الأول من الألمان على سفينتين نقلت عدداً كبيراً من الأطفال الذين لم يعرف بعد ذلك مصيرهم لفترة طويلة. وركب آخرون البحر أيضاً على سفن متفرقة. فيما استقر عدد كبير من الأطفال في جنوه. وفي سواها من المدن الايطالية.

وصل إلى فرنسا سنة ١٢٣٠ م قسّ قدم من الشرق، وأخذ يروي قصة غريبة: إذ قال أنه كان أحد القسس الصغار الذين رافقوا ستيفان إلى مرسيليا، وأنه استقل معهم السفن التي قدمها التاجران إلى الأطفال. وعددها سبع سفن. ولم تنقض إلا بضعة أيام عليهم في البحر حتى جابهتهم عاصفة دمرت سفينتين على جزيرة سانت بيترو. أما السفن الخمس التي نجت من العاصفة، فلم تلبث أن وقعت في قبضة اسطول إسلامي من الجزائر. وأدرك الأطفال أنهم لم يحملوا إلى تلك الجهات إلا بناء على اتفاق مسبق، كيما يباعوا أسرى. فتم نقلهم جميعاً إلى بوجيه على شاطىء الجزائر. حيث تم بيع عدد كبير منهم عند وصولهم، فأمضوا حياتهم في الأسر. على حين جرى حمل الآخرين على السفن - ومنهم القس - فنقلوا إلى مصر. حيث اشترى أمير الاسكندرية الجانب

الأكبر من الحمولة، فاستخدمهم في زراعة أراضيه، وذكر القس أنه لازال منهم على قيد الحياة زهاء سبعمائة. وأنه لم ينقل منهم إلى بغداد سوى جماعة قليلة العدد. وكان القسس الصغار، والفئة القليلة التي تعرف القراءة والكتابة، هم الأوفر حظاً من سواهم. إذ أن حاكم مصر العادل بن السلطان الكامل، كان مهتماً باللغات الأجنبية، فاشتراهم واستبقاهم عنده، واستخدمهم على أنهم مترجمون ومعلمون وكتاب، ولم يرغمهم على اعتناق الإسلام. فأقاموا بالقاهرة. وتبعاً لذلك جرى إطلاق سراح هذا القس الذي عاد إلى فرنسا ليقص قصة (حملة الأطفال).

لقد ساعد فشل الحملة الصليبية الرابعة، وانصراف السلطان العادل لتوطيد دعائم الدولة الأيوبية، على حرص الفرنج والمسلمين، سواء بسواء، على المحافظة على شروط الهدنة، وتجديدها كلما اقتضى الأمر.

ولكن ذلك لم يمنع حدوث معارك صغرى، واشتباكات محدودة. ففي سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م. وهي السنة التي سارت فيها القوات الصليبية إلى القسطنطينية ودمرتها، وصلت إلى عكا جموع من الفرنج، وهدفها مهاجمة القدس وانتزاعها من قبضة المسلمين. فغادر الفرنج عكا، ووصلوا إلى نواحي الأردن، فنهبوا كثيراً من بلاد الإسلام، وسبوا وفتكوا. وكان الملك العادل بدمشق، فأرسل في جمع الجند من الشام ومصر. وسار بمن معه من القوات فنزل عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الإسلام. ونزل الفرنج بمرج عكا، وأغاروا على كفركنا، فأخذوا كل من بها وأموالهم، والأمراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها، فلم يفعل. فبقوا على ذلك حتى دخلت سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م، حيث اصطلح هو والفرنج، ونزل العادل للفرنج عن كثير من المناصفات في الرملة وغيرها، وأعطاهم الناصرة وغيرها. وسار إلى مصر، فقصد الفرنج مدينة حماه، فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب، فقاتلهم، وكان في قلة من الجند، فهزموه وأدخلوه حماه، فخرج العامة إلى قتالهم، فقتل الفرنج منهم جماعة، وعاد الفرنج إلى الساحل. حيث وجهوا قوة بحرية إلى مصر، فنهبوا مدينة فوه، وأقاموا خمسة أيام وهم ينهبون ويسبون

وعساكر مصر مقابلهم، بينهم النيل، وليس لهم سبيل للوصول إليهم بسبب عدم وجود السفن. ثم عاد الفرنج بما غنموه إلى عكا.

كانت شروط الهدنة قائمة سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) عندما قام الفرنج في قبرص بالاستيلاء على عدد من سفن الاسطول المصري، وأسر من فيها. ولما كان ملك قبرص هو ملك الفرنج بالشام، فقد أرسل إليه الملك العادل احتجاجاً، جاء فيه: «نحن صلح، فلم غدرتم بأصحابنا؟» وطلب إليه ردّ ما أخذوا. فاعتذر ملك قبرص بأن الفرنج الذين استولوا على القسطنطينية هم المسؤولين عن العملية، وأنه لا سلطة له عليهم. ولكن حدث في تلك الفترة أن عاد حكم قبرص إلى صاحب عكا والفرنج بالشام. فأعاد العادل مراسلته، فتجاهل ملك عكا وقبرص الطلب. مما حمل السلطان العادل على قيادة جيشه، والخروج به من مصر إلى الشام. وكان الفرنج قد حشدوا قوات كبيرة بطرابلس، وحصن الأكراد، وأكثروا الإغارة على مدينة حمص وريفها. ونازلوا على مدينة حمص. فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بهم قوة، ولا يقدر على دفعهم أو منعهم، فاستنجد بملوك الشام، فلم ينجده إلا صاحب حلب الظاهر غازي الذي أرسل جيشاً إلى حمص للدفاع عنها. وسار الملك العادل بجيش مصر إلى عكا، فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرت من إطلاق سراح أسرى المسلمين وغير ذلك، ثم سار العادل إلى حمص، فنزل على بحيرة قدس (قطينة) وجاءته عساكر الشرق وديار بكر والجزيرة. فحاصر موضعاً يسمى القليعات، وأخذه صلحاً، وأطلق صاحبه، وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه. ودخل الشتاء، وعادت العساكر إلى أوطانها. وسار العادل إلى دمشق.

استمرت الهدنة حتى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) حيث قدم ملك قبرص (يوحنابريين) إلى عكا، ليعقد قرانه على ملكة القدس (ماريا). حيث تم عقد القران في صور. وبينما كان رجال البلاط يشهدون حفلة التتويج، أغار الملك المعظم عيسى على ضواحي عكا، غير أنه لم يهاجم المدينة ذاتها، وفي صيف سنة ٦٠٨ هـ = ١٢١١ م. وافق الملك يوحنابريين لبعض أتباعه بالاشتراك مع طائفة فرسان الداوية بالاغارة على دمياط في مصر. غير أن هذه الحملة لم تظفر بشيء.

وجرت المفاوضات مع الملك العادل، فتم ابرام عقد لمدنة مدتها خمس سنوات، على أنه لم يبدأ تنفيذها إلا في صيف سنة ٦٠٩ هـ = ١٢١٢ م. وأرسل يوحنابريين في الوقت ذاته رسائل إلى البابا. (في روما) يطلب إليه أن تكون الحملة الصليبية الجديدة مستعدة للقدوم إلى فلسطين عند انقضاء أجل المدنة.

كان البابا أنوسنت قد أدرك النتائج الخطيرة لتوجيه الحملة الرابعة إلى القسطنطينية، وعرف أنه من المحال استعادة القدس بحملات الأطفال، فشرع في التحريض لتنظيم الحملة الصليبية الخامسة. وكان دوق برغنديا، ودوق اللورين أول من استجاب للدعوة، وشرعا في الاعداد للحملة الموعودة. وانصرف البابا انوسنت لحل الخلاف بين جنوه وبيزا - حتى تسهما معاً في نقل قوات الحملة إلى فلسطين. وكتب إلى السلطان العادل، يحذره بما سوف يحل به من الغضب، إن هو لم يتنازل للفرنج عن القدس. ولكن العادل تجاهل هذا التحذير، وفيما كان الاعداد للحملة يسير نحو نهايته، مات البابا انوسنت الثالث (سنة ٦١٣ هـ = ١٢١٦ م). فخلفه هونوريوس الثالث (واسمه الكاردينال سافيللي). وأخذ على عاتقه تنسيق التعاون بين ملوك أوروبا وامرائها لتوجيه الحملة في الوقت المناسب.

أخيراً بعد عشرين عاماً من السلم المضطرب بين الفرنج والمسلمين في بلاد الشام، وبعد اعداد استمر أربع سنوات، وصلت إلى عكا طلائع الحملة الصليبية الخامسة (سنة ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م). وقد ضمت هذه الحملة قوات من سائر أنحاء أوروبا، ومن فرنسا والمجر والنمسا بصورة خاصة.

وأصدر ملك عكا (يوحنابريين) تعليماته إلى القوات المحتشدة بالسير فوراً إلى الجليل. وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر، فسار منها إلى الشام، فوصل إلى الرملة، ثم سار منها إلى اللد. وتوجهت قوات الفرنج لقتاله، فسار العادل نحوهم، عازماً على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم. فساروا هم وسبقوه، وعندها نزل العادل على بيسان من الأردن، فتقدم إليه الفرنج عازمين على محاربته لعلمهم أنه في قلة من العسكر، لأن العساكر كانت متفرقة في البلاد، فلما رأى

العادل قربهم منه، تجنب الاشتباك معهم خوفاً من هزيمة تنزل بقواته الضعيفة العدد، وكان حازماً كثير الحذر، ففارق بيسان نحو دمشق، ليقيم بالقرب منها، ويرسل إلى البلاد ويجمع العساكر. فوصل إلى مرج الصفر ونزل فيه. وكان أهل بيسان وتلك الأعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا، ولم يفارقوا بلادهم، ظناً منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه. فلما أقدموا، بوغت المسلمون بوصولهم. ولم يتمكن من النجاة إلا القليل. وأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت، وكانت كثيرة، وغنم الفرنج غنائم ضخمة. ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس، وبثوا السرايا في القرى، فوصلت إلى خسفين ونوى (في سهل حوران) ونازلوا بانياس وأقاموا على حصارها ثلاثة أيام. ثم عادوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والأسرى ما لا يحصى كثرة، سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا. فأقاموا أياماً للراحة، ثم ساروا إلى صور، وقصدوا بلد الشقيف، ونزلوا وبينهم وبين بانياس مقدار فرسخين. فنهبوا البلاد: صيدا والشقيف، وعادوا إلى عكا.

سير الملك العادل قطعة جيدة من الجيش إلى نابلس بقيادة ابنه المعظم عيسى الذي كان يحكم دمشق، وذلك ليمنع الفرنج من الوصول إلى القدس. ولكن الفرنج لم يعودوا إلى القدس، بل تحركوا من عكا، ومعهم آلات الحصار من مجانيق وغيرها، وقصدوا قلعة الطور القريبة من عكا، فحاصروها وزحفوا إليها، وصعدوا في جبلها حتى وصلوا إلى سورها، وكادوا يملكونه. فاتفق أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم، فعادوا عن القلعة، وتركوها، ورجعوا إلى عكا. وكانت مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوماً. وعندها توجه الملك المعظم إلى قلعة الطور، فخربها، إلى أن ألحقها بالأرض، نظراً لقربها من عكا، ولتعذر حمايتها والدفاع عنها.

كان مجمع لاتيران الكنسي قد أوصى عند إعداد الحملة الصليبية الخامسة أن تكون مصر هي الهدف لهذه الحملة. وكان ذلك هو ما أوصى به أيضاً ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد عندما جاء في الحملة الثالثة إلى فلسطين. ذلك أنه إذا ما تم القضاء على المسلمين في مصر، فسيفقد المسلمون أغنى أقاليمهم، ولن يتمكنوا من الاحتفاظ بأسطول لهم في شرقي البحر الأبيض المتوسط. ولن

يكون بوسعهم بالتالي الاحتفاظ بالقدس في قبضتهم إزاء تعرضهم لهجوم مزدوج من السويس وعكا.

أكمل الفرنج الصليبيون استعداداتهم، ونظموا قواتهم، وركبوا البحر من عكا. ووصلوا إلى برّ الجيزة في صفر سنة ٦١٥ هـ (أيار - مايو - ١٢١٨) - وكان النيل يفصل بينهم وبين دمياط التي تقع على بعد ميلين من مصبّ النيل، وتحميها من الخلف بحيرة المنزلة. ودلّت تجربة الفرنج (سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م) على أنه من المحال الانتصار على المقاومة في دمياط ما لم يتم الهجوم عليها في البر والبحر في آن واحد. وكان المسلمون قد أقاموا في النيل برجاً كبيراً لحماية دمياط، ودعموه بالسلاسل المصنوعة من الحديد الغليظ، والتي اتصلت عبر الماء بسور دمياط، لتمنع المراكب القادمة من البحر أن تصعد في النيل إلى ديار مصر.

شرع الفرنج فور نزولهم على أرض الجيزة ببناء سور وخندق ليمنعهم ويحميهم من هجمات المسلمين، وانطلقوا للهجوم على البرج الذي كان مشحوناً بالمقاتلين، وعملوا آلات وأبراج يزحفون بها في المراكب إلى البرج ليقاتلوه ويملكوه. وجاء الملك الكامل ابن الملك العادل - صاحب مصر - فنزل بالعادلية القريبة من دمياط، ودفع جنده إلى دمياط لمنع الفرنج من العبور إلى أرضها. واستمر الفرنج في قتال حامية البرج، فلم يظفروا بشيء، وكسرت آلاتهم وأبراجهم، ولكنهم تابعوا رغم ذلك محاولاتهم وهجماتهم طوال أربعة أشهر، إلى أن تمكنوا أخيراً من الاستيلاء على البرج. فلما تم لهم ذلك، قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر إلى النيل، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً، امتنعوا به من سلوك النيل، ثم إنهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً حتى تمكنوا من قطعه، وعندها أحضر الكامل عدة مراكب كبيرة، وملأها، وخرقها فأغرقها في النيل، فمنعت مراكب الفرنج من سلوكه. ولما رأى الفرنج ذلك، توجهوا إلى خليج هناك يعرف بالأزرق، كان النيل يجري عليه قديماً، فحفروا ذلك الخليج، وعمّقوه، ووصلوا به النيل بالبحر. وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له - بورة - على أرض الجيزة. - مقابل المنزلة - التي أقام فيها الملك **الكامل معسكره، وذلك ليقاتلوه من هناك، فانهم لم يكن لهم إليه طريق يقاتلونه طالما**

بقيت دمياط تحجز بينهم وبينه. فلما وصلوا إلى ـ بورة ـ حادوه فقاتلوه في الماء، وزحفوا إليه غير مرة، فلم يظفروا بطائل، ولم يتغير على أهل دمياط شيء حيث كانت الامدادات والمواد التموينية تصل إليها بانتظام. كما كان النيل يحجز بينهم وبين الفرنج، وبقي أهل دمياط ممتنعون، لا يصل إليهم من الفرنج ضرر أو أذى.

توفي الملك العادل★ في جمادي الآخرة من سنة خمس عشر وستمائة (٣١ ـ آب ـ أغسطس ـ ١٢١٨ م) والصراع على أشده بين المسلمين والفرنج على أبواب دمياط. فضعفت نفوس الناس. وكان أكبر أمير بمصر هو عماد الدين أحمد بن علي ـ من الأكراد الهكارية ـ ويعرف بابن المشطوب، فاتفق مع مجموعة من الأمراء على خلع الملك الكامل، وتنصيب أخاه الفائز بن العادل، ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد، وعلم الكامل بالمؤامرة، فغادر المنزلة ليلاً ومعه قوة من الفرسان الخفيفة، وسار إلى قرية يقال لها ـ شمون طناح ـ فنزل عندها، وأصبح العسكر، فافتقدوا سلطانهم، ولما لم يجدوه، ركب كل انسان منهم هواه، ولم يقف الأخ على أخيه، ولم يقدروا لسرعتهم أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم ـ إلا اليسير الذي يخف حمله، وتركوا الباقي على حاله من المواد التموينية، والحبوب والسلاح والدواب والخيام وغير ذلك، ولحقوا بالكامل. وأصبح الفرنج من الغد فلم يروا من مقاتلي المسلمين أحداً على شاطىء النيل كجاري عادتهم، فوقفوا في ذهول لا يعرفون ماذا حدث، ولا

★ الملك العادل أبو بكر بن أيوب (٥٤٠ ـ ٦١٥هـ = ١١٤٥ ـ ١٢١٨م) استخلفه أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر لما سار إلى الشام، ثقة به واعتماداً عليه، وعلماً بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة. فلما توفي أخوه صلاح الدين ملك دمشق، ثم ملك مصر ودمشق وسائر بلاد الشام. كان عاقلاً ذا رأي سديد ومكر شديد وخديعة. صبوراً حليماً ذا أناة، يسمع ما يكره ويغض عليه حتى كأنه لم يسمعه. وقسم البلاد في حياته بين أولاده، فجعل بمصر الملك الكامل محمداً، وجعل ابنه المعظم عيسى بدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة، وجعل لابنه الملك الأشرف موسى بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط. وأعطى لولده الحافظ أرسلان شاه قلعة جعبر. فلما توفي الملك العادل ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه. واتفقوا اتفاقاً حسناً، ولم يجر بينهم الاختلاف ما جرت العادة أن يحدث بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة، كل منهم يثق إلى الآخر. مما زاد من ملكهم. وأطال من أمد الدولة الأيوبية.

يستطيعون له تفسيراً أو تأويلاً، حتى جاءهم من أخبرهم حقيقة الموقف، فعبروا حينئذ النيل إلى بر دمياط آمنين، بغير منازع ولا ممانع وذلك يوم ٢٠ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ. فغنموا ما في معسكر المسلمين، وكانت غنيمة ضخمة يصعب حصرها أو إجراء احصاء لها، والأهم من ذلك هو أن هذه الغنيمة قد جاءت الفرنج دون جهد ولا عناء. ولكن وبينما كان الكامل يغادر مصر، وقد فقد كل ثقة بجنده وقادته، وصل الملك المعظم عيسى على رأس جيش دمشق ولما يمض على حركة التمرد أكثر من يومين، فوجد الناس وهم في أمر مريج، ولما وقع الكامل على أخيه المعظم عيسى، استرد شجاعته، وقوي أزره وثبت جنانه، وأقام بمنزلته، ومضى لمعالجة الموقف، فأمكن له السيطرة عليه دونما عناء، وجاء المعظم عيسى بابن المشطوب، فأبعده عن مصر، وسيره إلى الشام، وألحقه بجند أخيه الملك الأشرف★. وقامت العرب خلال ذلك بالتجمع بقبائلها المختلفة، ونفذت المهمة التي أسندها إليها ابن المشطوب وهي نهب البلاد المجاورة لدمياط، وقطع الطريق، وممارسة الأعمال التخريبية، فكانت أعمالهم أشد ثقلاً على المسلمين من أعمال الفرنج. وكان مما زاد من الكارثة التي نزلت بدمياط، أنه لم يكن بين أهلها أحد من الجند، لأن السلطان وجنده كانوا عندها يمنعون العدو من الوصول إليها. فأتتهم حركة العصيان والأعمال التخريبية بصورة مباغتة، فلم يدخلها أحد من الجند ليقف مع أهلها ويشد من أزرهم. وأحاط الفرنج بدمياط، وقاتلوا أهلها براً وبحراً، وعملوا عليهم من جديد خندقاً يحميهم من هجمات المسلمين المباغتة ـ وكانت هذه عادتهم. واستمروا في القتال، واشتد الأمر على أهلها، وتعذر عليهم الحصول على المواد التموينية والذخائر، وتعبوا من القتال، وسئموا من

★ يظهر أن عماد الدين أحمد بن علي ـ المعروف بابن المشطوب، لم يتعظ بما ألحقه من الضرر بالمسلمين نتيجة تآمره على الكامل، ولم يستفد من الفرصة التي اتيحت له لاصلاح نفسه، فسار مع طبيعته التآمرية، إذ لم يكد يستقر عند الملك الأشرف بالجزيرة، حتى أخذ في التآمر مع مظفر الدين الذي كان ينازع أخيه ملكه في الموصل، ضد الأشرف الذي انتصر للأخ ـ بدر الدين ـ باعتباره الملك الشرعي. وانتصر الأشرف، فهرب ابن المشطوب إلى سنجار حيث تم اعتقاله، والقي به في السجن بحران إلى أن مات سنة ٦١٩ هـ = ١٢٢٢ م.

ملازمته، لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة.

ومع هذا صبر أهل دمياط صبراً لم يسمع بمثله، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض. ودام الحصار عليهم حتى يوم ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م. فعجز من بقي من أهلها عن الحفظ لقلتهم، ونفاذ الأقوات عندهم. فسلموا البلد إلى الفرنج بالأمان. وخرج منهم من بقيت لديه قدرة للسير وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة.

ما إن ملك الفرنج دمياط وأقاموا بها، حتى بثوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد، ينهبون ويقتلون، فجلى أهل البلاد عنها، وشرع الفرنج في عمارتها وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى أصبحت حصوناً لا ترام. وسمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط، فأقبلوا على أصحابهم يهرعون من كل فجّ عميق. وأقام الكامل بالقرب منهم في أطراف بلاده يحميها. وعاد الملك المعظم إلى الشام، ودمّر في طريقه تحصينات القدس (في ذي القعدة سنة ٦١٦ هـ) وذلك لأن الناس كافة **قد خافوا الفرنج. وأشرف الإسلام وكافة أهله وبلاده على خطة خسف في شرق الأرض وغربها، فقد أقبل المغول التتار من المشرق حتى وصلوا إلى أذربيجان ونواحي العراق، وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط في الديار المصرية، مع دعم الحصون المانعة بها من الأعداء. وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على الهلاك. وصاروا يتوقعون البلاء صباح مساء. وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدو، ولات حين مناص وقد أحاط بهم العدو من كل جانب. ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها. وإنما منعوا منه فثبتوا.**

تابع الكامل جهده وجهاده، وكتب إلى أخويه: صاحب دمشق المعظم عيسى، وصاحب الجزيرة وأرمينية وغيرهما الأشرف موسى، يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما، فإن لم يتمكنا من الحضور فليرسلا جيوشهما إليه. واعتذر الأشرف موسى، فسار إليه أخوه المعظم عيسى ليقنعه بارسال الدعم إلى أخيهما الأكبر بمصر. فرآه

مشغولاً عن انجاد أخيه بما دهاه من الفتنة، وما يواجهه من تمرد الملوك والأمراء على طاعته، فعذره، وعاد عنه إلى دمشق. وبقي الأمر كذلك مع الفرنج حتى تمكن الأشرف موسى من السيطرة على الموقف وإخضاع أعمال التمرد وتسوية الأمور، فاستقامت له الأمور سنة ٦١٨ هـ = ١٢٢١ م فسار بجيشه من الجزيرة إلى دمشق. وعندها قال له قادة جنده وأمراءه بأن يعود بهم إلى بلاده خوفاً من حدوث حركات تمرد جديدة، فرفض رأيهم، وقال لهم: **« قد خرجت للجهاد، ولا بد من إتمام ذلك العزم »**. وسار إلى مصر.

كان الفرنج قد غادروا دمياط - براجلهم وفارسهم، وقصدوا الملك الكامل، ونزلوا مقابله، بينهما خليج من النيل يسمى - بحر أشمون - وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ إلى عسكر المسلمين، وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم على وشك امتلاك الديار المصرية. ووصل الأشرف موسى إلى مصر، فلما علم أخوه الكامل بقربه، توجه إليه واستقبله، واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما. وعقد الكامل مؤتمراً مع الأشرف لمناقشة الموقف، وتم الاتفاق بينهما على التقدم نحو رافد من روافد النيل يعرف باسم - بحر المحلة -. فاقترب المسلمون من الفرنج، وقاتلوهم. ونزلت سفن المسلمين إلى النيل فقاتلت سفن الفرنج، واستولت على ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الأموال والسلاح، ففرح المسلمون بذلك، واستبشروا وتفاءلوا، وقويت نفوسهم، واستطالوا على عدوهم. وكان الكامل قد تمكن من بناء اسطول قوي أرسله في الصيف الفائت (٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م) من فرع رشيد إلى قبرص، حيث عثر على اسطول للفرنج الصليبيين في ليماسول، فشنّ عليه هجوماً مباغتاً، أدى إلى اغراق كل السفن أو أسرها، كما وقع في أيدي المسلمين آلاف عديدة من الأسرى. وتقدم اسطول للبنادقة لاعتراض الاسطول الإسلامي، وليهاجم مينائي رشيد ودمياط. ولكن هذا الأسطول فشل في محاولته. وبذلك، وبانضمام جيش الجزيرة إلى جيش مصر، امتلك المسلمون التفوق في البر والبحر.

كان القتال بين المسلمين وبين الفرنج مستمراً حول دمياط، فيما كانت الرسل تتردد بين الطرفين للاتفاق على أساس للصلح، **وأظهر الملك الكامل استعداده للتنازل عن**

القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ـ ما عدا الكرك ـ مقابل الانسحاب من دمياط وتسليمها للمسلمين.

ولكن الفرنج طمعوا بالحصول على أكثر مما تضمنه هذا العرض السخي، وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروه بها. وقالوا أيضاً: «لا بد من الحصول على الكرك». وبينما الأمر على هذا بين عرض وامتناع، اضطر المسلمون لقتال الفرنج، وكان الفرنج يعتمدون على قوتهم واقتدارهم، فلم يستصحبوا معهم من المواد التموينية والذخائر ما يكفيهم لأكثر من أيام قليلة، ظناً منهم أن المسلمين لن يستمروا في مقاومتهم، وأن القرى والريف جميعه يبقى في أيديهم، يأخذون منه ما يريدون من التموين. وعرف المسلمون ذلك، فدفع الكامل قوة إلى ناحية معسكر الفرنج، ففجرت النيل، وأغرقت الأرض، حتى لم يعد للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق. فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل ـ عند أشمون ـ وعبر جند المسلمين عليها، فسيطروا على الطريق الذي يسلكه جند الفرنج إذا ما أرادوا العود إلى دمياط. فلم يبق لهم خلاص، وأحكم المسلمون الحصار على الفرنج. وتقدم مركب كبير للفرنج ـ من أعظم مراكبهم يسمى مرمة ـ وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من المواد التموينية والأسلحة وما يحتاج إليه جند الفرنج. فتصدت له سفن المسلمين، وقاتلوا الفرنج، فظفر المسلمون بمركب ـ مرمة ـ وبما معها من الحراقات، وأخذوها. فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم، وأدركوا أنهم ضلّوا الصواب عندما فارقوا دمياط، وساروا في أرض مجهولة. وتابع جند المسلمين حصارهم للفرنج، واستمروا في استنزاف قوتهم برمي النشاب، والإغارة على أطرافهم. فلما اشتد الأمر على الفرنج، أحرقوا خيامهم، ومجانيقهم، وأثقالهم. وصمموا على مهاجمة المسلمين، ومقاتلتهم، واختراق دائرة الحصار للعودة إلى دمياط، ولكنهم وجدوا أنه من المحال عليهم تحقيق هذا الهدف، وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم، ولإحكام المسلمين قبضتهم على طريق انسحاب الفرنج وتراجعهم. ولما أيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم، وأنه أصبح من المتعذر عليهم الحصول على ما يحتاجونه من الطعام والتموين، وأن المنايا قد كشرت لهم عن أنيابها، ذلّت نفوسهم، وتنكست

صلبانهم، وضلّ عنهم شيطانهم، عاودوا الاتصال بالملك الكامل وأخيه الأشرف، **وطلبوا الأمان لتسليم دمياط بغير عوض.**

تحرك جيش دمشق بقيادة الملك المعظم، وسار نحو مصر، فيما كانت الرسل تتنقل بين الطرفين للاتفاق على تسليم دمياط التي توجه إليها المعظم مباشرة، ظناً منه أن أخويه وجيشيهما قد نزلوها - وقيل بأن المعظم قد علم وهو في طريقه إلى مصر أن الفرنج قد توجهوا إلى دمياط، فسابقهم إليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم -. وأقبل جيش كبير لهم رهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط، فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج، ولم يطل بهم الأمر حتى عرف أنه جيش الملك المعظم فاشتد ظهور المسلمين، وازداد الفرنج خذلاناً ووهنا، **وتمموا الصلح على تسليم دمياط. وذلك يوم ٩ رجب سنة ٦١٨ هـ (٨ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٢٢١ م) وانتقل ملوك الفرنج وقامصتهم وكنودهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن، وعدتهم عشرون ملكاً. ودخل المسلمون دمياط، وكان يوماً مشهوداً.**

أقامت الحملة الصليبية الخامسة في دمياط أربع سنين - غير شهر -. وخرجت دون أن تحقق أي كسب أو مغنم. وزالت الغمة عن المسلمين - ولو إلى حين -.

لقد وصل الفرنج الصليبيون، في مرتين على الأقل، إلى حافة النصر. وأظهر السلطان الكامل استعداده للتنازل عن القدس وعن معظم أرجاء فلسطين. وقد تمسك الفرنج بشرط استعادة - الكرك - وحصون ما وراء نهر الأردن، على أساس أنه من المحال الدفاع عن القدس ما لم تقم على حمايتها قلاع شرقي الأردن وحصونها. وربما كانت وجهة النظر هذه سليمة - من الناحية الاستراتيجية -. ولكن التمسك بها حرّم الفرنج الصليبيين من الحصول على أية فائدة من حملتهم، التي كان أتعس ضحاياها، هم أقل الناس جناية وذنباً، فقد حمل الفرنج مع حملتهم هذه، أحقادهم ومشاعرهم غير النبيلة، والتي انتقلت بالعدوى إلى المسلمين. ولهذا فما إن انسحبت قوات الفرنج من دمياط، حتى طغت على مصر موجة جديدة من التعصب عند المسلمين، لتخوفهم من قدوم الصليبيين من الغرب. وعلى الرغم مما اشتهر به الكامل من التسامح، **فقد تعرض**

القبط والملكانيين في مصر لقيود بالغة الشدة، زادت في عجزهم وضعفهم. فتقرر عليهم أن يؤدوا ضرائب باهظة، وجرى اغلاق الكنائس، وتعرضت كنائس كثيرة للنهب. ولم يستطع التجار الايطاليون أن يستردوا وضعهم السابق بالاسكندرية، لأن مواطنيهم شجعوا الحملات الصليبية وساعدوها. ومع أنهم عادوا إلى متاجرهم. فانهم لم يعودوا موضع ثقة الناس.

لقد تضمنت اتفاقية انسحاب الفرنج من دمياط عقد هدنة مدتها ثماني سنوات بين الفرنج والمسلمين، ولكن هذه الهدنة لم تشمل الايوبيين بحلب ولا السلاجقة في الموصل.

وكان من غريب المصادفات، أن وصلت إلى دمياط بعد توقيع الاتفاقية قوة من مالطا ـ حملتها أربعون سفينة ـ. وقد يكون من الصعب معرفة ما إذا كان باستطاعة هذه القوة تغيير مصير الحملة. ولكن الفرنج شعروا بالأسف لوصول هذا الدعم بعد فوات الأوان. وعاد ملك قبرص وعكا (يوحنابريين) إلى عكا يجر أذيال الخيبة، فيما تحرك قائد الحملة ـ نائب البابا الكاردينال بيلاجيوس ـ نحو شمال بلاد الشام وهو يتجرع مرارة الهزيمة.

١٤ ـ انهيار الأيوبيين.

ظهر من خلال حصار الفرنج لدمياط، اتفاق أولاد السلطان العادل اتفاقاً حسناً. مما كان سبباً لحفظ بلاد الإسلام والدفاع عنها، وسرّ الناس أجمعون بذلك، فلما انسحبت قوات الحملة الصليبية الخامسة من مصر. بقي الملك الكامل في مصر، وعاد الملك المعظم عيسى إلى دمشق، كما عاد الملك الأشرف موسى إلى ديار الجزيرة، ولكن هذا الاتفاق لم يستمر طويلاً. وظهرت بوادر الخلاف والشقاق. فقد سار الأشرف من الجزيرة إلى أخيه الكامل بمصر، ومرّ على أخيه بدمشق، ولم يستصحبه معه، وأطال المقام بمصر، مما أثار الشك في نفس المعظم، فسار إلى حماه لضمها إليه، فأرسل إليه أخواه من مصر ورحلاه عنها كارهاً، فازداد نفوراً، وقيل إنه نقل إليه عنهما أنهما اتفقا عليه. ثم انضاف إلى ذلك أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله ـ رضي الله عنه ـ كان قد غضب على الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن، عندما أظهر استهانته بأمير الحاج العراقي في مكة المكرمة، فأعرض عنه وعن أخيه الأشرف لاتفاقهما، وقاطعهما، وكتب إلى صاحب اربل ـ مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي ـ لعلمه بخصومته للملك الأشرف، فاستماله إليه. وزاد على ذلك أيضاً تعاظم سلطة جلال الدين بن خوارزمشاه، وامتداد ملكه في الشرق، فصار يشكل خطراً على الملك الأشرف، ورأى الملك الأشرف أن باستطاعة أخيه الملك المعظم عيسى حرمانه من الدعم الذي قد يصله من مصر إذا ما دعت الحاجة، كما أن باستطاعته أيضاً منع عساكر حلب ودمشق من دعمه، وعلم أن الخليفة وجلال الدين قد كتبا إلى الملك المعظم واستمالاه اليهما ضد أخويه الكامل والأشرف، فعظم الأمر على الأشرف وسار إليه واستماله وأصلحه. فلما علم الكامل بذلك، عظم الأمر عليه، وظنّ أن اتفاقهما ضده، ثم إنهما راسلاه، وأعلماه بنزول جلال الدين بن خوارزمشاه على خلاط، وعظما الأمر عليه. وأعلماه أن هذه الحال تقتضي الاتفاق بين أولاد العادل. وانقضت سنة

٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م، وأقبل الشتاء، وأخذ الناس في انتظار فصل الربيع لمعرفة ما سينتج عن هذا الصراع الخفي. وجاءت السنة التالية (٦٢٤ هـ = ١٢٢٧ م) فتوفي الملك المعظم عيسى، وولي بعده ابنه داود، ولقب بالملك الناصر. وكان عمره قد قارب عشرين سنة، وبايعه جند دمشق وأهلها.

كان الامبراطور الألماني فريدريك الثاني قد نظم حملة وسار بها إلى قبرص. وشرعت قوات الحملة بالانتقال إلى عكا. فكثر جمعهم، وكان فد وصل قبل هؤلاء جمع آخر أيضاً من الفرنج، فلما توفي المعظم وولي بعده ابنه، الملك الناصر داود، طمع الفرنج، وخرجوا من عكا وصور وبيروت وساروا إلى مدينة صيدا - وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين وسورها خراب - فاستولوا عليها وعمروها وأزالوا عنها حكم المسلمين، وقد تم لهم ذلك بسهولة نظراً لتخريب الحصون القريبة منها: تبنين وهونين وغيرها وبذلك عظمت قوة الفرنج وزاد طمعهم. واستثمر الكامل هذا التدهور فسار بجيشه من مصر إلى الشام، ووصل إلى القدس، ثم سار عنها إلى مدينة نابلس، ووضع حامية قوية من قواته في كل من المدينتين. وخاف الملك الناصر داود أن يهاجمه عمه الملك الكامل، بعد أن انتزع منه القدس ونابلس وبعض فلسطين، فاستنجد بعمه الملك الأشرف، وطلب إليه الحضور إلى دمشق، فسار إليه في قوة من الفرسان الخفيفة، وكتب إلى أخيه الكامل يستعطفه ويعلمه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لاغراضه، والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد، فأعاد الكامل الجواب. وقال:

« إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فأنهم لم يكن في البلاد عما يريدونه. وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا. وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين قد فتح القدس. فصار لنا بذلك الذكر الجميل على مرّ الأيام. فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا. وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى؟. ثم إن الفرنج لن يقفوا حينئذ عند حدود ما أخذوه، بل سيتجاوزوه إلى غيره. وحيث أنك قد حضرت أنت، فأنا أعود إلى مصر، واحفظ أنت البلاد. ولست بالذي يقال عني أني قاتلت أخي أو حصرته » وانسحب من نابلس. ونزل

على تل العجول. قرب غزة، فخاف الأشرف والناس كافة بالشام، وعلموا أنه إن عاد إلى مصر استولى الفرنج على القدس وغيره مما يجاوره، لا مانع دونه. فسار الأشرف بنفسه إلى أخيه الكامل في تل العجول. فأقاما بمكانهما. وشرعا في اجراء الاتصالات مع الامبراطور فريدريك الثاني الذي كان قد وصل إلى عكا في السنة السابقة، وأوفد الكامل إلى عكا سفارة برئاسة فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وكلفه باطالة أمد المفاوضات قدر المستطاع. وانقضت عدة شهور في مساومات، في جو ساده الشك من جانب الكامل والخداع من جانب فريدريك، وأظهر الرجلان رغبتهما كل في التعرف على اسلوب حياة الآخر، ولم يكن كل منهما مستعداً لتفجير الحرب طالما أنه بالمستطاع تجنبها وتفاديها.

غير أنه كان لزاماً على كل منهما أن يبذل كل جهد ممكن في التشدد وذلك حتى يحافظ على مكانته وهيبته تجاه شعبه. وتعرض فريدريك لضغط كبير من جانب الفرنج، إلا أنه استطاع مجابهة هذا الضغط لمعرفته بأن جيشه ليس بالقوة الكافية للقيام بحملة كبيرة. وكان الكامل من جانبه يتجنب اللجوء إلى استعراض القوة أو استخدامها طالما أنه لم يسيطر بعد على دمشق، فكان مستعداً للتنازل للمسيحيين عن امتيازات تسمح له للمضي في سياسته الهادفة لإعادة توحيد الدولة الأيوبية، والسيطرة عليها. على أن هذه التنازلات يجب أن تبقى ضمن حدود مقبولة أو معقولة. فلما طلب فريدريك استعادة كل فلسطين. أخبره فخر الدين ـ سفير الملك الكامل ـ بأنه ليس بالمستطاع الاساءة إلى مشاعر المسلمين إلى هذا الحد. وعندها حاول الامبراطور فريدريك دفع الأحداث للتسارع وذلك باجراء تظاهرة عسكرية ـ لاستعراض القوة ـ فحشد كل القوات التي استطاع حشدها في سنة ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ م. وسار بها على امتداد الساحل إلى يافا، التي شرع في بناء تحصيناتها ودعم دفاعاتها. ورفض الكامل الخضوع للابتزاز، فقطع المفاوضات. ولم يستأنفها من جديد إلا بعد أن دفع فريدريك تعويضاً عن الخسائر التي نزلت بالقرى نتيجة قيام جند فريدريك بنهبها. وبرهن فريدريك في نهاية الأمر على أنه يتفوق على الكامل في مجال المساومة.

وأمكن له التوقيع على معاهدة للصلح مع الكامل في مطلع سنة ٦٢٦ هـ =

١٢٢٩ م. وتضمنت نصوص المعاهدة تنازل الكامل للفرنج الصليبيين عن القدس وبيت لحم مع شريط من الأرض يخترق مدينة اللد وينتهي عند يافا على البحر، بالإضافة إلى الناصرة وغرب الجليل بما اشتمل عليه من القلاع والحصون مثل مونتفورت وتبنين وما تبقى من المناطق الاسلامية المحيطة بمدينة صيدا. على أن يبقى المسجد الأقصى في قبضة المسلمين الذين لهم حق التردد عليه، وممارسة فرائضهم الدينية فيه بحرية. وأضحى باستطاعة فريدريك اعادة بناء أسوار القدس. وقضت المعاهدة باطلاق سراح الأسرى المحتجزين لدى الجانبين. وأن يكون أجلها عشر سنوات بالتقويم الفرنجي (أي عشر سنوات وخمسة شهور بالتاريخ الهجري). ولم تشمل هذه المعاهدة إمارة أنطاكية ولا إمارة طرابلس.

استطاع الامبراطور فريدريك، المقطوع من الكنيسة، أن يعيد بذلك للفرنج الصليبيين الأماكن المقدسة، دون أن يوجه ضربة واحدة. على أنه ما من معاهدة لقيت من الرفض ومن المقاومة، من المسلمين والفرنج على السواء، ما لقيته هذه المعاهدة.

فقد انتشرت موجة من الغضب عمت كل أرجاء بلاد المسلمين. ورفع الملك الناصر داود راية الرفض، في دمشق، وأعلن الحداد العام لما تعرض له الإسلام من الخيانة، بل إن أئمة الكامل ذاته، أعلنوا جهاراً أن هذه المعاهدة هي إساءة للإسلام وأهله.

ولم يتمكن الكامل من الدفاع عن نفسه إلا بتقديم أعذار تافهة لم تلق القبول من جمهور المسلمين حيث زعم أنه لم يتنازل للفرنج إلا عن دور وكنائس خربة، بينما احتفظ للمسلمين بمقدساتهم. وكذلك قوله بأنه لا زالت للمسلمين السيادة العسكرية في الاقليم.

أما الفرنج الصليبيون فقد أدركوا من جانبهم بأنه ما من فائدة من استعادة القدس طالما بقيت الحصون والقلاع في شرقي الأردن تحت حكم المسلمين. وهيمن عليهم الحزن لأنهم لم يستعيدوا القدس بقوة السلاح.

ولهذا لم يستقبل الفرنج المعاهدة بما كان يتوقعه فريدريك من البهجة والحبور. وما من أحد تجرأ على تقديم اقتراح برفع قرار الحرمان من الكنيسة عن الرجل الذي قدم للعالم الصليبي مثل هذه الخدمة.

احتفل الامبراطور فريدريك الثاني بدخوله القدس يوم ١٧ ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٢٢٩ م. ولم يرافقه إلا عساكره من الألمان والايطاليين، وعدد قليل من امراء الفرنج المحليين. ولم يشترك من الطوائف الدينية العسكرية سوى طائفة فرسان التيوتون ـ الألمان ـ. واستقبل الامبراطور عند باب القدس، قاضي نابلس شمس الدين، الذي سلمه باسم الملك الكامل مفاتيح المدينة. ثم اجتاز الموكب الصغير الشوارع الخالية من الناس، حتى بلغ دار الاسبتارية القديمة، التي اتخذها الامبراطور فريدريك مقراً له.

لم تظهر على مدينة القدس ظواهر البهجة، فقد هجر المسلمون المدينة، وابتعد المسيحيون بحجة أن عودة الفرنج لن تجلب لهم الخير، وتوجه فريدريك في صبيحة اليوم التالي إلى كنيسة القيامة، التي لم يكن بها أحد من القسس. وتقدم فريدريك بثبات. فوضع التاج الملكي ـ تاج ملك القدس ـ على مذبح الجلجلة ثم تناوله بيديه ووضعه على رأسه. وعندما عاد الامبراطور إلى مقر إقامته، أصدر أمره لاصلاح برج داود، وباب اصطفان، وسلم المقر الملكي الملاصق لبرج داود إلى فرسان التيوتون. وأظهر خلال إقامته في القدس رغبة لزيارة المشاهد الإسلامية.

فقام السلطان الكامل بالايعاز إلى مؤذن المسجد الأقصى بعدم رفع الأذان خلال إقامة الامبراطور في القدس. ولكن الامبراطور فريدريك احتج على ذلك، وطلب بألا يمتنع المسلمون عن ممارسة شعائرهم الدينية، **وقال إنه لم يحضر إلى القدس، إلا رغبة في سماع المؤذن وهو يدعو المسلمين للصلاة في جوف الليل.**

ولما دخل ساحة الحرم الشريف، تبعه رجل من رجال الدين المسيحي، فانتهره الامبراطور وطرده بعنف وقسوة، وأصدر أمره باعدام كل قسيس يجتاز عتبة الحرم الشريف بدون أذن المسلمين. وبينما كان الامبراطور يطوف بقبة الصخرة، شاهد ما

أمر صلاح الدين بنقشه من كتابة حول القبة ـ من الفسيفساء ـ والتي تسجل تطهير البناء من الكفار الملحدين، فسأل الامبراطور مبتسماً:

« من يكون هؤلاء الكفرة الملحدون » .

وإذ شاهد أسياخاً بأعلى النوافذ، أعلموه بأنها قد وضعت لابعاد الطيور. فقال: **« والآن قد بعث الله لكم الخنازير » .** فاستخدم بذلك اللفظ ـ أو التعبير ـ الذي يستخدمه المسلمون في وصف المسيحيين. والمعروف أنه كان في حاشية الامبراطور جماعة من المسلمين، منهم معلمه في الفلسفة وهو عربي مسلم.

ومع أن المسلمين أبدوا اهتماماً بالتعرف على الامبراطور، غير أنه لم يترك أثراً عميقاً في نفوسهم، إذ أن مظهره خيّب ظنّهم وتوقعهم، وقالوا إنه بوجهه الأحمر الناعم، وعينيه الحولاوين، لا يساوي مائتي درهم في سوق الرقيق.

عاد فريدريك الثاني إلى بلاده بعد شهرين. وجابه الفرنج في القدس مأزقاً صعباً، فقد كان من المحال عليهم حراسة الطريق المؤدي إليها من الساحل.

ودأب المجاهدون المسلمون على مهاجمة الفرنج الصليبيين. ونظم شيوخ المسلمين في حبرون ونابلس إغارة على القدس، ولما يمض أكثر من بضعة أسابيع على رحيل فريدريك إلى بلاده، فهرب الفرنج الصليبيون إلى برج داود للاحتماء به، ولم ينقذهم إلا قدوم قوة من صيدا وعكا. وأنكر أمراء المسلمون أن تكون لهم علاقة بهذه الاغارة.

وهكذا استمر الصراع بين المسلمين والفرنج، بعيداً عن إرادة الملوك الأيوبيين، وخارجاً على إرادتهم، فيما كانوا هم منصرفون لصراعاتهم. فقد استطاع الملك الأشرف أن ينتزع من أخيه الناصر داود ملك دمشق (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م).

وحصل الناصر داود عوضاً عن دمشق على مملكة في وادي نهر الأردن واقليم ما وراء نهر الأردن ـ وعاصمته الكرك ـ. وأصبح للكامل السيطرة على أخيه الأشرف وابن أخيه داود. فانصرف لتوطيد سلطته في الجزيرة. وحقق انتصاراً كبيراً على ملك

الخوارزمية ـ جلال الدين خوارزمشاه (سنة ٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ م). وظن المسلمون في بلاد الشام أن الدولة الأيوبية مقبلة على عهد من الاستقرار، ولكن حدث في سنة ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م أن توفي حاكم حلب ـ الملك العزيز بن الظاهر غازي. فتولت صفية خاتون ـ شقيقة الكامل ـ الوصاية على حفيدها الصغير الظاهر الثاني. وأمكن لها الحصول على دعم كافة الامراء الايوبيين الصغار ـ باستثناء الناصر داود الذي وقف إلى جانب عمه الكامل. وبينما كان الصدام المباشر بين المعسكرين الأيوبيين على وشك الوقوع، توفي الملك الأشرف (سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م). وتولى الحكم في دمشق أخوه الأصغر الصالح اسمٰعيل ولم يترك الكامل فرصة أمام الصالح اسمٰعيل لإعادة تنظيم المعسكر المضاد له فزحف على دمشق سنة ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م. وأضافها إلى مملكته، ومنح ابن أخيه الصالح اسمٰعيل مقابل ذلك إقطاعاً في بعلبك. غير أن الكامل لم يعش طويلاً بعد انتصاره، فمات وهو في الستين من عمره.

لقد اعتبر الكامل بأنه هو المسؤول ـ إلى حد كبير ـ عن صرف المسلمين عن الجهاد ضد الفرنج، وتوجيه جهدهم للمحافظة على الدول الايوبية، ولتوحيدها تحت سلطانه. ولقد جاءت وفاته لتزيد من تعقيد الموقف. فقد كان الصالح أيوب، الابن الأكبر للكامل، في شمال بلاد الشام، عندما توفي والده، فبادر بالسير إلى دمشق التي استولى على الحكم فيها الجواد ـ ابن أخ الكامل ـ وأمكن له الاستيلاء عليها، وطرد الجواد منها. وأخذ في الاعداد للمسير إلى مصر لينتزع الحكم فيها من شقيقه العادل الثاني الذي كان قد استقر في مصر. ولكن عمه ـ الصالح اسمعيل ـ تمكن من احداث ثورة في دمشق ضد الصالح ايوب الذي لجأ إلى الناصر داود من أجل دعمه ومساعدته. ووافق الناصر داود على مساعدته، ودعمه بالقوات. فسار الصالح ايوب إلى مصر، وأفاد من سوء إدارة العادل الثاني، فعزله عن الحكم (سنة ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ م). وأصبح الصالح أيوب ملكاً على مصر. وكافأ الناصر داود على ما قدمه له من المساعدة بأن منحه حكم بلاد فلسطين والأردن.

بقي الصالح اسمعيل ملكاً على دمشق، مما ساعد على تمزق الجبهة الإسلامية في بلاد الشام، خلال السنوات العشرة التالية، وذلك لاستمرار الصراع بين العم الصالح

اسمعيل، وابن أخيه الصالح أيوب. وامتد بساط الفوضى والاضطراب على شمال أرض الشام بسبب نشاط الخوارزمية في أعمال التدمير حيثما ساروا، متذرعين بأنهم تلقوا التوجيهات من الصالح أيوب لممارسة التخريب ونشر الفوضى. أما في الجزيرة، فلم يكن للمظفر الأيوبي ـ أمير ميافارقين ـ إلا نصيب زهيد من السلطة والنفوذ، وحاول تورانشاه ابن الصالح أيوب أن يحكم أملاك جده بالجزيرة، غير أن مدناً كثيرة وقعت تحت حكم سلطان السلاجقة كيخسرو الثاني. واتخذ الناصر يوسف، الذي خلف أخاه سنة ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م على حكم حلب، خطة الدفاع، بينما انصرف أميرا حماه وحمص إلى مجابهة خطر الخوارزمية.

أوشك أمد المعاهدة التي كانت قد عقدت بين فريدريك الثاني والكامل، على الانتهاء، في وسط هذه الدوامة من الاضطرابات العنيفة. مما شجع البابا ـ غريغوري التاسع على ارسال مندوبين من قبله إلى فرنسا وانكلترا (سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م) لتوجيه حملة صليبية جديدة. ولكن ملكي فرنسا وانكلترا لم يكونا على استعداد لقيادة حملة صليبية، بصورة شخصية، غير أنهما قدما كل دعم وتشجيع لدعاة هذه الحملة. وأمكن خلال فترة قصيرة تجهيز قوة كافية ضمت في قيادتها نخبة نبلاء فرنسا، **وعلى رأسهم تيبالدكونت شامبانيا وملك نافار، الذي كان ابن أخ هنري كونت شامبانيا، وبذا كان ابن عمة ملوك فرنسا وانكلترا وقبرص.**

وكان تيبالد يأمل في ركوب البحر إلى فلسطين من ميناء برنديزي الايطالي، غير أن الصراع الذي نشب بين الامبراطور فريدريك الثاني وبين البابا، أرغم قوات الحملة على ركوب البحر من مرسيليا ومن ميناء ايج مورت. وجابهت الحملة خلال رحلتها أعاصير عاتية أرغمتها على التأخر، فلم تصل إلى عكا حتى بداية ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٣٩ م. وانعقد في عكا على الفور مؤتمر لمناقشة أفضل السبل للإفادة من هذه القوة المقاتلة الجديدة.

ووجد امراء الفرنج أن الظروف مناسبة جداً للإفادة من قوة الحملة العسكرية لخدمة الأغراض السياسية، فما نشب من صراعات ومنازعات بين ذرية الكامل الأيوبي، مهدت السبيل للمساومة، وذلك للحصول على تنازلات

سخية من كل مراكز القوى الإسلامية المتصارعة، أو من كل واحد منها على انفراد.

ولكن قوات الحملة ما جاءت إلا للحرب والقتال، وهي لا تريد سلوك النهج المهين الذي أخذ به فريدريك الثاني. ولهذا اتفق حضور المؤتمر على توجيه الحملة إلى مصر، وذلك للإفادة من كراهية الناس لملك مصر العادل الثاني، **وأيد بعض الأمراء الاقتراح بتوجيه الحملة إلى دمشق باعتبارها العدو العنيد للفرنج.**

ولكن لا بد للجيش الصليبي من تحصين قلاع الجليل قبل السير إلى دمشق، ولهذا تقرر الهجوم على مصر أولاً ثم التوجه للهجوم على دمشق.

خرجت الحملة من عكا في ٢ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٢٣٩ م. واتجهت نحو الحدود المصرية، وعلم بطرس كونت بريتاني أثناء المسير الى يافا - من أحد الجواسيس - أن قافلة اسلامية وافرة الثروة تسير على امتداد نهر الأردن في طريقها إلى دمشق. فبادر بطرس بالركوب على الفور، وسار ومعه مائتي فارس، ونصب كميناً لهذه القافلة. واصطدم حرس القافلة الأشداء بقوة الكمين، وأظهروا بطولة فائقة حتى أن بطرس كاد يلقى مصرعه، ولكن قوة الكمين المتفوقة بعددها، والتي أفادت من المباغتة، تمكنت في نهاية الأمر من الاستيلاء على القافلة التي اشتملت على قطيع كبير من الماشية والأغنام. فاقتاد بطرس غنيمته، وعاد منتصراً إلى يافا التي بلغها وقتذاك رفاق الحملة. ولقي انتصاره ترحيباً كبيراً، نظراً لأن مؤونة الجيش كانت آخذة في النفاذ، غير أن هذا الانتصار أثار عداء صاحب الكرك الناصر داود، كما أثار حاكم مصر العادل الذي بادر بارسال جيش كبير إلى غزة بقيادة الأمير ركن الدين. وكذلك فقد اغتاظ هنري كونت بار من انتصار بطرس كونت بريتاني فقرر المبادرة بالهجوم على الجيش المصري في غزة، ووضع خطة سرية للهجوم لم يطلع عليها إلا جماعة قليلة من أصدقائه - من سادة شرقي فرنسا -. واتخذ استعدادته للبدء بتنفيذ خطته عند حلول الظلام من يوم ١٢ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٢٣٩ م. وسار بقوته التي ضمت ألف راجل وخمسمائة فارس، وأفاد من ضوء القمر ليتقدم بسرعة، وعندما علم قائد الحملة - تيبالد كونت شامبانيا - بخروج هذه القوة، حشد قواته تحت أسوار

عسقلان، لمجابهة أي احتمال، ولدعم قوة هنري كونت بار إذا ما تطلب الأمر.

وصلت قوة هنري كونت بار، مع الفجر، إلى مسافة غير بعيدة من غزة. فتوقفت في منخفض بين التلال الرملية المجاورة لساحل البحر ـ من أجل الراحة ـ. واستطاع جواسيس الأمير ركن الدين انذاره في الوقت المناسب، فأرسل رماته للالتفاف حول التلال الرملية، وتطويق قوة الفرنج، وشعر كونت يافا والتر الذي كان يرافق الحملة بحركة جند المسلمين، فأمر جنده بالتراجع سراعاً لأنه ليس بامكان الخيول التحرك بحرية وسط كثبان الرمل. وتبعه سائر الفرنج، ولكن هنري كونت بار لم يرغب في التخلي عن جند المشاة ـ الرجالة ـ الذين قادهم إلى الكمين المنصوب، ولم يبق معه إلا بعض أصدقائه الخلص. ولم تستغرق المعركة وقتاً طويلاً، فسقط الفرسان وخيولهم بين التلال الرملية، وتبعهم المشاة المثقلون بالأسلحة، وقتل منهم أكثر من ألف رجل ـ منهم هنري كونت بار ـ ووقع في الأسر نحواً من ستمائة رجل، جرى نقلهم إلى مصر ـ كان من بينهم كونت مونتفورت، والشاعر فيليب نانتيل، الذي أمضى أيامه في الحبس وهو ينظم قصائد الشعر في ذم الطوائف الدينية العسكرية، حيث وجه لها اللوم ـ عن عاطفة لا عن منطق ـ لما أصاب هذه الحملة من الفشل.

حاول تيبالد كونت شامبانيا التحرك فوراً من عسقلان، عندما وصلته فلول القوات الممزقة في الهجوم على غزة. ولكن قادة الفرنج المقيمين في الشام امتنعوا عن التحرك، فاضطر للعودة إلى عكا ـ بصورة بطيئة ـ بعد أن تناقص عدد جنده.

كان أمير الكرك الناصر داود قد انتقم في هذه الفترة للقافلة التي هاجمها الفرنج، فزحف على القدس، واحتل المدينة دون مقاومة تذكر، غير أن الحامية المرابطة بالقلعة قاومت الحصار طوال سبع وعشرين يوماً، اضطرت بعدها للاستسلام ـ وقد حصلت على الأمان بالانسحاب إلى الساحل. ودمر الناصر داود البرج الذي جدد الفرنج عمارته ـ برج داود ـ وكذلك التحصينات والسور ـ عند باب اصطفان ـ وعاد بقواته إلى الكرك.

تحرك تيبالد بقواته، بعد المعركة التي وقعت في غزة، صوب الشمال الى طرابلس. وعندما وصلها علم باندلاع القتال بين ملك دمشق الصالح اسمعيل وبين ملك مصر

السلطان الصالح أيوب، فأسرع تيبالد لاغتنام الفرصة من أجل الحصول على مساومة رابحة، وقاد جيشه إلى عيون صفورية ـ في الجليل ـ. ولم ينتظر طويلاً حتى وصله اقتراح من الصالح اسمعيل لعقد معاهدة هجومية، إذ كان الصالح اسمعيل يخاف من اشتراك الصالح أيوب مع الناصر داود للهجوم على دمشق، فإذا ما عمل الفرنج على حراسة الحدود المصرية عند الساحل، وإذا ما أمدوه بالأسلحة، فإنه سيتنازل لهم عن الحصنين الكبيرين، هونين وصفد وما يقع بينهما من التلال. ولما كان لطائفة فرسان الداوية علاقاتها المالية والتجارية مع دمشق، فقد أمكن له توجيه المفاوضات بين المسلمين ـ في دمشق ـ وبين تيبالد، وحصلوا على عمولتهم بمنحهم مدينة صفد. وارتاع المسلمون في صفد وهونين لما حدث، ورفضت حامية هونين الاستسلام للفرنج، فجاء الصالح اسمعيل بجيشه وحاصر القلعة وأرغم حاميتها على الاستسلام، وسلمها للفرنج، وغضب المسلمون وغادروا المدينة، والتحق رجلان من كبار علماء الدين ـ منهم خطيب المسجد الجامع بمصر، احتجاجاً على تصرف الصالح اسمعيل الذي غدر بالمسلمين وسلم مدنهم لعدوهم.

إذا كانت طائفة فرسان الداوية قد حققت مكسباً باستيلائها على صفد، فيجب ألا تقصر الطائفة المنافسة لها ـ وهي طائفة فرسان الاسبتارية ـ للحصول على مكسب مماثل، فتوجهت سفارة منها إلى الصالح أيوب في مصر، والذي ابتهج لاستقبال هذه السفارة من أجل تحطيم التحالف الذي أقامه الصالح اسمعيل مع الفرنج. فعرض على السفارة اطلاق سراح الأسرى الذين وقعوا في يده في غزة، وأن يكون لهم الحق في احتلال عسقلان وتحصينها، مقابل التزام الحياد. وعندئذ وقع مقدم الاسبتارية مع ممثلي السلطان الصالح أيوب، الاتفاق في عسقلان. وفرح تيبالد بهذا الاتفاق الذي ضمن للفرنج الصليبيين مكسباً جديداً، بالاضافة إلى تحرير عدد من أصدقائه في طليعتهم أملريك مونتفورت. وغضب الفرنج ـ بتحريض من الداوية ـ لتخليهم عن الاتفاق مع دمشق، التي ظلّت باستمرار العدو الصلب للفرنج، فكان عقد اتفاق صداقة معها أكثر أهمية من الاتفاق مع الصالح أيوب. ولم يحتمل تيبالد ردة الفعل الغاضبة للفرنج، فغادر عكا (في ايلول ـ سبتمبر ـ ١٢٤٠ م) ٦٣٨ هـ. وعاد إلى بلاده.

لم يمض على رحيل تيبالد أكثر من بضعة أيام، حتى وصل إلى عكا (يوم ١١ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٢٤٠ م) شقيق هنري الثالث ملك انكلترا ـ وهو ريتشارد ايرل كورنوال ـ والذي كانت أخته زوجة ملك ألمانيا وامبراطور الغرب فريدريك. وقد ارتاع ريتشارد بمجرد وصوله إلى عكا، لما شاهده من الفوضى بسبب تفجر الصراع بين الداوية وبين الاسبتارية. حيث وقف معظم الفرنج في الشام إلى جانب الداوية، مما دفع الاسبتارية لطلب الدعم من طائفة فرسان التيوتون ومن أنصار الامبراطور فريدريك الثاني. وهرع ريتشارد الى عسقلان لدراسة الموقف، فالتقى هناك برسل السلطان الصالح أيوب الذين تقدموا إليه بطلب التصديق على المعاهدة التي عقدها الصالح أيوب مع الاسبتارية.

غير أنه أصر على أن يقر المصريون على ما تنازل به أمير دمشق الصالح اسمعيل من البلاد للفرنج، وذلك بحجة استرضاء امراء الفرنج ـ وباروناتهم ـ. كما أصر بأن يضيفوا إليها ما تبقى من الجليل ـ بما في ذلك قلعة شقيف أرنون، وجبل الطور وطبرية ـ. ولما كان أمير الكرك الناصر داود قد انتزع من الصالح اسمعيل ما كان له من السيطرة على شرقي الجليل، فانه لم يعد باستطاعة الصالح اسمعيل الامتناع عن كل تنازل عن بلاد أخرى.

وبذا استعادت مملكة القدس كل ما كان لها من أراض غربي نهر الأردن، والتي امتدت جنوباً حتى أرباض غزة ـ باستثناء نابلس واقليم السامرة ـ.

وظلّت القدس مجردة من التحصينات. فشرع الفرنج في إعادة بناء قلعة طبرية. وأكملوا أيضاً بناء تحصينات عسقلان. وقام ريتشارد باعادة تنظيم أمور المملكة، وعين حكاماً للمدن التي استعاد الفرنج حكمها. وأقام في فلسطين حتى منتصف عام ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م ثم عاد إلى بلاده، وقد أعاد النظام والأمن للفرنج في بلاد الشام ـ.

طمع الفرنج بالمسلمين بعدما حققوه من مكاسب لم تكلفهم ولو قطرة دم واحدة. ورفضت طائفة فرسان الداوية الالتزام بالهدنة التي تم عقدها مع الصالح أيوب. فأغار فرسانها في سنة ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م على مدينة حبرون الإسلامية. ورد الناصر داود

ـ صاحب الكرك ـ على هذه الإغارة بأن أرسل قواته لقطع الطريق المؤدي إلى القدس، ولجباية رسوم من حجاج الفرنج وتجارهم عند اجتياز هذا الطريق. فرد فرسان الداوية على ذلك بأن خرجوا من يافا (في ٣٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٢٤٢ م) وانقضوا على نابلس، واستباحوها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، وأحرقوا مسجدها. فاكتفى الصالح أيوب بارسال جيش ألقى الحصار على يافا لفترة من الزمن، ثم رجع عنها. وكان ذلك انتصاراً للداوية الذين استمروا في ممارسة ضغوطهم على امراء الفرنج لاستئناف المفاوضات من جديد مع حاكم دمشق الصالح اسمعيل. وكان قد نشب في هذه الفترة بين حاكم مصر الصالح أيوب وصاحب الكرك الناصر داود، ووجد الداوية الذين أصبحت لديهم كفاءة عالية في استثمار التناقضات والخصومات بين أمراء المسلمين، أن هناك فرصة جديدة قد سنحت لهم، فحصلوا خلال مفاوضاتهم مع الصالح اسمعيل والناصر داود والصالح أيوب على موافقة منهم جميعاً باخراج المسلمين من المسجد الأقصى، وإعادته لحكم الفرنج الصليبيين.

وكتب مقدم الداوية ـ ارمان بريغورد ـ رسالة مثيرة لاوروبا (في نهاية سنة ٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م) أورد فيها ما جرى من انجاز كبير، وذكر بأن طائفة الاسبتارية قد شرعت بإعادة تحصين القدس. وكانت فرصة للامبراطور فريدريك للتنديد بالداوية الذين تحالفوا مع المسلمين، وهم الذين أنكروا عليه تحالفه مع المسلمين، ووقفوا ضده.

تشجع الداوية بما حققوه من انجاز، فلما اندلعت الحرب بين الصالح أيوب والصالح اسمعيل (في سنة ٦٤٢ هـ = ١٢٤٤ م) قام الداوية بتحريض أمراء الفرنج للوقوف إلى جانب الصالح اسمعيل، والذي انضم إليه كل من صاحب الكرك الناصر داود، وصاحب حمص المنصور ابراهيم. وقدم المنصور ابراهيم بنفسه إلى عكا لابرام المحالفة، وليعرض على الفرنج ـ بالنيابة عن الحلفاء الأيوبيين ـ نصيبهم في مصر، حينما تحل الهزيمة بالصالح أيوب. وجرى استقبال الأمير المسلم المنصور ابراهيم بكل مظاهر التشريف، وتكفل الداوية بمعظم الضيافة.

لم يقف الصالح أيوب جامداً أمام هذا التحدي، بل تحرك بسرعة أكبر، وحصل

على حليف أقوى من الفرنج، وهذا الحليف هو فرسان الخوارزمية الذين كانوا قد أقاموا في شمال بلاد الشام وانتشروا بين حران والرهـا. فحرضهم الصالح أيوب للهجوم على دمشق، واستجاب الخوارزمية لطلب الصالح أيوب الذي احتفظ بعلاقات جيدة معهم، على خلاف سائر الأمراء الأيوبيين، الذين حدوا من نشاط الخوارزمية، وقيدوا حريتهم في العمل. وانطلق حوالي ألف فارس من الخوارزمية الشجعان، وأخذوا في تدمير البلاد واحراق القرى حتى وصلوا إلى دمشق، وإذ أدركوا أنهم لا يستطيعون تدمير دمشق أو مهاجمتها، تابعوا انحدارهم نحو الجنوب. فاجتازوا طبرية بعد أن استولوا عليها، وعبروا الجليل، ووصلوا إلى القدس. وإذ أدرك بطريرك القدس - روبرت - ما يتهدد القدس. سارع مع مقدمي طائفتي الداوية والاسبتارية لتحصين المدينة، ودعم الحامية المدافعة عنها. ولكن ذلك لم ينفعهم شيئاً. فقد اقتحم أبطال الخوارزمية القدس (يوم ١١ تموز - يوليو - سنة ١٢٤٤ م) ووقع القتال في الشوارع، ولم يتأخر الخوارزمية كثيراً عن الوصول إلى دير الأرمن (المعروف باسم دير القديس يعقوب) فأجهزوا على الرهبان والراهبات. وقتل قائد حامية المدينة عندما حاول الانطلاق من القلعة للهجوم على المسلمين، وقتل معه قائد الاسبتارية. ولما لم تقدم نجدات من الفرنج، استغاثت الحامية التي استمرت في مقاومتها بأمير الكرك الناصر داود - الذي كان أقرب الحلفاء المسلمين من القدس. ولكن الناصر لم يرغب في التدخل لمصلحة الفرنج. غير أنه تدخل لدى فرسان الخوارزمية لمنح الأمان للحامية حتى ينسحبوا بأمان إلى الساحل إذا سلموا القلعة.

وغادر القدس حوالي ستة آلاف من رجال الفرنج الصليبيين وأطفالهم ونسائهم، في يوم ٢٣ - آب - أغسطس - ١٢٤٤. وبينما كان الفرنج يتحركون على الطريق إلى يافا، تطلعت جماعة منهم إلى الوراء، فشاهدت أعلام الفرنج وهي ترفرف على أبراج المدينة. وإذ اعتقدوا أن هناك نجدة قد وصلت بطريقة من الطرق إلى القدس، أصرّ معظمهم على الرجوع إلى المدينة، غير أنهم وقعوا في كمين تحت أسوار المدينة، فهلك منهم ألفي إنسان، وتعرض من بقي منهم حياً، لهجمات المجاهدين المسلمين الذين كانوا يسيطرون على

الطرق - فلم يصل منهم إلى يافا سوى ثلثمائة رجل. وعادت القدس نهائياً للمسلمين. ولم يدخل أبوابها جيش صليبي إلا بعد سبعة قرون عندما قاد الجنرال اللنبي الهجمة الصليبية الحديثة، ودخل المدينة المقدسة (سنة ١٩١٧) ليقول: «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

لقد تفجر غضب المسلمين على الفرنج الصليبيين. وزالت من نفوسهم تلك الرحمة التي لازمتهم في حروبهم كلها، وجاء حصاد ما زرعه الفرنج الصليبيون من الحقد والكراهية، فانطلق فرسان الخوارزمية يقتلون كل من يعترض سبيلهم، واقتحموا كنيسة القيامة - أو بيعة القمامة كما كانوا يسمونها، وقتلوا كافة القسس الذين رفضوا مغادرة المدينة، ونبشت قبور ملوك الفرنج الذين دفنوا في القدس ونثرت عظامهم. واشتعلت النيران بالكنيسة، وأحرقت كنائس أخرى، وتعرضت دور الفرنج ودكاكينهم للنهب، ولما أنجز فرسان الخوارزمية أعمالهم، غادروا المدينة، ليلحقوا بالجيش المصري الذي كان يحتشد أمام مدينة غزة.

عمل الفرنج خلال ذلك على حشد قواتهم أمام عكا، وانضم إليهما جيشا حمص ودمشق بقيادة أمير حمص المنصور ابراهيم، ثم انضم إليهم جيش الكرك بقيادة الناصر داود، وشرعت القوات المتحالفة بالسير على الطريق الساحلي نحو الجنوب. وحرص الناصر داود - وجيشه من البدو - على البقاء منعزلاً عن سائر القوات المتحالفة، بينما تميزت علاقة الفرنج والمنصور ابراهيم ورجاله بالزمالة الكاملة - أو رفقة السلاح -.

زجّ الفرنج في جيشهم أكبر جمع أمكن لهم حشده منذ معركة حطين. فبالإضافة لقوات صور ويافا وفرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون أرسلت كل من إمارتي طرابلس وأنطاكية قوات إلى هذا الجيش المشترك.

اتخذ الجيش المصري موضعه أمام غزة، بقيادة أمير مملوكي صغير، **وهو ركن الدين بيبرس البندقداري**، وقد ضم هذا الجيش خمسة آلاف من نخبة الجند المصري، فضلاً عن جموع الخوارزمية. ووقع الالتحام بين الجيوش المتحاربة يوم ١٧ تشرين

الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٢٤٤ م، عند **قرية الحربية★** الواقعة في السهل الرملي على مسافة بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة. فبادر الفرنج وحلفاؤهم لعقد مؤتمر للقادة، واقترح المنصور ابراهيم ببقاء الجند في مواقعهم، وتحصين معسكرهم لمجابهة هجمات الخوارزمية الذين كانوا عادة ما يتجنبون الصدام بالمواقع المحصنة، ونظراً لاعتماد جيش مصر على الخوارزمية فإنه قد يضطر للانسحاب إذا ما تم احباط هجمات فرسان الخوارزمية. ووافق عدد كبير من قادة الفرنج على اقتراح المنصور ابراهيم قائد جيشي دمشق وحمص. ولكن كونت يافا وولتربريين أصرّ على القيام بهجوم مباشر، معتمداً على تفوقه عددياً على الجيش المصري، ومدفوعاً برغبته الجامحة للقضاء على الخوارزمية والانتقام منهم، مع إذلال الصالح أيوب في الوقت ذاته، فاتخذ وولتربريين طريقه للهجوم، وتحركت الجيوش المتحالفة بأكملها وقد اتخذت تشكيل القتال، حيث اتخذ الفرنج أماكنهم في الميمنة، فيما اتخذ جيش دمشق وجيش حمص مواقعهما في القلب ووقف جيش الكرك في الميسرة. وقد تصدى جيش مصر للهجوم، بينما انطلق فرسان الخوارزمية للهجوم على المسلمين المتحالفين مع الفرنج. وصمد في القتال المنصور ابراهيم وجيشه وحافظ على مواقعه، ولكن جيش دمشق أسرع في الانسحاب والفرار، وتبعه جيش الكرك، ولم يتأخر جيش حمص عن اللحاق بمسلمي دمشق والكرك، وتركوا الفرنج وحدهم، حيث قام الخوارزمية بالالتفاف على جناح الفرنج الصليبيين. ودفعوه نحو المصريين، وما هي إلا ساعات قليلة حتى تحطم جيش الفرنج بكامله، رغم ما أظهره جنده من الصمود والشجاعة. وسقط على أرض المعركة عدد كبير من القادة: منهم مقدم الداوية ومارشالهم ورئيس أساقفة صور وأسقف الرملة. ووقع في الأسر كونت يافا ومقدم الاسبتارية وقائد جيش طرابلس ـ ولاذ بالفرار قائد الفرسان فيليب مونتفورت، والبطريرك، ولحق بهما من بقي على قيد الحياة من فرسان الطوائف الدينية العسكرية الثلاث؛ فأبحروا إلى يافا.

وقدر عدد القتلى بخمسة آلاف قتيل، والراجح أنهم كانوا أكثر من ذلك. ونقل ثمانمائة أسير تقريباً إلى مصر.

★ وهي المعروفة عند مؤرخي الفرنج باسم: (LA FORBIE).

أسرع جيش مصر الظافر إلى عسقلان التي أقامت فيها حامية قوية من طائفة الاسبتارية. وقد صمدت التحصينات التي تم دعمها أمام هجمات المصريين المتتالية، فألقوا الحصار عليها بعد أن جلبوا السفن من مصر لاحكام الحصار براً وبحراً. وأثناء ذلك، سار فرسان الخوارزمية إلى يافا وقد حملوا معهم أسيرهم ـ كونت يافا ولترابريين ـ وهددوا بشنقه إن لم تستسلم الحامية، غير أن الكونت بريين صاح برجاله أن يصمدوا في القتال. ولما كانت تحصينات يافا على درجة كافية من القوة، مما يجعل من الصعب اقتحامها؛ فقد انسحب الخوارزمية بأسيرهم الذي أبقوا على حياته إلى حين.

خسر الفرنج في معركة الحربية ـ غزة ـ كل ما أحرزته لهم ديبلوماسيتهم من انجازات ومكاسب على امتداد عشرات السنين الأخيرة.

والأهم من ذلك، هو أنهم فقدوا على أرض المعركة نخبة قدرتهم البشرية المقاتلة، مما جعلهم عاجزين عن تأمين الدفاع إلا عن المدن الساحلية، وبعض الحصون والقلاع الداخلية، ولم يفق معركة غزة في كثرة الخسائر إلا معركة حطين. وكان باستطاعة سلطان مصر الافادة من هذا الموقف لطرد الفرنج من بلاد الشام كلها، ولكنه أعطى الأفضلية للتغلب على خصمه في دمشق ـ الصالح اسمعيل ـ مما أتاح الفرصة للفرنج للبقاء سنوات أخرى على أرض بلاد الشام.

تابع الخوارزمية اغاراتهم على بلاد الفرنج في فلسطين، ومضوا في طريقهم حتى بلغوا أرباض عكا. ثم تحركوا إلى داخل البلاد، لينضموا إلى جيش مصر الذي كان يحاصر دمشق. والمعروف أن جيش مصر بقيادة الأمير معين الدين، كان قد اجتاح فلسطين، وجرد أمير الكرك الناصر داود من كل بلاده الواقعة غربي نهر الأردن، ثم وصل إلى دمشق (في نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٢٤٥ م) واستمر حصارهم لدمشق ستة شهور، وأمر الصالح اسمعيل ـ أمير دمشق ـ بقطع الجسور التي تحجز مياه نهر بردى، فتحولت الأراضي الواقعة خارج أسوار دمشق إلى مستنقع يصعب اختراقه. غير أن الصراع المحكم الذي فرضه جيش مصر أثار قلق التجار وسواهم من السكان، مما حمل الصالح اسمعيل على قبول شروط الصلح (في أوائل تشرين الأول ـ

اكتوبر - سنة ١٢٤٥). فتخلى عن دمشق مقابل الحصول على إمارة بعلبك وحوران، واعترافه بسيادة الصالح أيوب.

أصبح باستطاعة الصالح أيوب أن يوجه جهده لقتال الفرنج، فأرسل جيشه إلى فلسطين سنة ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م، فاستولى على طبرية وقلعتها التي أعاد الفرنج تحصينها حديثاً. ولم يلبث جيش مصر أن أعاد فتح جبل الطور وحصن شقيف أرنون، ثم تحرك نحو عسقلان التي كان الفرنج قد أعادوا ترميم أسوارها ودعموا تحصيناتها ووضعوا بها حامية من الاسبتارية. فأسرعت قبرص لارسال قوة بحرية من ثماني سفن كبيرة حملت مائة فارس. كما أرسلت عكا سبع سفن كبرى مع خمسين سفينة خفيفة. وتحركت بالمقابل من مصر قوة بحرية ضمت إحدى وعشرين سفينة كبيرة لاحكام الحصار على عسقلان من جهة البحر. لكن القوة البحرية المصرية اصطدمت بعاصفة، فتحطمت بعض السفن على رمال الشاطىء، واضطرت السفن الباقية للعودة إلى مصر. وأضحى باستطاعة الاسطول الصليبي أن يقلع إلى عسقلان دون خوف. فأمد الحامية بالدعم والتموين. ولكن سوء الأحوال الجوية أرغم اسطول الفرنج على العودة إلى عكا. وأفاد المصريون من حطام السفن لصنع المجانيق وأدوات الحصار فأمكن لهم اقتحام القلعة. وتم قتل معظم حامية عسقلان، ووقع الباقون في الأسر. وتم بناء على أوامر السلطان الصالح أيوب تدمير حصن عسقلان، فأضحى خراباً موحشاً. ولم يتابع الصالح أيوب استثمار هذا النصر. وقام بزيارة القدس. وأمر باعادة بناء أسوارها، ثم غادرها إلى دمشق، حيث أقام بها طوال فصل الشتاء من سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م وربيع سنة ١٢٤٩ م. وقدم عليه كل امراء الشام يبذلون له الولاء والطاعة.

ساد الهدوء امارات الفرنج في بلاد الشام، بسبب ضعف قدرتها البشرية المقاتلة وما نزل بها من الخسائر. وبالمقابل، لم يكن الصالح أيوب متعجلاً لتصفية وجود الفرنج على أرض الشام. وظهر أن هذا الهدوء قد يستمر طويلاً ما لم تحركه رياح الغرب. ولكن رياح الغرب لم تكن ساكنة ولا مستقرة. وما لبثت أن قذفت بأعصار جديد، تمثل في حملة ملك فرنسا لويس التاسع (سانت لويس). وهي الحملة التي جعلت من مصر هدفاً لها، بعد أن أمسكت مصر بمفاتيح الحرب والسلم.

١٥ ـ ملك فرنسا أسيراً في المنصورة.

كان ملك فرنسا لويس التاسع في الثلاثين من عمره، عندما وقع فريسة لحمى الملاريا التي كادت تودي بحياته (في كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٢٤٤ م). وإذ أشرف على الهلاك نذر أن يقود حملة صليبية إذا ما شفي من مرضه. وعندما استرد لويس صحته، شرع في الاعداد للوفاء بما قطعه على نفسه من النذر. وتلقى الفرنج أنباء الاعداد للحملة الصليبية بالبهجة والحبور. فقد اشتدت الحاجة وقتذاك إلى دم جديد يرفد الصليبية بالقدرة على العيش أياماً أخرى.

استغرقت استعدادات الملك ثلاث سنوات، إذ تقررت جباية ضرائب استثنائية للانفاق على الحملة، ولم يعف من أدائها رجال الكنيسة، مما أثار غضبهم. وكان لا بد من تنظيم حكومة البلاد، فتقرر أن تتولى الوصاية مرة أخرى ـ الملكة الوالدة بلانش ـ التي ثبتت كفايتها وقدرتها على الحكم أثناء وصايتها على ابنها عندما كان صغيراً. وكان على الملك أيضاً أن يحل بعض المشاكل الخارجية، إذ كان لا بد من اقناع ملك انكلترا بالمحافظة على السلام أثناء غيابه في الحملة الصليبية.

أما العلاقات مع أمبراطور الغرب وملك ألمانيا ـ فريدريك الثاني ـ فكانت بالغة الدقة. فالمعروف أن الملك لويس قد حظي بتقدير الامبراطور فريدريك وامتنانه، لموقفه موقف الحياد من الصراع الذي دار بينه وبين البابا، غير أنه كان على لويس أن يهدد بالتدخل حينما اقترح فريدريك على حلفائه (في سنة ١٢٤٧ م) أن يهاجموا البابا ذاته في ليون. وبالاضافة إلى ذلك، فقد كان فريدريك هو والد الملك الشرعي للقدس ـ كنراد ـ. فكان لا بد للملك لويس من الحصول على إذن منه لدخول بلاده.

ويظهر أن المبعوثين الفرنسيين قد أعلموا الامبراطور فريدريك على الحملة

التي يعد لها الملك لويس، فما كان من الامبراطور إلا أن أرسل المعلومات عنها إلى السلطان الصالح أيوب، وذلك على الرغم مما أظهره الامبراطور فريدريك من العطف على الحملة، ومساعدتها. وكان لا بد للملك لويس أيضاً أن يلتمس السفن اللازمة لنقل الحملة الصليبية إلى الشرق. فوافقت جنوه ومرسيليا، بعد مفاوضات جرت معها، على أن تمدا الحملة بما تحتاجه من السفن. أما البنادقة الذين أصابهم الجزع فعلاً لكل خطة تؤدي إلى قطع علاقاتهم التجارية الطيبة مع مصر. فقد زاد في كراهيتهم لكل ما حدث. وغادر الملك لويس في نهاية الأمر باريس سنة ٦٤٦ هـ (١٢ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٢٤٨ م) ثم أبحر من ميناء ايج مورتز، قاصداً جزيرة قبرص، وصحبه في الرحيل الملكة واثنان من إخوته (هما روبرت كونت أرتوا وشارل كونت أنجو) وعدد كبير من الامراء الفرنسيين. بالاضافة إلى عدد من الامراء الانكليز مع قواتهم. ووصل الاسطول الملكي إلى ليماسول في ١٧ ـ ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٤٨ م. وبدأت القوات تتدفق تباعاً على قبرص. كما توجه إلى قبرص مقدموا الطوائف الدينية وعدد من أمراء الفرنج في بلاد الشام. واستقبل ملك قبرص ـ هنري ـ جميع القادمين، بكل مظاهر الود، وأعد لهم الضيافة اللائقة.

جرت مناقشة خطة الحملة، فوافق جميع الامراء والقادة على أن تكون مصر هي هدف الحملة. إذ كانت مصر أخصب أقاليم الدولة الأيوبية، وأيسرها منالاً عند الهجوم. وتذكر الفرنج أثناء مناقشاتهم ما حدث أثناء الحملة الصليبية الخامسة عندما عرض السلطان الكامل التنازل عن القدس مقابل الانسحاب من دمياط.

وعندما تم الوصول إلى الاتفاق بصدد هدف الحملة، أراد الملك لويس أن يشرع فوراً بالتوجه للقتال. غير أن مقدمي الداوية والاسبتارية وامراء ـ بارونات ـ الفرنج في بلاد الشام، أقنعوه بضرورة التمهل والتريث، فقد اقترب موسم العواصف الشتوية، وبات من الخطر الاقتراب من شاطىء الدلتا الذي يزخر بالجسور الرملية بالاضافة الى قلة الموانىء. وعلاوة على ذلك كله، فقد كان امراء الفرنج في الشام ومقدمي الطوائف الدينية يرغبون في حمل الملك لويس على التدخل بالصراع الذي نشب بين الايوبيين. إذ

كان حاكم حلب الامير الناصر يوسف قد طرد ابن عمه الأشرف موسى من حمص، واستولى على المدينة. فاستنجد الأشرف بالسلطان الصالح أيوب الذي قدم من مصر، وأرسل جيشاً لاسترداد حمص. وكان الداوية قد دخلوا فعلاً في مفاوضات مع السلطان الصالح أيوب لدعمه بقوات إضافية مقابل التنازل للفرنج عن بعض الأراضي.

غير أن الملك لويس لم يظهر استعداداً للقيام بهذا الدور الديبلوماسي، إذ أنه لم يختلف عن سائر الفرنج الصليبيين الذين ظهروا في القرن الماضي، فهو لم يقدم إلا لقتال المسلمين، لا للغوص في مستنقع الديبلوماسية. وأمر الداوية بقطع مفاوضاتهم مع السلطان الصالح أيوب.

أرسل الملك لويس رجاله لجمع المؤن والذخائر، وأمكن جمع ما يكفي لشهر أو شهرين على الأكثر، وحينما حلّ الربيع من سنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م طلب إلى الجاليات المحلية من التجار الايطاليين أن يمدوه بالسفن، وامتنع البنادقة الذين رفضوا فكرة القيام بالحملة على مصر رفضاً كاملاً منذ البداية، تقديم أي دعم أو مساعدة. ولم تلبث أن تفجرت حرب حقيقية بين الجنويين والبيازنة على امتداد ساحل بلاد الشام، وتعرض الجنويون الذين اعتبرهم الملك لويس سنده الأساسي، لأسوأ نتائج هذه الحرب. واستطاع سيد أرسوف ـ يوحنا ابلين ـ السيطرة على الموقف بعد ثلاثة أسابيع من الاقتتال. وفرض على الجاليات الايطالية في عكا هدنة لمدة ثلاث سنوات. وهكذا لم يتم الحصول على السفن اللازمة لنقل الحملة إلا في نهاية شهر أيار ـ مايو ـ ١٢٤٩ م. واستقبل الملك لويس في نيقوسيا خلال هذه الفترة من قصده من الزائرين والسفارات، فبعث إلى ملك أرمينية هيثوم بالهدايا النفيسة، كما استجاب لطلب أمير أنطاكية بوهمند، بأن دعمه بجماعة من الرماة ـ بلغ عددهم ستمائة ـ من أجل حماية إمارته من هجمات المسلمين التركمان. ووصلت الى نيقوسيا في قبرص ـ امبراطورة اللاتين بالقسطنطينية ـ ماريابرين ـ والتمست من الملك لويس مساعدتها ضد الامبراطور البيزنطي في نيقية. وأظهر الملك لويس عطفه عليها، إلا أنه أخبرها بأنه ينبغي أن تكون الأسبقية لتوجيه الحملة الصليبية لقتال المسلمين. ثم وصل آخر الأمر إلى قبرص أمير أخايا وليم هاردوين في أربع وعشرين سفينة وكتيبة من الفرنج، من

شبه جزيرة المورة، إذ أن دوق برجنديا كان قد أمضى فصل الشتاء مع وليم هاردوين في اسبارطة، وأقنعه بأن يلحق بالملك لويس في قبرص.

ضاقت الجزيرة بنزلائها الفرنج، وأصبحت كالمحشر، وكادت تنفذ كميات الطعام التي جمعت لتزويد الحملة الموجهة إلى مصر. واحتشد في خليج ليماسول اسطول ضم مئة وعشرين سفينة كبيرة لنقل الجند، مع عدد كبير من السفن الصغيرة. وشرع جيش الفرنج في اتخاذ أماكنه عليها، **ولكن عاصفة عاتية شتّتت السفن، وعندما صعد الملك لويس سفينة القيادة (مونتجوا) يوم ٣٠ أيار ـ مايو ـ ١٢٤٩ (٦٤٧ هـ) لم يقلع معه سوى ربع عدد الجيش، بينما أبحر إلى مصر سائر رجال الحملة متفرقين. ووصل اسطول الملك الى أمام دمياط يوم ٤ حزيران ـ يونيو ـ.**

كان الصالح أيوب قد أمضى فصل الشتاء في دمشق، وكان يأمل في أن يتمكن جيشه من الاستيلاء على حمص قبل أن تصل قوات الفرنج. وتوقع أن يهبط الملك لويس على سواحل بلاد الشام ـ في عكا ـ فلما تأكد أن قوات الحملة قد سارت إلى مصر، رفع الحصار عن حمص، وسار سراعاً إلى مصر، بعد أن أمر جيوشه بالشام أن تلحق به. ولما كان الصالح أيوب مريضاً يعاني من مرض السل الذي وصل إلى مرحلة متقدمه، فأعاقه عن قيادة الجيش بنفسه، أمر وزيره المتقدم في العمر، فخر الدين ـ صديق فريدريك الثاني ـ أن يتولى القيادة، وعهد إليه بمنع الفرنج من النزول إلى البر، وأرسل إلى دمياط كميات كبيرة من الذخائر والتموين، وشحنها برجال قبيلة بني كنانة وهم من البدو المشهورين بالشجاعة، واتخذ مقره في أشمون طناح، الواقعة على الفرع الرئيسي لنهر النيل وإلى الشرق منه.

تقدم كبار مرافقي الملك لويس ومستشاريه، عندما وصل إلى أمام دمياط، وتوسلوا إليه ـ بالحاح ـ ألا يهبط إلى البر قبل أن تصل بقية السفن التي تقل جنده. غير أنه رفض التأجيل. وبدأت عملية النزول على الرمال الواقعة غربي مصب النهر، في فجر يوم ٥ حزيران ـ يونيو ـ ١٢٤٩ م. واصطدمت قوات الانزال بمقاومات

متفرقة لم تلبث أن تحولت إلى معركة ضارية على ساحل البحر. غير أن ما التزم به المقاتلون الفرنسيون من نظام بالغ الجرأة، وعلى رأسهم الملك، وما أبداه فرسان الفرنج الذين انضموا من بلاد الشام إلى الحملة ـ بقيادة كونت يافا يوحنا ابلين ـ من الشجاعة والاقدام، أرغم المسلمين على التراجع بعد أن تعرضوا للخسائر الفادحة.

أفاد فخر الدين من ظلمة الليل لينسحب بجنده إلى دمياط، بعد أن اجتاز إليها جسراً من السفن. وإذ أدرك فخر الدين ما استبد بأهل دمياط من الذعر، وما هيمن على حامية المدينة من القلق والاضطراب، قرر الجلاء عن دمياط، وتبعه كل المسلمين المدنيين، بعد أن أشعل هؤلاء النيران في الأسواق، غير أنهم تجاهلوا أوامره فلم يدمروا جسر السفن. وعلم الفرنج الصليبيون في صبيحة اليوم التالي، من المسيحيين الذين لزموا دورهم، أن دمياط قد تجردت من كل أسباب الدفاع. فاجتازوا الجسر في موكب النصر الى المدينة.

ابتهج الفرنج لاستيلائهم على دمياط، ودهشوا إذ أمكنهم احتلالها بسهولة ويسر، وهيمن عليهم جو من التفاؤل بالاستيلاء على مصر كلها. إلا أنه لم يكن باستطاعتهم استثمار نصرهم في تلك الفترة الزمنية، فقد اقترب وقت فيضان النيل، وأفاد لويس من التجربة المريرة التي عانتها الحملة الصليبية الخامسة، فرفض متابعة التقدم ما لم تهبط مياه الفيضان ويعود النيل إلى حالته الطبيعية. وبالاضافة إلى ذلك، فانه كان ينتظر وصول امداد من فرنسا بقيادة أخيه ـ الفونسو كونت بواتو ـ. وتم خلال ذلك تحويل مدينة دمياط مرة أخرى إلى مدينة مسيحية على نحو ما سبق حدوثه سنة ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م، فأصبح المسجد كاتدرائية تم تعيين قسيس لها. واختصت الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة بأحياء في المدينة. وتم توزيع المكافآت النقدية على كبار سادة الفرنج. وحاز كل من الجنويين والبيازنة سوقاً وشارعاً مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات.

ونجح البنادقة في الحصول على مكافأة مماثلة بعد أن أظهروا ندمهم على سلوكهم العدائي السابق من الحملة. ولقي الاقباط المسيحيون رعاية من الملك لويس، فرحبوا بحكمه. أما الملكة ـ زوجة لويس ـ والتي كانت قد توجهت مع سائر السيدات

المرافقات للحملة الصليبية إلى عكا، حينما غادر الجيش الصليبي جزيرة قبرص، فقد تقرر استدعاءها لتلتحق بالملك في دمياط. وظلّت دمياط طوال شهور الصيف في حالة من الركود. وتأثر الجنود بحرارة الدلتا الرطبة، وتفشت فيهم الأمراض، فيما أخذت المؤن في التناقص والنفاذ.

نزل الروع بالعالم الاسلامي لضياع دمياط، وبادر السلطان الصالح أيوب فعرض على الفرنج استرداد دمياط مقابل التنازل للفرنج عن القدس. ولكن الملك لويس رفض هذا العرض، إذ أنه مازال مصراً على عدم التعاون مع أي مسلم.

عمل الصالح أيوب على انزال العقاب الصارم بالمسؤولين عن ضياع دمياط، فأمر باعدام أمراء بني كنانة، وعزل فخر الدين وكبار قادة المماليك، فحاول المماليك القيام بثورة على الصالح أيوب. لكن فخر الدين منعهم وأحبط عملهم، فما كان من الصالح أيوب إلا أن أعاده إلى ما كان له جزاء اخلاصه. واندفع جند المسلمين إلى المنصورة - وهي المدينة التي شيدها السلطان الكامل في الموضع الذي انتصر فيه على الحملة الصليبية الخامسة. وتم حمل الصالح أيوب في محفة إلى المنصورة حتى يتمكن من الاشراف على تنظيم الجيش وتوجيه الأعمال القتالية. وانطلق البدو المشهورون في حرب العصابات يجوبون الريف، وتقدموا حتى وصلوا أسوار دمياط، وقتلوا كل جندي من الفرنج أمكن لهم العثور عليه خارج أسوار دمياط. فاضطر الملك لويس لاقامة الحواجز، وحفر الخنادق حول معسكره، لحمايته من اغارات البدو.

هبطت مياه النيل في نهاية شهر تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ). ووصل في تلك الفترة ثاني أشقاء الملك الفونسوكونت بواتو. ومعه الامدادات وقوات الدعم من فرنسا. فتقرر الزحف على القاهرة. وانطلق الجيش من دمياط (يوم ٢٠ تشرين الثاني - نوفمبر-) وسار على الطريق المتجه جنوباً نحو المنصورة. وبقيت بدمياط حامية قوية، كما بقيت فيها الملكة مرغريت، وبطريرك القدس.

توفي السلطان الصالح أيوب بعد ثلاثة أيام من انطلاق الفرنج من دمياط★ وهددت وفاته المسلمين بكارثة خطيرة. فقد كان ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه بعيداً في إقليم الجزيرة. ولكن جاريته - زوجته - شجرة الدر اتفقت مع الأمير فخر الدين ورئيس الخصي على كتمان وفاة الملك، واستقدام ابنه، وأخذت البيعة له من جميع الأمراء والقواد. وصار الأمير فخر الدين قائداً عاماً (أتابكا) له.

وتشجع الفرنج لما وصلتهم هذه المعلومات، إذ ظنوا أن هذه الحكومة الضعيفة المكونة من امرأة وقائد كهل. ستنهار بسرعة، فأصروا على أن يزحفوا على القاهرة.

تعترض الطريق من دمياط الى القاهرة - على ما هو معروف - مجموعة كبيرة من القنوات ومن فروع النيل، أكبرها المعروف باسم البحر الصغير، والذي يتشكل من الفرع الرئيسي للنيل - جنوبي المنصورة - ثم يسير مجتازاً - اشمون طناح - إلى بحيرة المنزلة. فيعزل بذلك ما يعرف باسم جزيرة دمياط.

احتفظ فخر الدين بالقسم الأكبر من قواته خلف البحر الصغير، وأرسل قسماً من الخيالة - الفرسان - لإثارة الاضطراب في صفوف الفرنج عند اجتياز كل قناة، وتمكن الفرنج من تجاوز العقبات المتتالية. ثم تقدم الملك لويس بحذر وبصورة بطيئة نحو فارسكور حيث وقعت بالقرب منها يوم ٧ كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٢٤٩م حيث تراجعت قوة فرسان المسلمين. وأصر الداوية على مطاردة فرسان المسلمين المنسحبين، ورفض الملك ارجاء مثل هذه المطاردة، غير أن الداوية تحدوا أوامر الملك ومضوا حتى صادفوا صعوبة في الاتصال برفاقهم فتوقفوا، ووصل الملك بجيشه إلى البرمون يوم ١٤ كانون الأول - ديسمبر - وأقام معسكره بعد اسبوع على ضفاف البحر الصغير، مقابل المنصورة.

★ توفي الصالح أيوب يوم ١٤ رمضان ٦٤٧هـ = ٢٣ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٢٤٩م. وقد توفي بالمنصورة. وكانت أمه سودانية. اشتهر بالعبوس والميل إلى العزلة، كان دائماً معتل الصحة ولكنه كان حاكماً توافرت له كفاءة قيادية عالية. واعتبر آخر كبار رجال الأسرة الأيوبية.

ظل الجيشان ستة أسابيع، يواجه أحدهما الآخر، عبر البحر الصغير. وقد حاول الفرسان المسلمون اجتياز البحر الصغير الى جزيرة دمياط، وراء البحر الصغير، لضرب مؤخرة جيش الفرنج، غير أن الفرنج تمكنوا من احباط هذه المحاولة. وفي تلك الأثناء أمر الملك لويس باقامة جسر على البحر الصغير، غير أنه على الرغم من تشييد أروقة مسقوفة لحماية العمال والصناع، فإن ما لجأ إليه المسلمون من إلقاء القذائف من الشاطىء المقابل، ولاسيما النار الاغريقية، بلغ من العنف والشدة، ما دعى الفرنج إلى التخلّي عن العمل.

وصل إلى معسكر الملك لويس في مطلع شباط ـ فبراير ـ سنة ١٢٥٠ م رجل من أقباط مصر. وعرض على الملك أن يكشف له عن مكان مخاضة لعبور البحر الصغير، مقابل خمسمائة دينار. وشرع الفرنج في عبور المخاضة، في فجر يوم ٨ شباط ـ فبراير ـ وبقيت قوة كبيرة من الجند لحماية المعسكر ـ بقيادة دوق برجنديا ـ. بينما ارتحل الملك لويس مع الجيش الصليبي الزاحف، وتولى أخوه روبرت كونت أرتوا قيادة مقدمة الجيش التي ضمت كتيبة من طائفة فرسان الداوية وكتيبة انكليزية بقيادة الدوق وليم سالسبوري. وتلقى روبرت أوامر صارمة من أخيه الملك لويس بألا يهاجم المصريين إلا بعد الحصول على إذن بذلك. وتمكن الفرنج من عبور مخاضة البحر الصغير بعناء كبير ومشقة شديدة. وما إن انتهى عبور المقدمة حتى قرر ـ روبرت كونت أرتوا ـ مهاجمة معسكر المسلمين، للإفادة من ظلمة الفجر، وتحقيق المباغتة. وحاول الداوية معارضته بحجة الالتزام بأوامر الملك، غير أن روبرت أصر على تنفيذ الهجوم على المعسكر الذي لم يكن يبعد أكثر من ميلين. واندفع فرسان الفرنج، واقتحموا معسكر المسلمين وقتلوا كثيراً من الجند قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى أسلحتهم. وهرب آخرون قبل أن يكملوا ارتداء ثيابهم ليجدوا في المنصورة ملاذاً لهم.

أما القائد فخر الدين، فانه ما إن سمع الجلبة والضجيج، حتى وثب إلى صهوة جواده، ولما يكمل ارتداء ثيابه أو يضع درعه، وقذف بنفسه في المعركة، فأحاطت به طائفة من الفرسان الداوية، ومزقت جسده بطعنات رماحها وسيوفها.

قرر قائد المقدمة ـ روبرت كونت أرتوا ـ استثمار هذا الظفر والهجوم على المنصورة، ولم يأخذ بتوسلات مقدم الداوية أو قائد الكتيبة الانكليزية لانتظار عبور الملك والجيش المخاضة. واضطر الداوية مرة أخرى لاتباع أوامر ـ شقيق الملك روبرت ـ وكذلك فعل قائد الكتيبة الانكليزية وليم سالسبوري.

لم تتأثر قوات المسلمين لاستشهاد قائدها ـ فخر الدين ـ وتولى القيادة أقدر قادة المماليك وأوفرهم كفاءة ـ ركن الدين بيبرس البندقداري ـ الذي تمكن من السيطرة على الموقف، وأعاد النظام إلى الجند، ونشر رجاله داخل المنصورة، وعند تقاطع الأزقة الضيقة، وأمر بفتح باب المدينة، وترك لفرسان الفرنج حرية التدفق إلى داخل المنصورة.

اندفع الفرسان الفرنسيون داخل المنصورة حتى وصلوا القلعة، وتبعهم في اندفاعهم فرسان الداوية. وعندها انقض المماليك المسلمون على الفرنج من الشوارع والأزقة الجانبية، ولم يكن باستطاعة الخيول التحرك أو الاستدارة في الحيز الضيق، فوقع الفرسان على الفور في ذهول واضطراب وفوضى. ولم يتمكن من الهرب إلا عدد قليل من الفرسان الذين وصلوا راجلين إلى ضفاف النيل، الذي كان ينتظر وصولهم ليغرقهم في مياهه. ولقي فرسان الداوية مصرعهم وهم يقاتلون في الشوارع، ولم يبق على قيد الحياة منهم إلا خمسة من قوتهم التي كانت تضم مائتي وتسعين فارساً. ولجأ قائد المقدمة شقيق الملك ـ روبرت كونت آرتوا ـ وحرسه إلى أحد البيوت. ولكن المسلمين لم يتأخروا عن اقتحام هذا البيت، وقتلوا كل من فيه. وسقط في القتال قائد الكتيبة الانكليزية ايرل وليم سالسبوري ومعظم أفراد كتيبته، وكان بطرس كونت بريتاني مع قوات المقدمة، فأصابته جراح خطيرة في رأسه، ولكنه استطاع ركوب حصانه والخروج من المنصورة، والاسراع لابلاغ الملك لويس بما حدث.

كان الجيش الصليبي قد فرغ من عبور البحر الصغير عندما علم لويس بنتائج معركة المنصورة. فأسرع لاقامة خط متقدم للدفاع من أجل مجابهة احتمال هجوم المسلمين. كما أرسل المهندسين والعمال لاقامة جسر على مجرى البحر الصغير. واتخذ الرماة مواضع لهم

على الطرف البعيد للنهر، من أجل حماية الجند عند عبورهم إذا ما دعت الضرورة لذلك. وحدث ما توقعه الملك، إذ لم يكد جند المسلمين ـ المماليك ـ أن انقضوا على خطوطه. واشتد الملك لويس في ضبط جنوده، بينما كانت سهام جند المسلمين تنهال عليهم كالمطر. وعندما شعر الملك لويس أن سهام المسلمين قد أوشكت على النفاذ، أمر بشن هجوم مضاد على المسلمين، وتراجع فرسان المسلمين أمام قوات الفرنج، وأعادوا تنظيم قواتهم ثم عادوا للانقضاض على الفرنج، بينما حاولت قوات أخرى أن تعيق عملية بناء الجسر. وكاد الملك لويس يسقط في القناة خلال تراجعه، ولم ينقذه إلا قيام قوات الفرنج بهجوم جديد. وحدث آخر الأمر ـ قبيل غروب الشمس ـ أن اكتمل بنـاء الجسر، فاجتازه الرماة، وكفل قدومهم النصر للملك. وانسحب المسلمون مرة أخرى إلى المنصورة. وأقام الملك لويس معسكره في الموضع الذي سبق أن عسكر فيه جنده في الليلة السابقة. ولم يعلم الملك إلا وقتئذ بمصرع أخيه ـ روبرت كونت آرتوا ـ فاغرورقت عيناه بالدموع.

دفع الفرنج الصليبيون في قتال هذا اليوم ثمناً باهظاً. وأدرك الملك لويس أنه لم يعد يمتلك القدرة القتالية لمهاجمة المنصورة مرة أخرى. وظهرت خطورة الموقف عند مقارنته بما حدث في الحملة الصليبية السابقة (الخامسة) عندما توقف الجيش الصليبي في موضع قريب من هذه البقعة، واضطر بعد ذلك للانسحاب.

ولم يأمل الملك لويس يومها بما هو خير من هذا المصير، إلا إذا وقع اضطراب في حكم مصر مما يرغم حكومة القاهرة على التقدم بعرض شروط مقبولة للصلح. وفي انتظار حدوث مثل هذا الاحتمال، أمر الملك لويس بتحصين معسكره، ودعم الجسر الذي أقيم على البحر الصغير، وظهرت فائدة هذا التحصين بعد ثلاثة أيام، فقد تلقى المسلمون دعماً من الجنوب، زادهم قوة على قوتهم، فدارت معركة (يوم ١١ شباط ـ فبراير ـ سنة ١٢٥٠ م) اعتبرت أعنف معركة عرفها مقاتلوا الفرنج، حيث توالى هجوم المسلمين مرة بعد أخرى، في موجات متتابعة، وكانوا يطلقون سحابة من السهام قبل كل انقضاض على الفرنج، بينما أخذ الملك لويس في منع الاشتباك مع

المسلمين المرة بعد المرة، حتى حان الوقت للقيام بهجوم معاكس على المسلمين - وصمد الجناح الأيسر للفرنج أمام هجوم المسلمين، ولكن الجناح الأيسر تعرض للتمزق والانهيار مما دفع الملك لويس للاسراع بقيادة الدعم لهذا الجناح. ونجح المسلمون بتطويق الفونسو كونت بواتو الذي كان يتولى حماية معسكر الفرنج على الجناح الأيمن، ولم ينقذه إلا تدخل النساء والطباخين وخدم المعسكر. وعندما انتهى قتال اليوم، انسحب جند المسلمين في نظام رائع، ورجعوا إلى المنصورة.

توقف الملك لويس في معسكره أمام المنصورة لمدة ثمانية أسابيع وهو ينتظر حدوث المعجزة. ولكن المعجزة لم تحدث، ولم تقع ثورة في قيادة المسلمين. بل إن ما حدث هو النقيض لما كان يحلم به. فقد وصل طوران شاه ابن السلطان الصالح أيوب إلى مصر يوم ٢٨ شباط، فبراير - سنة ١٢٥٠ م. إذ أنه لم يكد يسمع من زوجة أبيه - شجرة الدر - بنبأ وفاة والده، حتى غادر عاصمته في ديار بكر، وانحدر جنوباً حتى وصل إلى دمشق، فأمضى فيها ثلاثة أيام، وأخذ البيعة من أهلها، ثم انطلق نحو مصر. وكان قدومه إلى المنصورة إيذاناً بتصعيد الصراع المسلح. وكان أول ما فعله طوران شاه أن أمر بصنع اسطول من السفن الخفيفة التي تم نقلها على ظهور الجمال إلى الفروع السفلى من النيل، وأخذت هذه السفن في اعتراض طريق سفن الفرنج التي كانت تجلب لهم من دمياط الامدادات والمواد التموينية. واستولى المسلمون بذلك على ثمانين سفينة للفرنج، الواحدة بعد الأخرى، وزاد الأمر على الفرنج صعوبة، عندما استولى اسطول المسلمين (يوم ١٦ - آذار - مارس) على قافلة للفرنج ضمت اثني وثلاثين سفينة، وذلك بعد أن تعرضت هذه القافلة لهجوم واحد شنه عليها اسطول المسلمين. وكان لا بد لمعسكر الفرنج نتيجة لذلك من أن يتعرض للمجاعة، وتبع ذلك انتشار الأوبئة والأمراض بين جند الفرنج - وخاصة التيفوئيد والدوسنطاريا.

أدرك الملك لويس أنه لا بد من بذل كل جهد مستطاع لانقاذ الجيش من مأزقه، وسحبه إلى دمياط. وأظهر استعداده في نهاية الأمر للدخول في مفاوضات مع المسلمين. فأرسل إلى طوران شاه يعرض عليه أن يستبدل دمياط بالقدس. غير أن الوقت قد فات.

وعرف المسلمون ما وصل إليه جيش الفرنج من التدهور، ولهذا لم يلق عرض الملك لويس إلا الرفض. فما كان من الملك لويس إلا أن وجه الدعوة لقادته من أجل الاجتماع به، ومناقشة قضية الانسحاب إلى دمياط. وتوسل القادة أن يتسلل الملك بحرسه إلى دمياط. غير أنه رفض في كبرياء أن يتخلى عن رجاله. فتقرر نقل المرضى على السفن بطريق النيل، وأن يتخذ الأصحاء من الجند الطريق الذي سبق أن سلكوه في قدومهم.

قوض الفرنج معسكرهم في صبيحة يوم ٥ نيسان - أبريل - سنة ١٢٥٠ م. وبدأت الرحلة الشاقة، واتخذ الملك لويس مكانه في المؤخرة لتشجيع الجنود الشاردين عن الطريق أو المتخلفين عن الجيش. وأسرع المسلمون لمطاردة الفرنج عندما شاهدوا انسحابهم، فاكتشفوا أن الفرنج قد اجتازوا جميعاً البحر الصغير، غير أن مهندسيهم لم يدمروا الجسر، فهرعوا لاجتياز البحر الصغير على هذا الجسر. وشرعوا في مضايقة الفرنج وإزعاجهم من كل جانب. واستطاع الفرنج الذين كانوا يسيرون بصورة بطيئة، أن يردوا هجمات المسلمين طوال ذلك اليوم. وخرّ الملك مريضاً في تلك الليلة، ولم يتمكن من الاحتفاظ بتوازنه على صهوة جواده في اليوم التالي إلا بصعوبة كبيرة. وتابع المسلمون تضييق دائرة الحصار على جيش الفرنج شيئاً فشيئاً، وأخذوا في تصعيد هجماتهم بكل القوة المتوافرة لديهم. ومقابل ذلك تناقصت مقاومة جند الفرنج المرضى والذين أرهقتهم المقاومة. وظهر واضحاً أن النهاية قد اقتربت.

عمل قائد الحرس الملكي - جيفري سارجينس - عندما اشتد القتال، على اصطحاب الملك إلى كوخ بقرية ميت الخولي عبدالله، الواقعة الى الشمال من شرمساح. وبدأ قادة الفرنج باجراء مفاوضات مع المسلمين، وأثناء ذلك انطلق أحد فرسان الفرنج فأعلم القادة - باسم الملك - بالاستسلام للمسلمين دون قيد ولا شرط، وجرى الظن أن المسلمين قد بذلوا الرشوة لهذا الفارس - الذي قيل ان اسمه مارسيل - للقيام بما قام به. فأطاع القادة الأمر الذي زعم أن الملك لويس لم يعرف عنه شيئاً، وألقوا أسلحتهم بعد أن تم تطويق الجيش بأسره، وحمل القادة إلى الأسر. وحدث في تلك

الساعة أيضاً أن جرى تطويق وأسر السفن التي كانت تحمل مرضى الفرنج وجرحاهم إلى دمياط.

ذهل المسلمون لوفرة ما وقع في أيديهم من الأسرى، وتبين لهم أنه من المحال عليهم تأمين حراستهم جميعاً، فتقرر على الفور الاجهاز على أولئك الذين بلغوا من الضعف مرحلة لا تمكنهم من السير. وتم نقل الملك لويس إلى دار ابن لقمان في المنصورة، وتوكل بأمره وأمر كبار البارونات الطواشي صبيح. وأرسل إليه السلطان طوران شاه أمراً بالتنازل لا عن دمياط وحدها، بل عن كل ما للفرنج من ممتلكات في بلاد الشام. فأجاب الملك لويس بأن هذه البلاد ليست من أملاكه، بل إنها تخص كنراد، ابن الامبراطور فريدريك الثاني، وما من أحد سوى الامبراطور يستطيع التخلي عنها. فأغفل المفاوضون المسلمون هذا الطلب. وفرضوا على الملك لويس أن يفتدي نفسه بمبلغ مليون بيزنته. فلما وقع الملك على شروط الصلح، جرى نقله مع كبار البارونات - على السفن - إلى فارسكور التي اتخذها السلطان طوران شاه مقراً له. وقضى الاتفاق أن يتم تسليم دمياط للمسلمين بعد يومين (أي في يوم ٣٠ نيسان - ابريل - سنة ١٢٥٠ م).

كان طوران شاه قد شرع منذ وصوله إلى مصر في إعادة تنظيم الدولة، وأسند القيادة لمن يثق بهم من القادة الذين ساروا معه من الجزيرة والشام. مما أغضب المماليك، كما طالب زوجة أبيه شجرة الدر بكل ما كان بحوزة أبيه من أملاك، مما أغضب شجرة الدر التي نظمت مؤامرة لقتل طوران شاه. فلما كان يوم ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ (٢ - أيار - مايو - ١٢٥٠ م) اقتحم ركن الدين بيبرس البندقداري - من كبار المماليك البحرية - مقر إقامة الملك المعظم طوران شاه، وضربه بالسيف، وطارده حتى أجهز عليه، وتولت شجرة الدرّ الحكم، واعتمدت على عزّالدين ايبك الذي جعلته أتابكاً (قائداً عاماً).

قام الفرنج بتسليم حصن دمياط للمسلمين يوم الجمعة ٣٠ محرم ٦٤٨ هـ (٤ -

أيار - مايو - ١٢٥٠ م) وتم اطلاق سراح الملك وشقيقه الفونسو كونت بواتو - بعد أن تم دفع نصف المبلغ المتفق عليه. واحتفظ المسلمون بأعداد من الأسرى الذين تقرر عدم إطلاق سراحهم إلا بعد أن يؤدي الملك لويس بقية الفدية. وسارت السفن من دمياط إلى عكا تحمل رايات الهزيمة، وذل الأسر، وكأن ذلك لم يكن كافياً فجاءت عاصفة عاتية لتزيد من معاناة الملك الذي لم يصل إلى عكا إلا بعد مشقة كبيرة.

١٦ ـ المغول التتار ـ وعين جالوت .

لم يكن غريباً على الفرنج، وقد حفزهم الحقد الأسود، وحركتهم مشاعر الكراهية البغيضة، أن يعملوا على زجّ كل قوى العالم ضد العرب المسلمين خاصة، وضد المسلمين عامة، حتى لو كانت هذه القوى تعتنق الكفر والوثنية. ولما كان المغول التتار قد ظهروا على مسرح الأحداث من خلال اجتياحهم لأقطار المشرق والمغرب، ودمروا الدولة الخوارزمية التي كانت تحمي الدولة العباسية من جهة الشرق، وتمتد حدودها من كردستان والخليج العربي إلى بحر آرال وهضبة بامير ونهر السند. فقد ظهر للفرنج أن قوة المغول هذه قد تصلح أداة لتدمير الاسلام وأهله. ولم يكن من الصعب ابتداع القصص والأساطير لتوجيه الأنظار نحو قوة المغول للافادة منها، فزعم قسيس ـ اسمه يوحنا بريستر ـ أنه تجلى له **بأن الخلاص سوف يجيء من الشرق**. ولما جاء البابا ـ انوسنت الرابع ـ الذي سبقت الإشارة إليه، وإلى ما بذله من جهد لتوحيد جهود العالم الصليبي ـ. أرسل سفارتين إلى بلاط الخان الكبير ـ في قراقورم ـ. الأولى في سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) والثانية في سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م). وعلى الرغم من فشل السفارتين في اقناع الخان الكبير باعتناق المسيحية، والعمل من أجل الصليبية، إلا أن الفرنج الصليبيون تمسكوا بأوهامهم. وهكذا استمرت المحاولات. وعندما جاء ملك فرنسا لويس التاسع الى قبرص، من أجل قيادة حملته على مصر. تصادف أن وصل إلى نيقوسيا مبعوثان نسطوريان، وهما مرقص وداود، وأفادا بأن القائد المغولي جهيداي، الذي كان مندوباً عن الخان الكبير في الموصل، قد أرسلهما لحمل رسالة لملك فرنسا. ولقد تضمنت هذه الرسالة عبارات جافة عن عطف المغول على الصليبية. ورحب لويس بهذه الرسالة، وأسرع بايفاد بعثة ضمت رهباناً يتحدثون اللغة العربية. وحملت البعثة معها هدية تليق بخان بدوي حديث العهد باعتناق المسيحية، وهذه الهدية هي كنيسة متنقلة وما يلزم مذبحها من المخلفات الدينية، بالاضافة الى هدايا دنيوية أخرى. وقد

غادرت هذه البعثة قبرص سنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م. وعادت البعثة بعد ثلاث سنوات ومعها رسالة من أغول قايميش - الوصية على عرش المغول بعد وفاة زوجها الخان الكبير كيوك. وأفاد رئيس البعثة - اندرو لونجيجيمو - أن أغول قايميش قد اعتبرت بأن هدايا الملك لويس ما هي إلا إتاوة من تابع إلى سيده. أما الرسالة التي حملها رئيس البعثة، فتضمنت الشكر لما أبداه تابعها - الملك لويس - من الاهتمام بها. وأكدت الوصية أنه لا بد للتابع من ارسال الهدايا المماثلة في كل سنة. وارتاع الملك لويس لهذا الرد، غير أنه لم يداخله اليأس في امكان التحالف مع المغول التتار في يوم من الأيام.

وهكذا، فعندما انتقل الملك لويس من سجنه في المنصورة إلى عكا، بات أكثر رغبة للافادة من المغول، وعلم أن أحد أمراء المغول - وهو سارتاق بن باطو - قد تحول إلى المسيحية، فبادر إلى إرسال راهبين من أجل حثّ الأمير المغولي، وتحريضه للاسراع بتقديم المساعدة لاخوانه المسيحيين في بلاد الشام. وساءت هذه البعثة الجديدة سنة ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م. غير أنه لم يكن لأمير مغولي صغير من السلطات ما يجعله يعقد محالفة تعتبر بالغة الأهمية.

كان المغول التتار قد أعادوا تنظيم أمورهم، وانتخب مجلسهم الوطني (القوريلتاي) قائدهم منكو لاشغال منصب الخان الكبير، وذلك في منتصف سنة ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م. وبقي منكو وأخيه الأصغر أريق بوقا في قراقورم - في منغوليا - فيما أسند إلى أخيه الثاني قبيلاي مهمة فتح الصين.

ونقل باطو مقره إلى الروافد السفلى لنهر الفولغا، كيما يسيطر على أتباعه الأمراء في روسيا، وأنشأ بتلك الجهات الخانية المعروفة عند المؤرخين المسلمين باسم القبجاق، والتي تحولت إلى الإسلام، وعرفت عند المغول والروس باسم (القبيلة الذهبية)★.

أما حكومة فارس، فقد انتقلت إلى ثالث اخوة منكو - وهو القائد هولاكو -. وتهيأت بذلك الظروف أمام المغول التتار لمتابعة سياستهم التوسعية.

★ القبيلة الذهبية: (GOLDEN-HORDE)

كانت مملكة أرمينية بقيليقية هي أولى الكيانات الصليبية التي أدركت أهمية المغول، وما يمكن أن يتحقق على أيديهم ضد المسلمين. فأرسل ملك الأرمن ـ هيثوم ـ كتاباً إلى قائد المغول ـ بيجو ـ سنة ٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م يفيض بالولاء والاحترام. ثم عمل في سنة ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م. على ارسال سفارة إلى بلاط الخان الكبير في قراقورم، نقلت إلى الخان كيوك استعداد ملك الأرمن ليكون تابعاً لخان المغول. فأرسل الخان تقليداً إلى هيثوم تعهد فيه بسلامة ممتلكاته ووحدتها. فلما أعيد تنظيم الامبراطورية المغولية سنة ٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ م. أصبحت قراقورم مركز الدبلوماسية في العالم. وقصدها سفير الملك لويس التاسع وسفير الامبراطور اليوناني، وسفير الخليفة العباسي وسفير ملك دلهي وسفير السلطان السلجوقي بالاضافة إلى امراء من الجزيرة وكردستان وروسيا. وقد جاء هؤلاء جميعاً لخدمة الخان الكبير، الذي كان في خدمته أيضاً، تاجر جواهر من باريس مع زوجته المجرية، وامرأة ألزاسية تزوجت إلى مهندس روسي. ولم يكن بالبلاط المغولي شيء من التفرقة الدينية أو العنصرية. إلاّ أنه كان للمسيحيين النساطرة أقوى نفوذ ديني، فحباهم منكو بعطف خاص، وفاء لذكرى أمه سورجقتاني التي ظلت دائماً مخلصة لعقيدتها. ومراعاة أيضاً لزوجته الامبراطورة كوتوكتاي والكثيرات من زوجاته الأخريات اللواتي كن يعتنقن المذهب النسطوري. وهو المذهب الذي ارتاع له رجال الدين الغربيون الذين شاهدوا بأنفسهم ما كان عليه النساطرة من الجهل والانغماس في المباذل، بحيث أن صلواتهم لم تكن إلا ضرباً من فجور السكارى ومجون العاهرات.

ما كان لملك الأرمن هيثوم أن يتخلف عن تقديم الولاء للخان الكبير منكو. فسار بنفسه إلى قراقورم. وحاز حظوة خاصة، ذلك أن سائر السفراء الأجانب كانوا إما أتباعاً جرى استدعاؤهم برغم إرادتهم، وإما كانوا ممثلين لملوك زعموا لأنفسهم في تعاظم وتعال الاستقلال.

وقد أقام منكو حفل استقبال رسمي لضيفه هيثوم في ١٣ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٥٤ م، وأعلن فيه منح هيثوم وثيقة تكفل لشخصه ومملكته السلامة، وجرت معاملته على أنه كبير مستشاري الخان المسيحيين في كل ما

يتعلق بأمور غرب آسيا. ووعده منكو بأن يعفي كل الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب. وصرّح بأن أخاه هولاكو، الذي استقر في فارس، قد تلقى الأوامر بالاستيلاء على بغداد، وتدمير سلطان الخلافة. وتعاهد أنه إذا تعاون معه كل القوى المسيحية فسوف يعيد إلى المسيحيين مدينة القدس ذاتها.

وغادر هيثوم قراقورم مثقلاً بالهدايا، ومبتهجاً بما تكللت به جهوده من نجاح.

وسار المغول التتار، بقيادة هولاكو من منغوليا، واجتاحوا بلاد فارس، ودمروا في طريقهم معاقل حلفاء الملك لويس وهم طائفة الحشاشين (أو الاسماعيلية). وعملوا على ابادتهم ابادة تامة. ثم وصلوا إلى بغداد ودمروها. ووجه هولاكو اهتمامه إلى الشام بعد تدمير بغداد، فكان أول إجراء اتخذه هو احكام قبضته على الجزيرة، وتدمير الأمير الأيوبي الكامل محمد ـ حاكم ميافارقين ـ والذي رفض قبول السيادة المغولية. فسار هولاكو إلى ميافارقين، واستولى عليها سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. ولقي هولاكو كل مساعدة من الكرج والأرمن مما ساعده إلى حد كبير في فتح عاصمة الجزيرة، حيث دارت مذبحة في المسلمين، بينما جرى الابقاء على حياة المسيحيين. وتعرض الكامل للتعذيب الوحشي، بأن أرغموه على أن يأكل من لحم جسده حتى مات.

قاد هولاكو الجيش المغولي للاستيلاء على شمالي غرب سوريا، وتولى القائد كتبغا قيادة المقدمة، بينما تولى بيجو قيادة ميمنة الجيش. وأسندت قيادة الميسرة إلى القائد سنجق الذي كان من المقربين إلى هولاكو. في حين تولى هولاكو قيادة قلب الجيش. واجتاح الجيش المغولي نصيبين وحران والرها، حتى بلغ البيرة وعبر عندها نهر الفرات. وحاولت سروج أن تقاومه فتعرضت للنهب. ووصل الجيش المغولي أخيراً إلى حلب (في مطلع سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م) وأطبق عليها من جميع جهاتها. ورفضت الحامية الإستسلام، فتقرر اقتحام المدينة. وكان السلطان الناصر في دمشق عندما هبت العاصفة. وقد استبسل في الدفاع عن حلب عم الناصر يوسف ـ واسمه طوران شاه ـ غير أن الأسوار لم تلبث أن انهارت بعد أن تعرضت للقذف ستة أيام متوالية. وتدفق المغول إلى داخل المدينة. وحدث بحلب مثلما حدث في كل مكان. إذ دارت المذابح في

المسلمين، بينما لم يتعرض المسيحيون لسوء. - باستثناء عدد من الارثوذكس الذين لم يجر الاعتراف بكنيستهم حينما اشتد القتال -. ودارت مذبحة مماثلة بحامية حصن حارم. وعندها قدم هولاكو إلى طرف أنطاكية، وزار معسكره كل من ملك أرمينية وصهره أمير أنطاكية، ليقدما الولاء والطاعة له. ولما كان ملك أرمينية هيثوم قد دعم هولاكو بكتائب إضافية فقد كافأه هولاكو بأن منحه قدراً من الغنائم التي حازها من حلب. وطلب إلى الأمراء السلاجقة - المسلمين - أن يردوا له ما سبق أن استولى عليه والدهم من ممتلكات ملك الأرمن في قيليقية. وظفر أمير أنطاكية - بوهمند - بمكافأة أيضاً، جزاء له على خضوعه لهولاكو، فتقرر أن تعاد إلى إمارة أنطاكية بعض المدن والحصون التي أعاد المسلمون فتحها في عهد صلاح الدين الأيوبي - ومنها اللاذقية - وذلك مقابل أن يوافق بوهمند على أن يحل البطريرك اليوناني - يوثيميوس - في انطاكية مكان البطريرك اللاتيني.

انحدرت جحافل المغول التتار نحو الجنوب، ولم يحاول السلطان الناصر يوسف تنظيم الدفاع عن عاصمته - دمشق -. إذ أنه حينما نمي إليه نبأ سقوط حلب، وتحرك جيش المغول نحو دمشق، فرّ إلى مصر. وأرسلت حماة وفداً إلى هولاكو ليقدم إليه مفاتيح المدينة (في شباط - فبراير - ١٢٦٠) وحذت حذوها دمشق بعد بضعة أيام.

فدخل كتبغا دمشق في أول - آذار - مارس - سنة ١٢٦٠م، على رأس جيش مغولي. وصحبه ملك أرمينية وأمير أنطاكية، وشهد سكان عاصمة الأمويين لأول مرة منذ الفتح العربي - الإسلامي قبل ستة قرون، ثلاثة من امراء المسيحيين يركبون معاً بموكبهم عبر شوارع المدينة.

ظنّ المسلمون أن الدنيا قد أطبقت عليهم بعد أن اجتاح المغول التتار العواصم الرئيسة الثلاث: بغداد وحلب ودمشق. وظن أعداء الإسلام بضياع هذه المدن الثلاث من المسلمين أن الاسلام وأهله قد حان منهم الأجل. وانتعش المسيحيون في بلاد الشام. فقد كان كتبغا ذاته مسيحياً. ولم يحاول إخفاء عواطفه تجاههم. وأضحى المسلمون في بلاد الشام كالغرباء وذلك لأول مرة منذ ظهور الإسلام. فأخذوا يتحرقون شوقاً للانتقام.

أرسل كتبغا خلال فصل الربيع من سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. مجموعات قتالية من جيشه، فاحتلت نابلس وغزة غير أنها لم تصل مطلقاً إلى القدس ذاتها. وبذلك أحاط المغول التتار بالفرنج من كل الجهات. ولم يكن في نية المغول التعرض لإمارات الفرنج وممتلكاتهم طالما أن هؤلاء الفرنج قد التزموا بالخضوع للسادة المغول. وقد أظهر عقلاء الفرنج استعدادهم لتجنب إثارة السادة المغول، إلا أنه لم يكن باستطاعتهم ضبط مثيري الفتن عندهم. وكان سيد صيدا يوليان من بين هؤلاء المتعبين - مثيري الفتن - الذين ظهر لهم أن اقتتال المسلمين والمغول هو الفرصة المناسبة للحصول على مكاسب. فقاد يوليان قواته وأغار على سهل البقاع الخصيب. غير أن كتبغا لم يكن ليسمح للفرنج بتقويض النظام الذي أقامه حديثاً. فأرسل جماعة صغيرة من المغول بقيادة ابن اخته لانزال العقاب بالفرنج. فما كان من يوليان إلا أن أسرع لطلب النجدة من جيرانه، فكمنوا لابن اخت كتبغا وقتلوه. وإذ غضب كتبغا لما حدث، أرسل جيشاً كبيراً نفذ إلى صيدا وخرب المدينة. وغضب ملك أرمينية - هيثوم - حينما علم بما حدث، وألقى اللوم على الداوية الذين أفادوا من خسائر يوليان، فانتزعوا منه حق رهن صيدا والشقيف. وما حدث بعد ذلك بفترة قصيرة من إغارة سيد بيروت - يوحنا الثاني - والداوية، على الجليل، لقيت من القوات المغولية معاملة بالغة الصرامة. وكان على هولاكو أن يبقى قرب الطرف الشرقي لاملاكه، استعداداً للتحرك إلى منغوليا إذا ما تطلب الأمر، وذلك نظراً لما حدث من خلاف بين قبيلاي وأخيه الأصغر أريق بوقا بعد وفاة أبيهما منكو سنة ١٢٥٩ م. وبالاضافة إلى ذلك:

فقد كان على هولاكو اتخاذ موقف الحذر من أبناء عمومته في القبيلة الذهبية، بعد أن ساءت العلاقات بينهم. إذ بينما كان بلاط هولاكو يظهر عطفه الشديد على المسيحيين، كان الخان بركة زعيم القبيلة الذهبية، قد تحول وقبيلته إلى الإسلام، وأنكر على هولاكو ما اتخذه من سياسة مناهضة للمسلمين. ووقع الصدام بين المعسكرين المغوليين في جبال القوقاز التي كانت هي الحد الفاصل بين منطقتي نفوذ بركة وهولاكو. وأخذ بركة وقادته على اضطهاد القبائل المسيحية انتقاماً لما كان يفعله هولاكو بالمسلمين. وما أقدم عليه

هولاكو من محاولة لتوطيد سلطانه في الجانب الشمالي لجبال القوقاز، أحبطتها الهزيمة الساحقة التي أنزلها نوغاي ـ ابن اخت بركة ـ بجيش هولاكو قرب نهر تريك وذلك في سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م.

تجمعت كل قوى المسلمين في مصر التي بقيت أكبر كيان إسلامي لم يتعرض للهزيمة. وكان المماليك ـ الحكام الجدد لمصر ـ على درجة كافية من القوة لمجابهة تحدي المغول. كان المماليك قد أسندوا الحكم إلى عز الدين ايبك التركماني بعد قتل الملك المعظم طوران شاه (سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م). ثم اتفق المماليك على إقامة الأشرف موسى بن يوسف، خليفة على مصر، وصار عز الدين ايبك قائداً عاماً له (أتابك).

فلما كانت سنة ٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ م، عمل المعزّ عز الدين ايبك على قتل خشداشه★ القائد أقطاي الذي كان يمنعه عن الاستقلال بالسلطنة، وأبطل خلافة الأشرف موسى ابن الكامل بن أيوب، وبعث به إلى عماته. فكان موسى المذكور هو آخر من خطب له من الأيوبيين بمصر. واستقل المعز ايبك بالسلطنة. ولما علمت المماليك البحرية بقتل أقطاي، توجهوا من مصر إلى صاحب الشام الناصر يوسف. ولم يلبث المعز ايبك أن تزوج شجرة الدر أم خليل. غير أن الحكم لم يستقر طويلاً، فقد حدث خلاف بين المعز ايبك وشجرة الدر التي نظمت مؤامرة لقتل ايبك، بينما كان ماراً في الدهليز السري الموصل إلى دار الحريم، إذ وثب عليه خمسة خصيان بيض، كانوا قد كمنوا له هناك، وخنقوه بعمامته (في ٢٣ ربيع الأول ـ سنة ٦٥٥ هـ = ابريل ـ نيسان ـ ١٢٥٧ م) ولم تلبث شجرة الدر إلا شهراً وبضعة أيام حتى تعرضت للضرب الشديد حتى ماتت.

قرر المماليك المناداة بنور الدين علي ابن السلطان ايبك، سلطاناً على مصر، ولما يتجاوز عمره الخمسة عشر عاماً. ونظراً لافتقار نور الدين للمؤهلات القيادية، فقد عزله أحد رفاق أبيه القدماء ـ وهو قطز ـ وذلك يوم الأربعاء ٤ محرم سنة ٦٥٧ هـ

★ خشداشه ـ كلمة فارسية، تعني زميلين مملوكين لسيد واحد.

= ٢٨ كانون الثاني ـ يناير ـ سنة ١٢٥٩ م، وحل مكانه في السلطنة، وإذ تولى قطز السلطنة، عاد إلى مصر سائر المماليك ـ أمثال بيبرس ـ الذين حملتهم كراهيتهم لايبك وخوفهم منه، على الفرار إلى دمشق، في وقت كانت دمشق ذاتها تتعرض لخطر المغول التتار.

لم يكن قطز قد أمضى أكثر من شهر في حكم مصر، يوم وصلت إلى القاهرة سفارة أرسلها هولاكو بمهمة الطلب إلى السلطان للخضوع والاذعان لحكم المغول. فما كان من قطز ـ أو قطوز ـ إلا أن أمر بقتل رسول هولاكو.

وأسرع بحشد جيشه الذي ضم أجناد مصر، والقوات الخوارزمية التي لجأت إلى مصر. وكذلك جيش الكرك. وقاد قطوز جيشه واجتاز حدود مصر في نهاية شعبان ٦٥٨ هـ (٢٦ تموز ـ يوليو ـ ١٢٦٠ م). وزحف على غزة، وتولى بيبرس قيادة المقدمة، وكان كتبغا قد ترك حامية بغزة بقيادة بايدار، الذي أرسل إلى قائده كتبغا ينذره بالغزو، غير أن المصريين تغلبوا على عساكره قبل أن تصل إليه النجدة.

كان قائد المغول في بلاد الشام ـ كتبغا ـ مقيماً في بعلبك عندما بلغه تحرك جيش المسلمين من مصر. فتجهز للمسير على الفور الى وادي نهر الأردن ـ بعد أن يتجاوز بحر الجليل ـ. إلا أنه لم يتمكن من التحرك بالسرعة التي يحتاجها الموقف، فقد قام المسلمون في دمشق برفع راية التمرد واشعال نار الثورة، وحطموا كنائس المسيحيين ودورهم. مما أرغم كتبغا على استخدام جنده من أجل إعادة الأمن إلى نصابه. وأثناء ذلك، **قرر المظفر قطوز السير بجيشه على امتداد الساحل الفلسطيني، ثم المضي الى عمق البلاد ـ على اتجاه الشمال، لتهديد خطوط امداد كتبغا وضرب مؤخراته، إذا ما توجه كتبغا إلى فلسطين.**

ولما كان هذا التحرك يتطلب اجتياز المناطق التي يحتلها الفرنج، فقد تقرر إيفاد سفارة الى عكا من أجل طلب الاذن بالعبور، والحصول على المواد التموينية التي يحتاجها جيش المسلمين أثناء مسيره، مع الحصول على دعم من الفرنج ـ باشتراك قوات مقاتلة ـ إذا ما أراد الفرنج ذلك.

اجتمع امراء - بارونات - الفرنج في عكا، لمناقشة ما طلبه المظفر قطوز، وكان هؤلاء يشعرون بالمرارة لما قام به المغول من نهب لمدينة صيدا - منذ فترة قريبة. كما أنهم لم يثقوا بالمغول القادمين من جوف آسيا، والذين حفل سجلهم بالمذابح الجماعية، وبكل أنواع الجرائم. لقد ألفوا الحضارة الإسلامية، وكان معظمهم يؤثرون المسلمين على المسيحيين الوطنيين الذين حباهم المغول بقدر كبير من العطف والرعاية. وأظهر أمراء الفرنج - البارونات - في أول الأمر، ميلهم لدعم المظفر قطوز بقوات اضافية غير أن مقدم طائفة الفرسان التيوتون - انوسانجر هاوزن - حذّرهم بأنه من الحماقة المبالغة في منح الثقة بالمسلمين، لاسيما إذا اشتد زهوهم بما يحرزونه من النصر على المغول. والمعروف أنه كانت لطائفة فرسان التيوتون ممتلكات كثيرة في مملكة أرمينية. وكان مقدم هذه الطائفة - انوسانجرهاوزن - ينظر بتقدير إلى سياسة الملك هيثوم الذي تحالف مع المغول ضد المسلمين. واستطاع التأثير على بقية أمراء الفرنج، فتقرر رفض التحالف العسكري مع المسلمين، إلا انهم وعدوا المظفر قطوز بأن يسمحوا له باجتياز أراضيهم، وأن يقدموا المواد التموينية والتسهيلات التي يحتاجها جيش المسلمين.

قاد السلطان المظفر قطوز جيشه في شهر آب - اغسطس - على الطريق الساحلي، وعسكر في الحدائق والحقول الواقعة خارج عكا، لمدة عدد من الأيام، وقام الفرنج بدعوة أمراء الجيش لزيارة المدينة، واستضافتهم، وكان الظاهر بيبرس من هؤلاء الأمراء، فلما عاد من زيارته اقترح على قطوز القيام بهجوم مباغت للاستيلاء على عكا. وأظهر له سهولة القيام بهذا العمل.

ولكن المظفر قطوز رفض الغدر بما تم الاتفاق عليه، كما أنه أظهر خطر قيام الفرنج الصليبيين بأعمال انتقامية في وقت لم يتم فيه حسم الصراع مع المغول.

وزاد من حيرة الفرنج وارتباكهم وفرة عدد الزائرين لمدينة عكا. ولكن زال ارتباكهم عندما طمأنهم المظفر قطوز، ووعدهم ببيعهم خيول ما يقع في أيدي المسلمين من خيول المغول بأثمان منخفضة.

علم المظفر قطز وهو في معسكره أمام عكا أن كتبغا قد عبر بجيشه نهر الأردن، وأنه وصل إلى الجليل الشرقي، فأسرع بقيادة جيشه على الفور نحو الجنوب الشرقي، واجتاز الناصرة، ووصل يوم ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ = ٢ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٢٦٠ م إلى (عين جالوت) .

حيث سبق للجيش الصليبي أن تحدى صلاح الدين الأيوبي في هذا الموضع سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م. وفي اليوم التالي، وصل الجيش المغولي مبكراً، وصحب خيالة المغول كتائب كرجية وأرمينة. وافتقر كتبغا لمفارز الاستطلاع. وكان السكان المسلمون يحملون مشاعر العداء له، فلم يدرك أنه أضحى قريباً جداً من جيش المسلمين. وقام قطز بنشر قواته الرئيسة واخفائها وتمويهها في التلال القريبة، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس. ووقع كتبغا في الفخ، إذ حمل بكل جيشه على العدو الذي شاهده أمامه، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة. وأبلى كتبغا في القتال، وأخذ جند المسلمين في التعثر أثناء سيرهم. فدخل قطز المعركة لجمعهم. على أنه لم تنقض إلا بضع ساعات حتى ظهرت أهمية تفوق المسلمين في القتال. ومع أن جماعة من الجيش المغولي استطاعت أن تشق لها طريقاً للخروج من ساحة المعركة، غير أن كتبغا رفض أن يبقى على قيد الحياة بعد هزيمته. إذ كاد أن يكون بمفرده حينما قتل حصانه ووقع أسيراً. وبأسره انتهت المعركة، إذ جرى حمله مقيداً بالأغلال إلى السلطان قطوز الذي سخر لسقوطه، وأمر بقتله.

اعتبرت معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ. إذ أن ما أحرزه المسلمون من انتصار هو الذي أنقذهم من أخطر تهديد جابهوه أو عرفوه.

ولو أوغل المغول في تقدمهم ووصلوا إلى داخل مصر، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة. ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من إبادتهم واستئصال وجودهم، إلا أنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم. ولو انتصر كتبغا

- المسيحي - لازداد عطف المغول على المسيحيين، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ ظهور الديانات التي سبقت الإسلام.

ولكن انتصار المسلمين في عين جالوت عمل على اضعاف العنصر المسيحي. ولم يلبث أن شجع المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الإسلام.

دخل السلطان المظفر قطوز إلى دمشق، بعد انقضاء خمسة أيام على معركة عين جالوت. وعاد الأشرف الأيوبي إلى حمص من جديد - بعد أن انسحب منها المغول. كما رجع أمير حماة الأيوبي إلى امارته. وتم استرداد حلب من المغول في خلال شهر. أما هولاكو، فقد تملكه الغضب عندما علم بهزيمة جيشه، وساءه أن تخرج بلاد الشام من قبضته. فأرسل جيشاً لاسترداد حلب (في شهر كانون الأول - ديسمبر - ١٢٦٠ م). وقام هذا الجيش - كما هي عادته - باجراء المذابح في كل مكان، انتقاماً لقتل كتبغا، غير أن هذا الجيش اضطر للانسحاب. وكان هذا كل ما استطاع أن يفعله هولاكو ثأراً لصديقه الوفي كتبغا.

رجع المظفر قطوز إلى قاعدته - مصر - يكلله المجد والغار، وكان ركن الدين بيبرس البندقداري قد طلب إلى قطوز تعيينه أميراً على حلب. ولكن المظفر قطوز ارتاب بهذا الطلب، ولم يستجب له، فأضمرها بيبرس في نفسه، وقرر الرد على ذلك بسرعة.

فلما كان يوم ١٦ ذو القعدة ٦٥٨ هـ = ٢٣ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٢٦٠ م. خرج المظفر قطوز لقضاء يوم عطلة في ممارسة هوايته الصيد - عند حافة الدلتا. وخرج معه جماعة من امرائه، من بينهم بيبرس - ولم يكونوا قد ابتعدوا عن المعسكر عندما تقدم أحدهم إلى المظفر قطوز وأمسك بيده ليقبلها. فجاء بيبرس من خلف قطوز، وغرس سيفه في ظهر سيده.

وركض المتآمرون بخيولهم إلى المعسكر. وجلس بيبرس في دست السلطنة، وبايعه المماليك، ثم أخذت له البيعة من الجند ومن المسلمين. وعاد بيبرس إلى القاهرة سلطاناً على مصر، وانصرف بيبرس لتوطيد سلطته في مصر وبلاد الشام.

٧١ ـ الانتقام العادل.

أضحى ركن الدين بيبرس البندقداري★ يناهز الخمسين من عمره، يوم أصبح سلطاناً على مصر. وقد عاش تجربة الصراع مع الفرنج الصليبيين في مصر والشام. كما عرف تجربة الصراع مع المغول التتار، فكان عليه مجابهة الصراع على الجبهتين. وقد وضع في اعتباره قبل كل شيء تحطيم التعاون بين الفرنج والمغول، ولهذا فقد كان عليه توجيه الجهد القتالي بالدرجة الأولى ضد الكيانين اللذين تعاونا مع المغول وهما مملكة أرمينية وإمارة أنطاكية. ولهذا فقد أرسل في سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م جيشاً شنّ غارات واسعة النطاق على أملاك أنطاكية. وتكررت الغارات بعنف أكبر في صيف السنة التالية (٦٦١ هـ = ١٢٦٢ م) وتعرض ميناء السويدية للتدمير والنهب، وجرى تهديد أنطاكية ذاتها.

وأسرع ملك أرمينية ـ هيثوم ـ للاستنجاد بهولاكو، الذي قاد جيشاً ضمّ المغول والأرمن، فأمكن له إنقاذ أنطاكية في الوقت المناسب. وأدرك بيبرس أنه لا زالت للمغول التتار قوة كافية في شمال بلاد الشام. فتوجه إلى أمير القبيلة الذهبية خان بركة، وتحالف معه. كما قام كيكاوس أحد سلطاني السلاجقة بالأناضول ـ والذي سبق أن حرمه من بلاده ما قام من تحالف بين المغول والبيزنطيين من جهة وبين شقيقه

★ ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٠٧ ـ ٦٧٦ هـ = ١٢١٠ ـ ١٢٧٧ م) كان ينتمي إلى الأتراك القبجاق. ضخم الجثة، ذو صوت جهوري شديد الوقع. قدم الى الشام لأول مرة بين عدد من الأرقاء، وجرى عرضه للبيع على أمير حماه الذي فحصه، فاعتقد أنه غلام جلف غليظ، فأعرض عنه. ولكنه لفت بالسوق نظر أحد الأمراء المماليك، وهو المملوك البند قداري، الذي أدرك ما عليه من ذكاء. وتم شراء بيبرس، كيما يلحق بالمماليك السلطانية. فارتفع شأنه بسرعة، فلما أحرز النصر على الفرنج في المنصورة، صار في مرتبة أكفأ عساكر المماليك، وبرهن على أنه رجل سياسي رائع، لا يعوقه شيء عن بلوغ هدفه.

قلج أرسلان من جهة ثانية، فعقد تحالفاً مماثلاً مع خان بركه، ثم عاد إلى بلاده بعد أن تلقى مساعدة من القبيلة الذهبية ومن بيبرس في آن واحد، واستقر وقتذاك أيضاً في جنوب شرقي قونية زعيم تركماني اسمه قرمان، فقرر بيبرس التعاون معه لممارسة ضغط مستمر على مملكة أرمينية. وبذلك استطاع بيبرس احكام الطوق على أرمينية وحصارها.

عاد الفرنج لمحاولاتهم التي أفادوا منها باستثمار كل فرصة ممكنة لانتزاع مكتسبات من المسلمين. فسار كونت يافا - يوحنا، وسيد بيروت - يوحنا أيضاً - إلى معسكر الظاهر بيبرس في نهاية سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م. وذلك للتفاوض معه في إعادة أسرى الفرنج الذين وقعوا في قبضة المسلمين خلال السنوات الأخيرة، والحصول على قلعة - زدين - في الجليل وفقاً للوعد الذي كان قد قطعه على نفسه السلطان ايبك، أو دفع تعويض عنها. ورفض بيبرس أن يستمع إليهما، وأمر بارسال جميع الأسرى للعمل في المزارع والبناء والاعمال الاخرى. وعاد كونت يافا مرة أخرى لمقابلة بيبرس في مطلع سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م، حيث كان بيبرس قد أقام معسكره يومها بالقرب من جبل الطور، وحصل يوحنا كونت يافا على وعد بعقد هدنة مع الفرنج وتبادل الأسرى. غير أن طائفتي فرسان الداوية والاسبتارية رفضوا التخلي عن أسرى المسلمين الذين بحوزتهم، نظراً لأنهم كانوا صناعاً مهرة. وارتاع بيبرس لهذا الجشع فقطع المفاوضات، وسار بجيشه إلى بلاد الفرنج، فنهب الناصرة، ودمر كنيسة العذراء، وشنّ هجوماً مباغتاً على عكا (في ٤ نيسان - ابريل - سنة ١٢٦٣ م) فدار قتال عنيف خارج أسوار عكا، ثم انسحب بيبرس بجيشه بعد أن نهب أرباض عكا. ورد فرسان الداوية والاسبتارية على ذلك بأن عملا على توحيد قواتهما (في بداية سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م) وقاما بشنّ هجوم مباغت على حصن ليزون الصغير - المعروف قديماً باسم مجدو -. ثم تبع ذلك قيام القوات الفرنسية - التي كانت تتقاضى رواتب من ملك فرنسا لويس التاسع - بالاغارة على أرباض بيسان، فيما كان فرسان الداوية والاسبتارية يقومون بالهجوم على عسقلان. ورد المسلمون على ذلك، بالاغارة على قرى الفرنج في جنوب جبل الكرمل، ونهبها، ولم تعد الحياة مأمونة في قرى الفرنج.

توافرت المعلومات عند الظاهر بيبرس، عن عزم المغول التتار للقيام بالهجوم على شمال بلاد الشام. فخرج الظاهر بيبرس من مصر، في مطلع سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م. على رأس جيش كثيف، لمجابهة هجوم المغول. غير أنه علم بأن أميري حلب وحماه تمكنا من تدمير جيش المغول ودحره. فقرر استخدام جيشه للهجوم على الفرنج في الجنوب.

تظاهر بيبرس أنه يمضي وقته بالصيد في التلال الواقعة وراء أرسوف، ثم قاد جيشه وظهر بصورة مباغتة أمام قيسارية، فسقطت المدينة في قبضته على الفور (يوم ٢٧ شباط - فبراير - سنة ١٢٦٥ م) واستسلمت قلعة قيسارية بعد ذلك باسبوع، وسمح بيبرس للحامية التي كانت تدافع عنها بالخروج دون أن تتعرض للأذى، وأصدر أمره بتدمير قيسارية وقلعتها وتسويتها بالأرض. ثم ظهر بيبرس وجيشه بصورة مباغتة أيضاً أمام أسوار حيفا - بعد بضعة أيام - فهرع الى السفن الراسية بالميناء من استطاع الهرب. وتم قتل من بقي في المدينة، وتم تدمير المدينة والقلعة على نحو ما حدث في قيسارية. وهاجم بيبرس أثناء ذلك قلعة عثليت الضخمة، التي كانت في قبضة طائفة الداوية، وأمر باشعال النار في القرية الواقعة خارج الأسوار، لكن القلعة استمرت في مقاومتها. فتخلى بيبرس عن حصارها. وسار إلى أرسوف التي شحنها فرسان الاسبتارية بالجند والذخائر والمؤن، فقاتلت حاميتها بشجاعة كبيرة، وأظهرت صموداً كبيراً، غير أنها اضطرت للاستسلام (في ٢٦ نيسان - ابريل).

وما حدث من سقوط الحصنين الكبيرين في قبضة المسلمين، أزعج الفرنج ازعاجاً كبيراً، مما أوحى الى شاعر الداوية الغنائي ريسو بونوميل (من التروبادور) بنظم قصيدة تفيض بالحزن والمرارة. وشكى فيها من أن المسيح أضحى فيما يبدو مسروراً لما حلّ بالمسيحيين من ذلّة ومهانة.

وحاول بيبرس بعد ذلك مهاجمة عكا، وإذ أدرك أن هناك حامية قوية قد نظمت للدفاع عنها، انسحب بجيشه وعاد الى مصر.

مات هولاكو في ٨ شباط - فبراير - سنة ١٢٦٥ م. ومع أن مشاكله مع القبيلة

الذهبية ومع مغول التركستان الذين اعتنقوا أيضاً الاسلام ديناً لهم، كانت قد منعته من التعرض بالهجوم للمماليك المسلمين، إلا أنه لا زال يمتلك من القدرة ما يكفي لمنع بيبرس من مهاجمة حلفاء المغول - مملكة أرمينية وامارة انطاكية -. وقامت طقز خاتون بدورها فضمنت لابن هولاكو - أباقا - والذي كان أثيراً عنده، بتبوأ منصب ايلخان وذلك بعد مضي أربعة أشهر من موت هولاكو. وماتت طقز خاتون بعد ذلك بأربعة أشهر أيضاً. وبات لزاماً على الايلخان الجديد - أباقا - أن يواجه التهديد المستمر الذي كان يتعرض له على أيدي أبناء عمومته، من القبيلة الذهبية، والذين أغاروا على بلاده فعلاً في الربيع التالي. وظهر واضحاً بأنه بات على المغول التتار التدخل في أمور بلاد الشام - خلال تلك المرحلة على الأقل -. وأصبح بوسع بيبرس الذي كانت ديبلوماسيته هي العامل فيما نزل بالايلخان أباقا من المتاعب، مع جيرانه في الشمال، أن ينصرف بكل جهده لقتال الفرنج الصليبيين دون خوف من أي تدخل خارجي.

كان الايلخان أباقا منصرفاً لمواجهة هجوم شنه عليه الخان بركة في صيف سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م، عندما خرج من مصر جيشان للمسلمين، تولى بيبرس قيادة أحدهما، فأغار على أرباض عكا، ثم قام بتظاهرة عسكرية أمام حصن مونتفورت - الذي كان في قبضة طائفة فرسان التيوتون - الألمان -. ثم زحف فجأة على صفد التي كانت في قبضة طائفة فرسان الداوية، والتي كانت تتحكم بقلعتها الضخمة في مرتفعات الجليل. وكان معروفاً أن تحصينات صفد ودفاعاتها قد تجددت بأكملها منذ خمس وعشرين سنة، وأن الحامية المدافعة عنها كانت وفيرة العدد، وقد ضمت إليها عدداً كبيراً من المسيحيين من أبناء بلاد الشام. وقد نظم بيبرس ثلاث هجمات متتالية على صفد، غير أن الحامية المدافعة عنها تمكنت من إحباط هذه الهجمات، وعندها أعلن بيبرس - عن طريق المنادين - بأنه يمنح العفو عن كل من يستسلم له من العساكر الوطنيين. ويظهر أن عدداً كبيراً من العساكر قد وثقوا بكلمة بيبرس ووعده. مما أثار الشك في وسط الداوية الذين هيمنت عليهم المهاترات، وسادهم الشقاق والسباب، والذي تحول إلى اشتباكات. وأدرك الداوية، وقد أخذ عدد من المسيحيين

السوريين بالفرار الى معسكر بيبرس، بأنه من المحال عليهم الاحتفاظ بقلعتهم. فأرسلوا جندياً سورياً اعتقدوا في ولائه وإخلاصه، واسمه ليو، ليتقدم بعرض الى بيبرس لتسليم الحصن مقابل الحصول على وعد بأن تنسحب الحامية إلى عكا دون أن تتعرض للأذى. ولما سلم الداوية القلعة الى بيبرس، وفقاً لهذا الشرط، أمر بيبرس بقتلهم جميعاً. وليس مؤكداً ما إذا كان ـ ليو ـ قد تعمد الغدر بالداوية، إلا أن اعتناقه الاسلام قد أثار الشك بوساطته.

ضمن بيبرس السيطرة على الجليل باعادة فتح صفد، فسار إلى تبنين التي أعاد فتحها دون قتال. ثم أرسل العساكر من تبنين لتدمير قرية قارة المسيحية، التي تقع بين حمص ودمشق، لعلاقة أهلها المسيحيين بالفرنج. فأمر بقتل البالغين من سكانها، واسترقاق الأطفال. ولما أرسل المسيحيون وفداً من عكا يطلب منه السماح لهم بمواراة جثث الموتى، أغلظ في رفض طلبهم، وقال لهم بأنهم إذا كانوا يلتمسون جثث القتلى فسوف يجدونها في بلادهم.

ولتنفيذ تهديده، هبط بيبرس بجيشه إلى الساحل وقتل كل من وقع في يديه من المسيحيين. وعندما حاولت الكتيبة الفرنسية المقيمة في عكا بالتعاون مع فرسان الطوائف الدينية العسكرية القيام بهجوم على الجليل، للانتقام، وقعت مقدمة قواتهم في كمين نصبته حامية صفد، بينما هاجم العرب المسلمون معسكر الفرنج، فانسحبت قوات الفرنج وقد تعرضت للخسائر الفادحة.

بينما كان بيبرس يتابع فتوحاته في الجليل، احتشد في حمص جيش المماليك المسلمين الثاني ـ الذي كان قد خرج من مصر ـ بقيادة أكفأ أمرائه سيف الدين قلاوون الصالحي.

وقام قلاوون بهجوم عاصف أعاد فيه فتح حصني القليعة وحالية ومدينة عرقة التي كانت تتحكم في الطريق القادم من البقيعة الى طرابلس. ثم انحرف صوب الشمال وأسرع في سيره ليلحق بجيش حمص الذي خرج بقيادة المنصور أمير حمص. وتوجهت قواتها المشتركة الى حلب، ثم اتجهت غرباً إلى قيليقية.

كان ملك أرمينية - هيثوم - يتوقع قيام المماليك المسلمين بالهجوم على بلاده - فحاول عندما علم بموت هولاكو أن يصالح بيبرس (سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م) ولما كانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على ما يرد إليه من أخشاب لبنان وجنوب الأناضول، وكان هيثوم وصهره أمير أنطاكية بوهمند هما المسيطران على هذه الغابات، فكانا يأملان في استخدام هذه السيطرة وسيلة للمساومة. غير أن الحصار الذي فرضاه على تصدير الأخشاب لم يزد بيبرس إلا تصميماً على مهاجمة أرمينية. وإذ علم - هيثوم - في سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م، أن جيوش المسلمين على وشك الانطلاق لمهاجمة بلاده، أسرع الى بلاط الايلخان أباقا يلتمس منه الدعم والمساعدة. ولكن ما إن وصل إلى تبريز حتى علم بأن عاصفة المسلمين قد اجتاحت بلاده.

كان الجيش الأرمني بقيادة ولدي هيثوم (وهما: ليو وثوروس) ينتظر عند دروب الشام، وقد تولى فرسان الداوية في بغراس حماية جناحيه. غير أن جيش المسلمين انحرف صوب الشمال، وعبر جبال الأمانوس قرب سرفنتكار، فأسرع الأرمن لاعتراض طريقهم عند هبوطهم الى سهل قيليقية، ودارت معركة حاسمة (يوم ٢٤ - آب - أغسطس) وتعرض الأرمن لهزيمة ماحقة، ولقي الأمير ثوروس مصرعه، فيما وقع الأمير الآخر ليو أسيراً، وتدفق المسلمون الظافرون فاجتاحوا سهول قيليقية. وبينما قام قلاوون وجيشه بتدمير أياس وأذنة وطرسوس قاد المنصور جيشه فتجاوز المصيصة الى عاصمة الأرمن (سيس) حيث نهب القصر الملكي، وأشعل الحريق في الكاتدرائية، وقتل بضعة آلاف من السكان. وانسحب المنتصرون إلى حلب وقد حملوا معهم بضعة آلاف من السكان الأرمن (بلغ عددهم أربعين ألف أسير) بالاضافة الى قافلة ضخمة من الغنائم.

أسرع الملك هيثوم بالعودة من بلاط الايلخان أباقا، في جماعة صغيرة من المغول، فألفى ولي عهده أسيراً، وعاصمته خراباً وبلاده بأكملها مستباحة، ولم تنهض مملكة الأرمن بقيليقية مطلقاً من هذه الكارثة. وانتقم بيبرس من رأس التحالف مع المغول.

أرسل بيبرس بعد أن تخلص من الأرمن، جيشاً لمهاجمة أنطاكية (في خريف السنة ذاتها ١٢٦٦ م) غير أن قادته قنعوا بنهب بلاد أنطاكية، وفتر حماسهم، واكتفوا بما قدمه إليهم أمير أنطاكية - بوهمند - من إتاوة، مما أغضب بيبرس الذي قرر ألا يترك للفرنج فرصة للراحة، فسار إلى عكا من جديد (في أيار - مايو - سنة ١٢٦٧ م) ورفع جنده الرايات التي سبق لهم أن أخذوها من الاسبتارية والداوية، مما ساعدهم على الوصول إلى أسوار عكا، حيث عملوا على تخريب القرى والريف.

خرج الظاهر بيبرس من مصر مرة أخرى في مطلع سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٨ م. واجتاح في طريقه مدينة يافا، ثم أعاد فتح قلعة عثليت. وسار شمالاً، فوصل إلى أمام انطاكية يوم ١٤ - أيار - مايو -. وقسم جيشه إلى ثلاثة مجموعات، وجه واحدة منها لاعادة فتح السويدية، وبذا قطع الاتصال بين انطاكية والبحر، ثم وجه مجموعة قتالية ثانية الى دروب الشام، لمنع كل مساعدة تصل من قيليقية الى أنطاكية. وتولى بيبرس بنفسه قيادة المجموعة الثالثة، وحاصر انطاكية فتم له فتحها يوم ١٨ - أيار - مايو - وبذلك تم تدمير الامارتين الصليبيتين اللتين تعاونتا مع المغول ضد المسلمين.

وإذ ضعفت أرمينية، وتدمرت أنطاكية، قرر الداوية أنه أصبح من المحال عليهم الاحتفاظ بقلاعهم في جبال أمانوس، فجلوا بدون قتال عن بغراس وقلعة لاروش دي روسول، التي تقل عنها شأناً. ولم يبق من إمارة أنطاكية في قبضة الفرنج سوى مدينة اللاذقية التي أصبحت جيباً منعزلاً، وقلعة القصير التي انعقدت أواصر الصداقة بين حاكمها وبين المسلمين المجاورين، فسمحوا له بالبقاء بها سبع سنوات أخرى، على أن يبقى تابعاً للسلطان الظاهر بيبرس.

أخلد بيبرس الى الراحة، فترة قصيرة، بعد انتصاره في انطاكية. فقد توافرت له معلومات عن استعدادات يقوم بها المغول للقيام بهجوم جديد. وترددت الشائعات أن ملك فرنسا لويس التاسع يعد للقيام بحملة صليبية ضخمة. فلما أرسل الوصي على

عرش قبرص ـ هيولوزجنان ـ إلى السلطان بيبرس يطلب عقد هدنة، رد عليها بيبرس بايفاد سفارة إلى عكا برئاسة محي الدين، للتقدم بعرض لايقاف الأعمال العدائية بصورة مؤقتة. وكان هيو يأمل في الحصول على بعض الامتيازات، فقام باستعراض قواته في تعبئة القتال، غير أن محي الدين لم يظهر اكتراثاً، وقال مخاطباً هيو:

«إن كل هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يضارع أسرى الفرنج الصليبيين في القاهرة».

وطلب أمير أنطاكية السابق ـ بوهمند ـ أن يشمله عقد الهدنة، حتى يتمكن من الاحتفاظ باللاذقية، وساءه أن السلطان لم يخاطبه في إجابته إلا على أنه كونت، نظراً لأنه فقد إمارته أنطاكية. غير أنه قبل في ارتياح ما تهيأ له من فترة للراحة. وعلى الرغم من قيام المماليك المسلمين بشن غارات صغيرة على بلاد الفرنج في ربيع سنة ١٢٦٩ م. فان الهدنة ظلت بصورة عامة محترمة الجانب لمدة سنة.

أفاد الفرنج من الهدنة لاعادة تنظيم أمورهم الداخلية، إذ كان ملك قبرص هيو الثاني قد مات في نهاية سنة ٦٦٦ هـ = ١٢٦٧ م. فتم تتويج ملكاً على قبرص في عيد الميلاد سنة ١٢٦٧ م. باسم هيو الثالث، **غير ان تتويجه ملكاً على القدس قد تأخر حتى ٢٤ ـ ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٦٩، حيث جاء هيو الى عكا، ثم مضى إلى صور، حيث قام أسقف لد بتتويجه نيابة عن البطريرك. وكانت كاتدرائية صور قد أصبحت هي الموضع التقليدي لتتويج ملوك القدس منذ أن خرجت القدس من حكم الفرنج الصليبيين. فكان تتويجهم عبارة عن تسمية لا أكثر، ملوكاً على مملكة ليست لهم.**

كانت الحروب الصليبية تدور بكل عنفها، وبأشد قسوتها، على أرض أندلس المسلمين، ويظهر أن ملك أراغون وجد من القدرة ما يكفي لتوسيع دائرة حربه، فقرر القيام بحملة الى فلسطين. وأبحر من برشلونه ملك أراغون جيمس الأول في أول ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٦٩ م. غير أن اسطوله الضخم صادف عاصفة عاتية مزقته،

وأدخلت الرعب الى قلوب رجال الحملة. فقرر الملك العودة الى بلاده. غير أنه سمح لولديه غير الشرعيين. فرناند وسانكيز - أو سانشو - وبدرو فرنانديز بالسير الى فلسطين، فوصلا بأسطولهما الصغير الى عكا في نهاية سنة ١٢٦٩ م. فقاما بالاشتراك في عمليات قتالية صغرى - لا تستحق الذكر - وعادا إلى بلادهما.

لم ييأس الفرنج الصليبيون من الحصول على دعم المغول التتار للقضاء على المسلمين، فأرسل البابا كليمنت الرابع بعثة الى بلاط الايلخان أباقا برئاسة جيمس ألاريك في سنة ٦٦٦ هـ = ١٢٦٧ م. وذلك لاعلام أباقا عن قرب قدوم حملة ملك أراغون وحملة الملك لويس التاسع الى فلسطين، وعقد محالفة عسكرية. غير أن الايلخان أباقا لم يقدم للبعثة أكثر من وعود غامضة بسبب انصرافه لقتال القبيلة الذهبية. ولم يلبث الايلخان أباقا أن خاض حرباً جديدة مع أبناء عمومته الذين أغاروا على حدود بلاده الشرقية سنة ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م. ولم يتراجعوا إلا بعد معركة عنيفة دارت قرب هراة. وعندها كتب الايلخان أباقا الى الملك لويس التاسع. تعهد فيها بتقديم مساعدة عسكرية عند وصول الحملة الفرنسية الى فلسطين. ولكن الملك لويس التاسع مات أمام تونس وهو يقود حملته الصليبية. فلم يتمكن أباقا من مساعدته.

كان كل ما استطاع الايلخان أباقا تقديمه لحليفه ملك الأرمن هيثوم، هو اجراء مبادلة للأسرى. حيث أطلق سراح أحد الامراء المماليك وهو شمس الدين سنقر الأشقر (الباشق الأحمر) والذي كان المغول قد أسره في حلب. فوافق بيبرس مقابل ذلك على اطلاق سراح (ليو) ابن ملك أرمينية هيثوم، كما وافق على عقد هدنة مع هيثوم، بشرط أن يتنازل الأرمن له عن حصون جبال الأمانوس، وهي:
دربساك وبهسنا ورعبان. وتم ابرام المعاهدة في آب - اغسطس - سنة ١٢٦٨ م.

ظل بيبرس ملتزماً الهدوء والسكون طوال صيف ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م استعداداً لمجابهة احتمال هجوم ملك فرنسا لويس التاسع على مصر. وأثناء ذلك دبر أمر اغتيال فيليب مونتفورت لاضعاف الفرنج، وذلك نظراً لمكانة هذا الرجل الرفيعة بين أمراء الفرنج. وأظهر الاسماعيلية (الباطنية أو الحشاشين) استعدادهم لتنفيذ هذه المهمة،

تعبيراً منهم عن ولائهم للسلطان بيبرس الذي حررهم ـ بفتوحاته ـ من الاتاوة التي كانوا يدفعونها لطائفة الاسبتارية، وكذلك تعبيراً عن استنكارهم لتعاون الفرنج مع المغول الذين دمروا لهم معاقلهم وممتلكاتهم في بلاد فارس. وعلى هذا أرسل الاسماعيلية أحد رجالهم إلى صور، فتظاهر هذا الرجل بأنه نصراني، ودخل الى الكاتدرائية يوم الأحد ١٧ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٢٧٠ م، حيث كان فيليب وابنه يوحنا يؤديان الصلاة، وانقض عليهما فجأة، وضرب فيليب فأصابه بجراح قاتلة، غير أنه بقي على قيد الحياة إلى أن علم بأنه تم القبض على القاتل، وأن ابنه يوحنا قد نجا من القتل.

علم بيبرس أن الحملة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع قد انتهت على أبواب تونس وأن قائدها الملك لويس قد توفي سنة ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م. فصارت له الحرية للعمل، ومتابعة جهده وجهاده ضد الفرنج، وقاد جيشه الى الشمال حيث أعاد فتح صافيتا (سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م) ثم فتح حصن الأكراد (أو قلعة الحصن). وعرف قائد حصن مرقية القائم بين بانياس وطرسوس أن بيبرس لن يتركه، فقرر طلب الدعم من المغول، وغادر قائد الحصن ـ بارثولوميو ـ قلعته متوجهاً إلى بلاط الايلخان أباقا في بلاد فارس، مما أغضب بيبرس، فحرض الباطنية (الاسماعيلية) على قتله. وتم قتله وهو في طريقه الى بلاد فارس.

علم بيبرس أن انكلترا تعد حملة صليبية، فأسرع لعقد هدنة مع أمير طرابلس ـ بوهمند لمدة عشر سنوات وسار بجيشه جنوباً فانتزع من طائفة فرسان التيوتون ـ الألمان ـ قلعة مونتفورت، ثم تابع مسيره إلى مصر. وأرسل من هناك اسطوله الذي ضم سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص. ولكن عاصفة صدمت هذه السفن على صخور ميناء ليماسول وحطمت معظمها.

كان ملك انكلترا هنري الثالث قد وعد منذ زمن طويل بالاعداد لحملة صليبية، غير أن تقدمه في العمر، واستنزاف قدرته في الحروب المستمرة، منعه من قيادة الحملة بنفسه، فعهد بقيادته لابنه وولي عهده ـ ادوارد ـ الذي بلغ من العمر ثلاثين عاماً.

وغادر الأمير ادوارد انكلترا في صيف سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م. وصحبه ألف رجل تقريباً، ورافقته زوجته اليانور قشتالة، ثم تبعه بعد أشهر قليلة أخوه ادموند دوق

لانكستر ومعه الدعم والامداد، كما صحب ادموند كتائب من البريتونيين والأراضي المنخفضة.

كان قائد الحملة ادوارد يعتزم اللحاق بملك فرنسا لويس التاسع في تونس، والاقلاع معاً إلى فلسطين. غير أنه لما علم بموت لويس، وعودة الجند الفرنسيين الى بلادهم، أمضى فصل الشتاء في صقلية، ثم أبحر في الربيع التالي إلى جزيرة قبرص، ومنها الى عكا.

صدم الأمير ادوارد لحالة الضعف والتمزق التي هيمنت على الفرنج في بلاد الشام. ولم يحصل على ما كان يتوقعه من دعم ملك القدس. فبادر لارسال سفارة الى الايلخان أباقا، ضمت ثلاثة من الانكليز (هم ريجنالدرسل، وجودفري ويليس، ويوحنا باركر) فوافق أباقا على أن يقدم كل ما يستطيعه من الدعم والمساعدة. ولما كانت جيوشه الأساسية تقاتل أبناء عمومته في تركستان، فقد عمل على سحب عشرة آلاف فارس من حامياته في بلاد الأناضول، وأرسلهم إلى بلاد الشام. فتدفقوا عن طريق عين تاب، وأنزلوا الهزيمة بالمقاتلين التركمان الذين كانوا يدافعون عن حلب. وهربت الحامية المملوكية بحلب من أمام فرسان المغول، وتوجهت إلى حماة. وظل المغول يتابعون تقدمهم، فتجاوزوا حلب إلى معرة النعمان وأفامية. وساد الذعر والخوف بين السكان المسلمين، وتلقى بيبرس الانذار في الوقت المناسب، فخرج بجيشه الكثيف من دمشق، وطلب الامداد من مصر، وشرع في التحرك صوب الشمال، انصرف المغول راجعين خوفاً من الاصطدام بالجيش الإسلامي الذي سار لقتالهم، كما أن اتباعهم من الاتراك المسلمين في بلاد الأناضول جنحوا الى التمرد، فانسحبوا الى ما وراء نهر الفرات، وقد امتلأت أيديهم بما حصلوا عليه من الغنائم.

أفاد الأمير ادوارد من انصراف بيبرس لقتال المغول، فقاد جيشه عبر جبال الكرمل، وأغار على السهول المجاورة، غير أنه أدرك بأن جيشه أضعف من أن يستولي ولو على حصن صغير، فقرر العودة الى عكا وهو مقتنع بأنه من المحال إعادة انطاكية إلى الفرنج، أو تحقيق أي نصر كبير، ما لم تصل من الغرب حملة صليبية ضخمة، وما

لم تتقدم حملة مغولية بالغة القوة. وشعر أن بقاءه هو مضيعة للوقت طالما أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، فقرر عقد هدنة مع بيبرس.

وتم ابرام عقد هذه الهدنة في قيسارية بين السلطان بيبرس وحكومة عكا. في ٢٢ أيار - مايو - سنة ١٢٧٢ م (٦٧٠ هـ) وقد كفلت هذه الهدنة التي حددت مدتها بعشر سنوات وعشرة شهور، أن يحتفظ الفرنج بممتلكاتهم التي باتت محصورة على السهل الساحلي ما بين عكا وصيدا.

عرف بيبرس أن الأمير ادوارد يعتزم العودة الى بلاد الشام على رأس حملة صليبية ضخمة، فقرر بيبرس التخلص منه، بما لا يتعارض مع بنود اتفاقية الهدنة. وتم ارسال أحد رجال الباطنية - الاسماعيلية - للقيام بالمهمة، وتنكر هذا الرجل في زي مسيحي وطني، وأمكن له الدخول الى حجرة الأمير ادوارد يوم ١٦ حزيران - يونيو - ١٢٧٢ م، وطعنه بخنجر مسموم. ومع أن الجراح لم تكن قاتلة، إلا أن ادوارد ظلّ يعاني من آلامها شهوراً عديدة. ولم يكد يتماثل للشفاء حتى عاد الى بلاده، فوجد أن والده قد مات، وألفى نفسه ملكاً على انكلترا.

انصرفت الأطراف جميعها للافادة من الهدنة التي تم عقدها. لقد عرف بيبرس أن امارات الفرنج في بلاد الشام (عكا وطرابلس) قد وصلت إلى مرحلة من الضعف بحيث لم تعد تشكل تهديداً خطيراً للمسلمين، ولهذا لم يكن هناك ثمة مانع من بقائها سنوات أخرى ريثما تنضج ويحين قطافها. غير أن الخطر لازال قائماً بالنسبة للمغول وللدول الصليبية في الغرب. وهذا ما يتطلب الاعداد وتنظيم القوى لمجابهة كافة الاحتمالات.

أما الفرنج، فلم يداخلهم اليأس من امكان تجريد حملات صليبية جديدة، فأخذ البابا (غريغوري العاشر) بجمع التقارير، واجراء الأبحاث عن امارات الفرنج في الشام، وأسباب الاخفاق، وتطور جبهة المسلمين. وحالة الفساد في الكنائس مما أثر في الروح الصليبية. وتبع ذلك عقد مجمع ليون في سنة ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م لمناقشة التقارير واتخاذ

قرارات، وعمل المجمع على توجيه نداء جديد الى ملوك أوروبا وأمرائها لتوجيه حملة صليبية ضخمة الى فلسطين.

وأما المغول الوثنيين بقيادة الايلخان أباقا فقد أدركوا أنه لم يعد باستطاعتهم الصمود طويلاً في مواجهة القوى الإسلامية المتعاظمة، فقرر الايلخان أباقا تطوير تعاونه مع الفرنج الصليبيين. ولكن الموقف تغير بصورة جذرية، فبينما كان الفرنج في السابق هم الذين يبحثون عن وسيلة للتحالف مع المغول، والتعاون معهم. بات المغول الآن وهم يلتمسون الوسيلة لشد عضدهم بالفرنج. ومن أجل ذلك أرسل الايلخان أباقا خطاباً إلى الأمير ادوارد عندما كان في عكا سنة ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م. يسأله متى سيعود في حملته الصليبية التالية. فأرسل ادوارد رداً ودياً، غير أنه أعرب عن أسفه بأنه لم يقرر هو والبابا متى تتوجه حملة صليبية أخرى الى بلاد الشام. وظهر في السنة التالية (٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م) مبعوثون من المغول في مجمع ليون. وتنصر اثنان منهما. الا أن ردّ البابا والمجلس البابوي بشأن توجيه حملة صليبية، كان رداً غامضاً صيغ بعبارات ودية - حميمة -. وقام الايلخان أباقا بمحاولة أخرى في سنة ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م حيث أرسل الأخوان الكرجيان - يوحنا وجيمس فاسيلي - الى ايطاليا لزيارة البابا، وزودهما بأوامر للمضي الى بلاط كل من ملكي فرنسا وانكلترا. وحملا رسالة شخصية من أباقا إلى إدوارد الأول، اعتذر فيها عن ضعف المساعدة التي قدمها له في سنة ١٢٧١ م. ووعد بتقديم مساعدة أكبر في المستقبل. غير أنه لم يكن هناك استعداد لا عند الملك ادوارد، ولا عند ملك فرنسا فيليب الثالث، للقيام بحملة صليبية جديدة. كما أن المجلس البابوي خضع لتأثير معاكس - من قبل شارل كونت أنجو - الذي كره المغول لأنهم كانوا أصدقاء أعدائه - البيزنطيين والجنويين - كما أن سياسته قامت على الوفاق الودي مع بيبرس. وكان البابوات والقسس يأملون، متفائلين، في أن يسوقوا المغول الى حظيرة كنيستهم. غير أنهم لم يدركوا أن وعودهم بمكافآت السماء لم يشكل اغراء كافياً للأليخان أباقا وجماعته.

صار باستطاعة الظاهر بيبرس أن ينفذ مشروعاته دون أن يتعرض لخطر تدخل الغرب الصليبي، فقاد بنفسه جيشه سنة ٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م. ومضى به إلى

قيليقية فنهب المدن الواقعة بالسهل. ثم قام بعد سنتين بغزو الأناضول. وعندما عاد من هذه الغزاة، وافته المنية (يوم ٢٨ محرم سنة ٦٧٦ هـ = أول تموز - يوليو - سنة ١٢٧٧ م) فدفن في دمشق -. وحزن المسلمون عامة لوفاته، فيما عمّت البهجة بلاد الفرنج. ولكن فرحة الفرنج لم تستمر طويلاً، فقد جاء لحكم المسلمين مملوك آخر - سيف الدين قلاوون الصالحي، الذي اعتبر بحق من كبار قادة المماليك الأكفاء. وقد تسمى بالملك المنصور.

كان الايلخان أباقا حريصاً على أن يحارب المسلمين قبل أن يستطيع قلاوون توطيد مركزه. فقاد جيشه وعبر به نهر الفرات في سنة ٦٧٩ هـ = ١٢٨٠ م. واحتل عين تاب وبغراس ودرب ساك. ثم اجتاح حلب (في ٢٠ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٢٨٠ م) فنهب أسواقها، وأشعل الحريق في المساجد. وهرب الى دمشق المسلمون من أهالي تلك المناطق وقد استبد بهم الخوف والجزع. ووجه المغول قوة أوغلت في تقدمها فوصلت البقيعة، وأشرفت على حصن الأكراد. واصطدمت أثناء عودتها بجيش اسلامي - قرب مرقية - فأمكن لها التغلب عليه. وأثناء ذلك، حشد قلاوون جيشه في دمشق. ولما لم تكن قوة الجيش المغولي كافية للاحتفاظ بحلب والدفاع عنها، فقد اضطر للانسحاب الى ما وراء نهر الفرات. واكتفى السلطان قلاوون بارسال قوة لانزال العقاب بالاسبتارية لتعاونهم مع الفرنج.

وأثناء هذه الفترة، أرسل الايلخان أباقا سفارة إلى عكا أعلمت الفرنج أن الايلخان قرر أن يرسل إلى بلاد الشام في ربيع السنة التالية جيشاً من مائة ألف رجل، وطلب إلى الفرنج امداده بالرجال والذخائر. فبعث الاسبتارية الى ملك انكلترا ادوارد لاعلامه بقرار الايلخان. وغضب قلاوون عندما علم بتصميم الايلخان على القيام بهجوم جديد. فبادر الى ارسال سفارة إلى عكا لعقد هدنة مع الطوائف الدينية العسكرية لمدة عشر سنوات. وتم عقد هذه الهدنة في ٣ - أيار - مايو - ١٢٨١ م.

توجه جيشان مغوليان إلى بلاد الشام في ايلول - سبتمبر - سنة ١٢٨١ م (٦٨٠ هـ). وتولى الايلخان أباقا قيادة الجيش الأول، فيما تولى شقيقه منجو تيمور قيادة الجيش الثاني.

وبدأ الجيش الأول باخضاع الحصون الإسلامية القائمة على امتداد حدود الفرات، فيما كان الجيش الثاني يؤمن الاتصال بملك أرمينية (ليو) ثم انحدر الى وادي نهر العاصي بعد أن اجتاز عين تاب وحلب، وأسرع السلطان قلاوون الى دمشق حيث حشد فيها جيشه، وسار به نحو الشمال. وتجنب الفرنج الانحياز للمغول - باستثناء طائفة الاسبتارية في حصن المرقب والتي رفضت الالتزام بالهدنة التي عقدها الاسبتارية بعكا - فركبت جماعة منها وانضمت الى جيش ملك أرمينية (ليو).

التقى جيش المسلمين بجيش المغول في ظاهر حمص يوم ٣٠ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٢٨١ م. وتولى منجو تيمور قيادة قلب الجيش المغولي، واتخذ أمراء مغول آخرون مواقفهم في ميسرته، بينما وقفت في الميمنة عساكر الكرج وجيش ملك أرمينية ليو وفرسان الاسبتارية. ومقابل ذلك، تولى صاحب حماه المنصور قيادة ميمنة الجيش الإسلامي. فيما تولى قلاوون ذاته قيادة قلب الجيش - الجند المصري وجيش دمشق. أما الميسرة فقد ضمت جند شمال بلاد الشام والتركمان بقيادة الأمير سنقر الأشقر. دارت المعركة، واحتدم القتال، وتمكنت ميمنة الجيش المغولي من الانتصار على سنقر الأشقر الذي استمر في تراجعه حتى وصل إلى معسكره في حمص، فانقطع بذلك الاتصال بين ميمنة الجيش المغولي وبين بقية القوات. وأثناء ذلك بقيت ميسرة المغول صامدة في القتال. وأصيب منجو تيمور بجراح قاتلة حينما شنّ المسلمون هجومهم على قلب الجيش المغولي. وبدأ المغول بالتراجع سراعاً. ووجد ملك أرمينية ورفاقه ضمن دائرة الحصار فاضطروا للقتال ليشقوا لهم طريقاً للعودة نحو الشمال، وتعرضوا للخسائر الفادحة. ولم يتمكن قلاوون من مطاردة المغول نظراً لما نزل بقواته من الخسائر الكبيرة. واجتاز المغول ومعهم الايلخان أباقا، نهر الفرات الذي أصبح هو الحد الفاصل بين دولتي المسلمين والمغول.

لقد أظهرت معركة حمص، ضعف قدرة المغول وعجزهم عن النيل من قوة المسلمين، فقد حشد الايلخان أباقا مائة ألف مقاتل، ورغم ذلك لم يحرز ما كان يتوقعه من نصر. وأدرك الفرنج بدورهم ما أصبحت عليه قوتهم من الضعف في مجابهة

القوة المتعاظمة للمسلمين. أما السلطان قلاوون فقد مضى لمتابعة فتوحاته، فانتزع من الفرنج ـ طائفة الاسبتارية ـ حصن المرقب (سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م). وارتاع سكان عكا لضياع حصن المرقب. وأدرك الفرنج أن أيامهم في بلاد الشام قد وصلت إلى نهايتها، لاسيما وأن المعلومات القادمة إليهم من الغرب قد أكدت انصراف حكام الغرب الى خصوماتهم التقليدية، وصراعاتهم المستمرة.

١٨ ـ وابتلعت رمال المسلمين بناء الفرنج .

جاء تجار حلب الى السلطان قلاوون، وتقدموا اليه بالشكوى، فهم يشعرون منذ زمن بعيد بعدم الارتياح لارسال تجارتهم الى الميناء المسيحي باللاذقية والذي بقي آخر ما في قبضة الفرنج الصليبيين من امارة أنطاكية. وكان باستطاعة قلاوون ارسال جيشه الى اللاذقية، نظراً لأنها لم تدخل في الهدنة المعقودة مع امارة طرابلس... وجاء الزنزال فضرب أسوار مدينة اللاذقية في ٢٢ ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٢٨٧ (٦٨٦ هـ) فوجه قلاوون جيشاً بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي ليتسلمها. فسقطت المدينة في يديه دونما عناء. وجاءت فرصة أفضل من سابقتها في (سنة٦٨٨ هـ=١٢٨٩ م) حيث وقع خلاف بين البنادقة والجنويين، واجتاحت الفوضى المدينة، مما سهل على المسلمين الذين كانوا يحاصرون طرابلس، أمر اجتياح المدينة التي أمر السلطان قلاوون بتدميرها. ومضى المسلمون الظافرون فاحتلوا البترون ونيفين.

وصل ملك قبرص ـ هنري ـ إلى عكا بعد ثلاثة أيام من إعادة فتح المسلمين لمدينة طرابلس. فوجد فيها رسولاً أرسله السلطان قلاوون للاحتجاج على قيام الطوائف الدينية العسكرية بنقض الهدنة، حيث نهض رجال هذه الطوائف لمساعدة طرابلس. فرد هنري بأن الهدنة لا تنطبق إلا على مملكة القدس (عكا). فلو أن طرابلس كانت داخلة في الهدنة، لما أقدم السلطان قلاوون على فتحها. وقبل المسلمون هذا العذر. وتجددت الهدنة لمدة عشر سنوات أخرى وعشرة شهور وعشرة أيام، على أن تدخل فيها مملكتا القدس وقبرص. وبادر ملك أرمينية وسيدة صور الى احتذاء هذا المثال. غير أن ملك قبرص هنري لم يعد يثق في عهد السلطان، ولم يكن بوسعه أن يغامر فيستنجد بالمغول، لأن السلطان قلاوون سيعتبر ذلك انتهاكاً للهدنة. فعاد الى قبرص سنة ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩. بعد أن خلف أخاه نائباً عنه في عكا. وعمل فور

وصوله الى قبرص على ارسال سفارة الى أوروبا ـ برئاسة يوحنا جرايللي ـ ليشرح لملوك الغرب مدى الخطورة التي وصلت إليها بقايا ممتلكات الفرنج في الشام.

انزعج ملوك الغرب أيضاً لما حل بطرابلس من مصير. غير أنه ما من أحد كان في وضع يسمح له ببذل اهتمام لما كانت تتعرض له قوات الفرنج فيما وراء البحار. وحاولت جمهورية جنوة الانتقام لما نزل بها من الخسائر الفادحة نتيجة لضياع طرابلس، فاستولت على سفينة مصرية كبيرة كانت تحمل بضائع تجارية وفيرة، في مياه جنوب الأناضول كما أرسلت قوات أغارت على ميناء التينة بالدلتا والذي كان مجرداً من أسباب الدفاع ولما أغلق السلطان قلاوون ميناء الاسكندرية في وجه الجنويين، بادروا لعقد الصلح. وعندما وصلت رسلهم الى القاهرة لاتمام الصلح، التقوا بسفارتين من قبل الامبراطور البيزنطي والامبراطور الالماني وهما تعملان في خدمة السلطان.

امتنع ملوك أوروبا وحكامها من الاستجابة لنداء البابا، إلا أن رعاع الفلاحين والمتعطلون من سكان المدن الصغيرة في لومبارديا وتوسكانيا وشمالي ايطاليا استجابوا للنداء، وجاؤوا يدفعهم الطمع والجشع للحصول على غنائم. فقبل البابا مساعدتهم، وأسند قيادتهم الى أسقف طرابلس الذي كان قد لجأ إلى روما. وكان يأمل بأنهم لن يرتكبوا حماقة، بعد أن خضعوا لسيطرة رجل كنيسة يستطيع أن يكبح جماحهم، فضلاً عن معرفته العميقة بأمور بلاد الشام. وقام البنادقة بتقديم عشرين سفينة لنقل (قوات الحملة الجديدة). وانضمت إليها خمس سفن أرسلها ملك أراغون ـ جيمس ـ.

وعندما وصلت هذه القوات إلى عكا، وجدتها في حالة من اليسر والرخاء. فقد أعادت الهدنة المعقودة بين ملك قبرص هنري، وبين السلطان قلاوون، الثقة للنفوس. وأخذ تجار دمشق في ارسال قوافل تجارتهم الى الساحل، وتوافر المحصول الزراعي في تلك السنة (٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م)، مما حمل الفلاحين المسلمين في الجليل على ارسال منتجاتهم إلى عكا، التي لم تعرف من النشاط والحيوية مثل ما شاهدته في تلك السنة. ولهذا فقد ارتبك أهل عكا عندما وصلتهم قوات الصليبيين الايطاليين الذين أخذوا في إثارة الفوضى والاضطراب في حياة المدينة المنظمة. واشتهر هؤلاء الايطاليين بالفجور

والسكر. وأخذوا في مهاجمة التجار والفلاحين المسلمين. إلى أن حدث ذات يوم أن اندلعت فتنة أثارها هؤلاء وانتهت باجراء مذبحة بالمسلمين. فقرر قلاوون تصفية وجود الفرنج في بلاد الشام بإعادة فتح عكا. وتوفي السلطان قلاوون وهو يعد لحملته الكبرى (سنة ١٢٩٠ م) وجاء ابنه الأشرف خليل. فنفذ وصية والده. وأكمل طرد الفرنج من عكا (في ١٨ - أيار - مايو - سنة ١٢٩١ م) وما تبقى من مدن الفرنج لم تلبث أن شاركت عكا في مصيرها. فتمت اعادة فتح مدينة صور. وتبعتها مدينة صيدا ومدينة حيفا.

هكذا ابتلعت رمال المسلمين بناء الفرنج، والذي ظن بناته ومهندسوه أنهم أقاموا بناءً خالداً على الزمان. وعادت أرض المسلمين للمسلمين.

انطلقت جيوش المسلمين بعدئذ وهي تجوب بلاد الساحل من أقصاها إلى أقصاها طوال شهور عديدة، وذلك لتدمير كل ما قد يفيد الفرنج إذا ما فكروا في العودة إلى بلاد الشام. وبادر كل من بقي في الشام ممن كانت له أصول ترتبط بالفرنج، فاندمج بالمسلمين أهل البلاد. فما سبق أن اتصف به الإسلام من التسامح قد مضى، إذ لم يظهر المسلمون أي تسامح تجاه أعداء الدين. ولم يكن الفرنج الذين فروا الى قبرص بأحسن حال. إذ ظلوا جيلاً من الزمان يعانون الحياة التعسة على أنهم لاجئون غير مرغوب فيهم. وطويت صفحة من صفحات جهاد بلاد الشام ضد الفرنج الغزاة، لتفتح صفحات أخرى.